تفسير البيان

في

الموافقة بين الحديث والقرآن

المجلد الأول

تأليف

العلامة السيد محمد حسين الطباطبائي

تحقيق

أصغر إرادتي

دار التعارف للمطبوعات

تفسير البيان

في

الموافقة بين الحديث والقرآن

مجموعة الآثار ١١

تفسير البيان

في

الموافقة بين الحديث والقرآن

المجلد الأول

تأليف

العلامة السيد محمد حسين الطباطبائي

تحقيق

أصغر إرادتي

دار التعارف للمطبوعات

الطبعة الأولى

١٤٢٧هـ - ٢٠٠٦م



مكتب تنظيم
ونشر آثار العلّامة
الطباطبائي

دار التعارف للمطبوعات

لبنان - بيروت - حارة حريك - شارع دكّاش - بناية الحسنين

ص.ب: ٦٤٣ - ١١ - ٨٦٠١ - ١١

هاتف: ٢٧١٩٠٧ - ٢٧١٩٠٨ ١ ٠٠٩٦١ - فاكس: ٢٧١٩٠٨ ١ ٠٠٩٦١

موبايل: ٨٢٣٦٢٠ ٣ ٠٠٩٦١

بسم الله الرحمن الرحيم

١ بسم الله الرحمن الرحيم

بسم الله الرحمن الرحيم

قوله سبحانه بسم الله الرحمن الرحيم. الناس ربما يعملون عملا او يبتدئون
في عمل باسم عزيز من اعزتهم او كبير من كبرائهم ليكون عملهم مباركا بذلك او
ذكرى يذكرهم به ومثل ذلك موجود في باب التسمية فربما يسمون انسانا او
شيئا مصنوعا او معمولا باسماء من يودونه او يعظمونه ليبقى الاسم ببقائه وهذا
القاء نسبة بين المسمى وصاحب الاسم ليكون لصاحب الاسم نوع بقاء ببقاء
المسمى فلا يزول ولا ينسى وقد جرى كلامه سبحانه هذا المجرى ليكون ما يشتمل
عليه من الخير مرتبطا باسمه سبحانه وادبا يؤدب به العباد في اعمالهم وافعالهم
واقوالهم فيبتدئوا باسمه ويعملوا به ليكون مفهوما بسمة ومقصودا لاجله سبحانه
وفيه الهام ان العمل موجه لوجه الله فلا يكون هالكا مبترا باطلا اذ قد بين
سبحانه في مواضع من كلامه ان ما ليس لوجهه الكريم مبتر باطل هالك باطل
وانه سيقدم الى ما عملوا من عمل لا يريد به وجهه فيجعله هباء منثورا ويحبط
منهم ما كانوا يعملون من قبل وما كانوا يفترون فكل امر واقع فانما
نصيبه من البقاء والبركة بقدر ما لله سبحانه فيه من النصيب فلو كان
مفهوما بسمة مسمى باسمه مقصودا لاجله سبحانه والا فهو هالك ابتر
لا عقب له وهذا المعنى ما رواه الفريقان عن النبي ص كل امر ذي بال لم
يبدء فيه باسم الله فهو ابتر الحديث. ثم انه سبحانه كرر في كلامه ذكر السورة
كثيرا كقوله سبحانه فأتوا بسورة مثله وقوله سبحانه فأتوا بعشر سور مثله مفتريات
وقوله سبحانه واذا انزلت سورة وقوله سبحانه سورة انزلناها وفرضناها فبان لنا
من ذلك ان لبعض الطوائف من كلامه سبحانه التي فصلها قطعا قطعا
وسمى كل قطعة منها سورة نوع من وحدة التأليف والتمام لا يوجد بين
ابعاض من سورة ولا بين سورة وسورة ومن ذلك يعلم ان الاغراض

الصفحة الأولى من النسخة الخطية المصححة من تفسير سورة الفاتحة

الصفحة الأخيرة من النسخة الخطية المسودة من تفسير سورة الفاتحة

ولأجازينه من سيئاته فإذا قال العبد إياك نعبد قال الله عز وجل صدق عبدي
إياي يعبد أشهدكم لأثيبنه على عبادته ثوابا يغبطه كل من خالفه في عبادته
لي فإذا قال العبد وإياك نستعين قال الله تعالى بي استعان وإلي التجأ
أشهدكم لأعيننه على أمره ولأغيثنه في شدائده ولآخذن بيده يوم نوائبه
فإذا قال اهدنا الصراط المستقيم إلى آخر السورة قال الله عز وجل هذا لعبدي
ولعبدي ما سأل فقد استجبت لعبدي وأعطيته ما أمل وآمنته مما منه وجل
أقول [illegible] ظاهر [illegible] في الجلال عن زمام
واعلم أن هذه السورة تسمى بأسماء كثيرة منها أم الكتاب وفاتحة الكتاب و
سورة الحمد والسبع المثاني وفي الأخبار تدل على أن هذه الأسماء كانت متداولة
في زمن النبي وربما يستفاد من تسميته بفاتحة الكتاب وجود تأليف القرآن
في زمن النبي

الصفحة الأخيرة من النسخة الخطية المصححة من تفسير سورة الفاتحة

بسم الله الرحمن الرحيم ١ الم ٢ ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين

قوله سبحانه: الم [illegible] ما يتعلق من الكلام بالحروف المقطعة التي

في أوائل السور في أول سورة الشورى [illegible] الكلام في كلمة من آية القرآن في

قوله سبحانه: للمتقين [illegible] المتقون هم المؤمنون [illegible] التقوى

في [illegible] الطبقة [illegible] حتى تكون [illegible] في مقامات

الإيمان ومرتبة من مراتبه [illegible] من مراتب الإيمان

إذا تميز الإيمان بمقام التحقق والتصديق [illegible]

المعرفة للمتقين في هذه الآيات التسعة عشر التي يبين فيها حال المؤمنين

والكافرين والمنافقين [illegible] صفات [illegible] الإيمان بالغيب وإقامة

الصلوة والإنفاق مما رزق الله والإيمان بما أنزل الله على

أنبيائه والإيقان بالآخرة [illegible] هذه الأوصاف

بقوله: أولئك على هدى من ربهم وأولئك هم المفلحون [illegible]

الذين يأتي وصفهم من الكافرين والمنافقين من الضلال [illegible]

[illegible] والضلال [illegible] ضلالهم

[illegible] المتقين من الاهتداء [illegible]

الضالين [illegible] الاهتداء [illegible] والاهتداء [illegible]

[illegible] في الإيمان [illegible]

[illegible] الاهتداء [illegible]

الصفحة الأولى من النسخة الخطية المسودة من تفسير سورة البقرة

بسم الله الرحمن الرحيم الم ١
ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى
للمتقين

بسم الله الرحمن الرحيم سورة البقرة قوله الم ١ سيأتي بعض ما يتعلق من الكلام بالحروف
المقطعة التي في اوائل السور في اول سورة الشورى وكذا الكلام في هداية القرآن
قوله سبحانه هدى للمتقين الذين يؤمنون او المتقون هم المؤمنون والصفات
المذكورة من الاوصاف الخاصة للمتقين من طبقاتهم اعني مرتبة من مراتب
الايمان حتى تكون مقاما من مقاماته كالاخبات والخلوص بل هي صفة
عامة لجميع مراتب الايمان اذا تلبس الايمان بلباس التحقق والصدق
والذي اخذه سبحانه من الاوصاف المعرفة للمتقين في هذه الايات الاربع عشرة
التي يبين فيها حال المؤمنين والكافرين والمنافقين خمس صفات وهي
الايمان بالغيب واقامة الصلاة والانفاق مما رزقهم الله والايمان
بما انزل الله على انبيائه والايقان بالآخرة وحيث عقب سبحانه هذه
الاوصاف بقوله اولئك على هدى من ربهم واولئك هم المفلحون
وقابلها ايضا بما وصف به الكافرين والمنافقين من الضلال وهي
الضلالة التي لهم من انفسهم والضلال الطارئ على الهدى بعده سبحانه
به ضلالهم الذاتي فهذه الاوصاف تنشأ في المتقين من اهتدائين
في مقابل الضلالين في غيرهم وهما اهتداء ذاتي اول واهتداء ثان
يلحق بالاول ويتم به كمالهم في الايمان وهما سلامة الفطرة في الانسان
وما يلحق بها ثانيا من خلعة الاهتداء من الله سبحانه فان الفطرة اذا
سلمت لم تستنكف من ان تتنبه شاهدة لفقرها وحاجتها الى امر
خارج عنها وكذلك احتياج كل ما سواها مما يقع عليه حس او وهم او عقل
الى امر خارج يقف دونه سلسلة الحوائج فهي شاهدة لوجود موجود غائب
عن الحس منه يبدأ الجميع واليه ينتهي ويعود وانه كما لم يهمل دقيقة من
دقائق ما يحتاج اليه الخلقة كذلك لا يهمل هداية الناس الى ما يخرجون

الصفحة الأولى من النسخة الخطية المصححة من تفسير سورة البقرة

[illegible]

115 وقالوا اتخذ الله ولدا سبحانه بل له
ما في السموات والأرض كل له قانتون
116 بديع السموات والأرض إذا قضى
أمرا فإنما يقول له كن فيكون 117 وقال
الذين لا يعلمون لولا يكلمنا الله أو تأتينا
آية كذلك قال الذين من قبلهم [illegible]
قد بينا الآيات لقوم يوقنون 118
إنا أرسلناك بالحق بشيرا ونذيرا و
لا تسئل عن أصحاب الجحيم 119 ولن
ترضى عنك اليهود ولا النصارى حتى
تتبع ملتهم قل إن هدى الله هو الهدى
ولئن اتبعت أهواءهم بعد الذي
جاءك من العلم ما لك من الله من
ولي ولا نصير

[illegible]

صفحة من النسخة الخطية المسودة من تفسير سورة البقرة

فلما قضى طوافه خرج بالمروة قام فخطب اصحابه وامرهم ان يحلوا ويجعلوها عمرة وهي
شيء امر الله به فاحل الناس وقال رسول الله لو كنت استقبلت من امري ما
استدبرت لفعلت ما امرتكم ولم يكن يستطيع ان يحل من اجل الهدي الذي معه
لان الله يقول ولا تحلقوا رؤسكم حتى يبلغ الهدي محله فقال سراقة بن مالك بن
جعشم الكناني يا رسول الله علمنا ديننا كانما خلقنا اليوم ارايت لهذا الذي امرتنا
به العامنا هذا او لكل عام فقال رسول الله لا بل للابد الابد وفي يب
عن الصادق قال دخلت العمرة في الحج الى يوم القيمة فمن تمتع بالعمرة الى الحج
فما استيسر من الهدي فليس لاحد الا ان يتمتع لان الله انزل ذلك في كتابه
وجرت به السنة من رسول الله وفي الكافي عن الصادق ع في قوله تعالى فما
استيسر من الهدي شاة وعنه ايضا في المتمتع لا يجد الشاة قال يصوم قبل
التروية بيوم ويوم التروية ويوم عرفة قيل فانه قدم يوم التروية قال يصوم
ثلثة ايام بعد التشريق قيل لم يقم عليه جماله قال يصوم يوم الحصبة وبعده
يومين قيل وما الحصبة قال يوم نفره قيل يصوم وهو مسافر قال نعم اليس
هو يوم عرفة مسافرا انا اهل بيت نقول ذلك بقول الله فصيام ثلثة ايام
في الحج يقول في ذي الحجة وفي الفقيه عن الصادق ع قال ما دون المواقيت
الى مكة فهو حاضري المسجد الحرام وليس له متعة وفي الكافي والروايات فيه بمعاني
كثيرة قوله سبحانه الحج اشهر معلومات وفي الكافي عن الباقر ع قال الحج
اشهر معلومات شوال وذو القعدة وذو الحجة ليس لاحد ان يحج فيما سواهن وعنه
عن الصادق ع الفرض التلبية والاشعار والتقليد فاي ذلك فعل فقد فرض
الحج وعنه ع الرفث الجماع والفسوق الكذب والسباب والجدال قول الرجل
لا والله وبلى والله وفي الكافي والاخبار فيه المعاني كثيرة قوله سبحانه ليس عليكم
جناح ان تبتغوا فضلا من ربكم في تفسير العياشي عن الصادق ع يعني الرزق فاذا

١٩٦ الحج اشهر معلومات فمن فرض
فيهن الحج فلا رفث ولا فسوق ولا
جدال في الحج وما تفعلوا من خير يعلمه
الله وتزودوا فان خير الزاد التقوى
واتقون يا اولي الالباب ١٩٧
ليس عليكم جناح ان تبتغوا فضلا من
ربكم فاذا افضتم من عرفات
فاذكروا الله عند المشعر الحرام و
اذكروه كما هديكم وان كنتم من
قبله لمن الضالين

صفحة من النسخة الخطية المصححة من تفسير سورة البقرة

الفهرس

سورة الفاتحة

سورة البقرة (١)

❋

بِسْمِ ٱللهِ ٱلرَّحْمَنِ ٱلرَّحِيمِ

مقدمة التحقيق

تعريف بالمؤلّف:

إنّ الشمس غنيّة عن التعريف والصباح يُزري بضوء المصباح، فإنّ صيت المؤلّف قد طار في أرجاء الدنيا، وهو فيلسوف الشرق بلا منازع، بل فيلسوف الشرق والغرب في تأريخنا المعاصر.

هو العالم العارف المحقّق المدقّق والجامع الكامل السيّد محمّد حسين بن السيّد محمّد، الذي يعود نسبه من طرف الأب إلى الإمام الحسن المجتبى ـعليه السلام ـ ومن طرف الأُمّ إلى أخيه الإمام الحسين ـعليه السلام ـ ومن هنا نراه ـقدّس سرّه ـ يكتب في بعض توقيعاته: «السيّد محمّد حسين الحسني الحسيني الطباطبائي».

ولد ـ رضوان الله تعالى عليه ـ سنة ١٣٢١ هـ.ق وسط عائلة معروفة بالتقوى والزهد والعلم، وفي سنّ السادسة عشرة من عمره انصرف لدراسة العلوم الدينيّة، ثمّ بعد سبع سنوات من الدرس الدؤوب قصد موضع عشّاق العلم ومهوى قلوب الطلّاب أعني الحوزة العلميّة في النجف الأشرف للانتهال من عبيرها العذب الثرّ ليكمل هناك تحصيلاته العالية، وبقي هناك عشر سنوات حضر فيها دروس الفقه والأُصول عند فطاحل العلم ومفاخر الحوزة

أمثال الشيخ محمّد حسين الغروي الأصفهاني والسيّد أبي الحسن الأصفهاني والشيخ النائيني والحكيم بادكوبه، كما أنّه في الوقت نفسه بذل جهداً وافراً في دراسة الفلسفة والكلام والأخلاق والرياضيّات والرجال.

ثمّ عاد إلى مسقط رأسه «تبريز» لسوء الظروف المعيشيّة التي كان يمرّ بها، وبقي فيها ما يقارب العشر سنوات، ثمّ بعد ذلك غادرها إلى المدينة الثانية للعلم آنذاك أعني الحوزة العلميّة في مدينة قم المقدّسة، ولم يكن للفلسفة وما أشبهها رواج في هذه الحوزة، ولذا نرى شيخنا العلّامة ـ أعلى الله مقامه ـ قد اهتمّ اهتماماً بالغاً وركّز على التدريس والتأليف في هذا المجال ومجال التفسير.

ميزاته:

هناك ميزات عديدة اجتمعت في سيّدنا ـ المترجَم ـ لا تجتمع إلّا في القلائل على مرّ العصور، ممّن حباهم الله واختصّهم بعطائه ورحمته:

منها: تشعُّب العلوم والأبواب التي طرقها المؤلّف، رغم تفاوتها الشاسع؛ فبينما تراه يغوص في بحر العقليّات بكلّ ما فيه من العمق والتعقيد بمجالاته من المنطق والفلسفة والكلام والعرفان والرياضيّات والهيئة، تراه وبنفس القدرة والجدارة والقوّة يلج باب النقليّات بمجالاته من الفقه والسيرة والتفسير والسُّنن، والعلوم الأدبيّة من اللغة والنحو والصرف وما أشبه ممّا تحتاج إلى مهارة من نوع آخر، كما أنّه أبدع في علم الأصول الذي تبرز فيه جنبتا العلوم النقليّة والعقليّة معاً.

ومنها: انطباع كلّ مجالٍ ورده بطابع الإتقان والإحكام لكلّ جوانبه دون

أن يترك فيه ثغرة إلّا ويشبعها بحثاً وتحقيقاً.

ومنها: اتّصافه بصفة التجديد، فتراه لا يمرّ بمطلب دونما إضافة وإبداع، يثري بها بحثه.

ومنها: اتّخاذه للتخصّص شعاراً في بحوثه رغم كثرتها وتفاوتها وعمقها، والتخصّص مرتبة أعلى من الاطّلاع الواسع كما لا يخفى.

ومنها: الوضوح في كلّ مفردة من مفردات بحثه، بل إنّه ليتعجّب الناظر في كتاباته من قدرته الفائقة على اكتشاف الارتباط القائم بين المسائل المتشتّتة ومن ثمَّ الاستفادة من ذلك الارتباط في تنضيج العلم.

وبالجملة: كانت هذه الخصائص والصفات ظواهر لا تنفكّ عن بحوثه وتأليفاته.

ومنها: تميّزه ـ بالإضافة الى ما تقدّم ـ بتسلّطه على التنظير وإعطاء النظريّة مع نقد نظريّات الآخرين وتفنيُدها.

وهذه الميزة هي الأصعب؛ إذ ليس كلّ من استطاع أن يحوي ما تقدّم قادراً على ذلك.

ومنها: جمعه بين جوانب الغزارة في العلم، والانهماك في التطبيق، والإخلاص في العمل، والشفّافيّة في الخُلُق، فهو الرجل الكامل الذي كلّما وضعت يدك على جانبٍ وخصلةٍ لم تَرَ غير ما هو الأفضل والأعلى والأرقى في بابه.

ومنها: صفة القدرة على عدم صبغ كتاباته في كلّ مجال يخوض فيه بصبغة مجال آخر، فرغم كونه الفيلسوف الأكبر لم يحاول أن يُبدي على تأليفاته ـ غير المربوطة بالفلسفة ـ صبغة فلسفيّة، فهو ـ قدّس سرّه ـ في كلّ فنّ يلبس اللباس الذي يقتضيه ذلك الفنّ لا غير دونما تأثّر.

آثاره:

١ ـ هذا التفسير الذي بين يدك؛

٢ ـ *الميزان في تفسير القرآن*؛

٣ ـ *بداية الحكمة*؛

٤ ـ *نهاية الحكمة*؛

٥ ـ *أُصول الفلسفة والمنهج الواقعي*؛

٦ ـ *الشيعة في الإسلام*؛

٧ ـ *سنن النبيّ*؛

٨ ـ *القرآن في الإسلام*، والذي ترجم إلى عدّة لغات.

وعشرات الرسائل والكتب الأُخرى، لا يسع المجال لتفصيلها.

وفاته:

وفي سنة ١٤٠٢ هـ ق فجعت الأُمّة وتيتّم العلم وأهله برحيل مفكّرها وعظيمها إلى الملكوت وجنان الخلد والراحة الأبديّة، وذلك في صباح يوم الأحد في الثامن عشر من شهر محرّم الحرام، ودفن في مدينة قم المقدسة بجوار السيّدة الجليلة فاطمة المعصومة ـ عليها السلام ـ فسلامٌ عليه يوم ولد، ويوم أصبح مفخرة للعلم، ويوم انتقل إلى جوار ربّه، ويوم يُبعث حيّاً.

تعريف بالكتاب:

ليس من شكّ في أنّ من جملة المهمّات الصعبة أن يقوم الباحث بعمليّة التوفيق بين الآيات بظواهرها وحسب ما يعطيه مفادها، وبين الروايات

الواردة في تفسيرها على كثرتها وما يتراءى من الاختلاف الشاسع في مضامينها.

وصعوبة هذه العمليّة تنشأ من الحاجة إلى الاضطلاع في محاور عديدة:

منها: الإحاطة الشاملة والعميقة في المعارف القرآنيّة.

ومنها: المعرفة الكاملة باللسان المفسّر لتلك الآيات، أعني الروايات الواردة عن المعصومين ـ عليهم السلام ـ.

ومنها: القدرة على تطبيق ما يوصل إليه أحدهما على ما يستفاد من الآخر.

ولذلك نرى الكثير من المفسّرين يتحاشى عن عمليّة الجمع والتوفيق بينهما، إمّا بإهمال هذا الجانب رأساً، أو محاولاً سرد الروايات التفسيريّة دونما تعليق، أو مقتصراً على شيء يسير من التوضيح والتوفيق دونما دخول في العمق أو حلّ جذري للمسألة.

والكتاب الماثل بين يديك ـ عزيزنا القارئ ـ يعبّر عن عمل جريء ونتاج فكري رائع صبّه مؤلّفه العلّامة الطباطبائي ـ قدّس سرّه ـ على هذا المحور ـ أعني عمليّة الجمع والتوفيق بين الآيات والمرويّات ـ بطريقة فريدة من نوعها؛ فكان يستنطق الآيات ويستخرج منها مفهوماً متكاملاً، ثمّ يغوص في الروايات ويستخرج منها مفاداً رائعاً، ثمّ يلاقح بينهما ـ في عمليّة معقّدة ـ للتوصّل إلى نظريّة موحّدة فذّة، يتلاشى فيها كلّ ما كان يتخيّل ويتراءى من الاختلاف والتهافت، ولا يُرى هناك غير الانسجام والالتئام.

ولم يستغرق مؤلّفنا ـ قدّس سرّه ـ في البحث عن أسانيد الروايات وأحوال رجالها وبيان قوّتهم أو ضعفهم، لأنّ غرضه ـ الذي أشرنا إليه آنفاً ـ

لم يكن يقتضي ذلك.

كما أنّه لم يستغرق ـ وللسبب الذي أشرنا إليه نفسه ـ في الأبحاث الفلسفيّة والتأريخيّة والأخلاقيّة، أو حتّى في بيان معنى كلّ آية آية، وبهذا اختلف منهجه هنا عمّا نهجه هو بنفسه في *الميزان في تفسير القرآن*.

إلّا أنّه ـ وللأسف الشديد ـ لم تشأ الظروف والمقادير أن يكمل المؤلّف هذا السِّفر القيِّم إلى آخره، فتوقّف فيه عند أواسط سورة يوسف، ولعلّ السبب في ذلك يعود ـ على ما ذكره بعض القريبين منه ـ إلى الاضطراب الذي حصل أثر هجوم الرُّوس على مدينة تبريز.

تأريخ تأليف الكتاب:

وقد كان شروع المؤلّف في تأليف هذا الكتاب عند عودته من النجف الأشرف إلى موطنه تبريز، وكان ذلك قبل شروعه في تأليف سفره القيِّم الآخر «*الميزان في تفسير القرآن*».

وقد كتبه في ثلاثة أجزاء: يحتوي الجزء الأوّل منه على (٣٧٣) صفحة، والثاني على (٣٦٥) صفحة، والثالث على (١٢٩) صفحة، وكلّ صفحة تشتمل على (٢٢) سطراً، والجزء الأوّل منها يشتمل على نسختين مبيضة ومسودة.

وقد أنهى تفسيره لسورة البقرة ـ كما ذكر ذلك هو في آخرها ـ ليلة الأضحى من سنة ١٣٦٤ هـ. ق.

كما أنهى تفسير سورة آل عمران ـ وبها يتمّ الجزء الأوّل من الأجزاء الثلاثة للمخطوطة ـ في الثاني عشر من شهر ربيع الثاني لسنة ١٣٦٥ هـ. ق.

كما أنّه في آخر سورة المائدة يقول:

«بلغ إلى هنا في المشهد المقدّس الرضوي على صاحبها أفضل السلام صبيحة يوم الثلاثاء الثاني والعشرين من شهر رمضان المبارك عام خمس وستّين وثلاث مائة وألف هجريّة نبويّة قمريّة على هاجرها الصلاة».

وانتهى من تفسير سورة الأنعام في ليلة الثلاثاء السادس عشر من شهر محرّم من سنة ١٣٦٩ هـ. ق.

ومن تفسير سورة الأعراف في ليلة الأربعاء في العاشر من شهر جمادي الثانية من نفس السنة.

كما أنّه في نفس السنة في يوم الأربعاء التاسع والعشرين من شهر رجب فرغ عن تفسير سورة الأنفال.

واستمرّ في السنة ذاتها إلى منتصف شهر رمضان ـ وكان مصادفاً ليوم السبت ـ في تحريره لتفسير سورة التوبة.

منهج التحقيق:

ليس التحقيق مجرّد عمل كمالي يخرج الكتاب بواسطته من نسخته المخطوطة إلى نسخة مطبوعة بشكل أنيق، وإنّما هو جهد علمي يحتاج إلى فهم مقصود المؤلّف، كما أنّه ليس من مواصفات المحقّق الناجح الجرأة على ما كتبه المؤلّف فيتسرّع في الحكم بخطئه، فضلاً عن أن يمدّ يد التغيير إلى جملاته أو حتّى إلى حرف من حروفه بحجّة كون ما توصّل إليه هو الصحيح، بل الفنّ ـ فنّ التحقيق ـ يقتضي الدفاع عن نسخة المؤلّف ما أمكن الدفاع، إلى أن يثبت الخطأ فيشير إليه في الهامش، أو يضعه بين معقوفتين داخل

المتن ويشير إلى ذلك في الهامش.

وكان هذا هو المنهج الذي اعتمدناه في تحقيق نسخة هذا الكتاب القيّم.

وتمّت عمليّة التحقيق بالطريقة التالية:

١ ـ لم يتمّ استنساخ نسخة المؤلّف، لوضوح خطّها،[١] فلم نحسّ بالحاجة إلى ذلك، بل تمّ إجراء ضبط الكلمات والتقطيع البدوي للنصّ عليها، ثمّ صفّت حروفها في الحاسوب «الكامپيوتر» ثمّ أُجريت عمليّات التحقيق الأُخرى.

٢ ـ تمّ مقابلة وتطبيق ما سُحب على الورق مع النسخة المخطوطة؛ للتأكّد من سلامة المطبوع عن الأخطاء ومطابقته للأصل.

٣ ـ تمّ توثيق ما نقله المؤلّف من الآيات والروايات والأقوال عن طريق استخراجها من مصادرها الأصليّة، وفي الأثناء تمّت عمليّة مقابلة بين ما هو المنقول هنا وبين المصادر للتأكّد من التطابق، وقد أُشير في الهامش ـ عند عدم المطابقة ـ إلى الاختلاف بعلامة (ـ) إذا لم تكن الكلمة المنقولة موجودة في المصدر، وبعلامة (+) إذا نقصت نسختنا عن المصدر، وبإثبات عين الموجود في المصدر عند مغايرة المنقول ـ في ضبطه ـ مع المصدر.

٤ ـ ثمّ أُجريت عمليّة التقويم للنصّ وضبطه بشكل كامل ـ إلّا ما زاغ عنه البصر ـ وعقدنا في الهامش بعض التعاليق التوضيحيّة في الموارد التي ارتأينا فيها ضرورة ذلك.

---

١. ينقل العلّامة الطهراني عن أُستاذه العلّامة ـ أعلى الله مقامه ـ أنّه «كان خطّه على نسق (نستعليق) وهو خطّ فارسي معروف، وفي الخطّ الفارسي (شكسته) من أجمل وأفضل ما خطّه اساتذة فنّ الخطّ، ورغم أنّه أُصيب في أواخر حياته بضعف الأعصاب وحصول الرجفة في يده إلّا أنّ جوهر خطّه المنطلق من يد مرتعشة كان يحكي عن أُستاذه في هذا الفنّ» *الشمس الساطعة*: ١٩ ـ ٢٠.

٥ ـ بالنسبة للآيات جعلت عليها ـ على كلّ حرف منها ـ الحركات، كما أنّه ـ في الآيات التي وردت في كلام المؤلّف ـ فرّقنا بين ما ذكر من الآيات كشاهد على المطلب وبين الآيات التي يكون المؤلّف بصدد شرحها، وذلك بجعل حروف آيات الشاهد أصغر حجماً من الأُخرى.

٦ ـ استخدمنا علامات الترقيم المتداولة في الأساليب المتعارفة للتحقيق من الفارزة (،) والنقطة (.) والفارزة المنقوطة (؛) والأقواس المزهّرة ﴿ ﴾ والأقواس الخالية من التزهير بأشكالها مثل «» و() كما استخدمنا المعقوفات [ ] عند إضافة شيء إلى المتن أو تغيير كلمة كما ألمحنا إلى ذلك آنفاً.

٧ ـ صحّحنا الأخطاء المطبعيّة والإملائيّة والنحويّة دون الإشارة إليها في الهامش.

شكر وتقدير:

نسدي شكرنا أوّلاً: لسماحة السيّد جواد الگلپايگاني والسيّد باقر الگلپايگاني و السيّد جواد الموسويّ الهوائيّ لتشجيعهم الدؤوب على إنجاز العمل وتوفير مستلزمات ذلك، وثانياً: إلى كلّ من ساهم من قريب أو بعيد في سبيل إخراج هذا السِّفر إلى النور، ولا سيّما الاخوة المنتسبين إلى مكتب تنظيم ونشر آثار العلّامة الطباطبائي ـقدّس سرّهـ.

ونسأله تعالى أن يتقبّل هذا العمل خالصاً لوجهه الكريم، وأن ينفع به. والحمد لله ربّ العالمين في البدء والختام.

أصغر إرادتي

سُورَةُ الفَاتِحَةِ

[بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿١﴾]

قوله سبحانه: ﴿ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴾
الناس ربّما يعملون عملاً أو يبتدئون في عمل باسم عزيز من أعزّتهم أو كبير من كبرائهم ليكون عملهم مباركاً بذلك أو ذكرى يذكّرهم به. ومثل ذلك موجود في باب التسمية، فربما يسمّون إنساناً أو شيئاً مصنوعاً أو معمولاً بأسماء مَن يهدونه أو يعظّمونه ليبقى الاسم ببقائه، وهذا إلقاء نسبة بين المسمّى وصاحب الاسم ليكون لصاحب الاسم نوع بقاء ببقاء المسمّى، فلا يزول ولا ينسى.

وقد جرى كلامه سبحانه هذا المجرى، ليكون ما يشتمل عليه من المعنى مرتبطاً باسمه سبحانه وأدباً يؤدَّب به العباد في أعمالهم وأفعالهم وأقوالهم، فيبتدئوا باسمه ويعملوا به ليكون منعوتاً بنعته ومقصوداً لأجله سبحانه، وفيه إظهار أنّ العمل موجّه بوجه الله، فلا يكون هالكاً متبّراً باطلاً؛ إذ قد بيّن سبحانه في مواضع من كلامه: أنّ ما ليس لوجهه الكريم متبّر باطل[1] حابط،[2] وأنّه

---

١. اشارة إلى سورة الأعراف (٧): ١٣٩.

٢. البقرة (٢): ٢١٧؛ المائدة (٥): ٥؛ الزمر (٣٩): ٦٥.

سيقدم إلى ما عملوا من عمل أُريد به غيره، فيجعله هباءً منثوراً[١] حين يضلّ عنهم ما كانوا يدعون من قبل[٢] وما كانوا يفترون.[٣]

وكلّ أمر واقع فإنّما نصيبه من البقاء والبركة بقدر ما لله سبحانه فيه من النصيب؛ فلو كان منعوتاً بنعته مسمّى باسمه مقصوداً لأجله سبحانه، وإلّا فهو هالك أبتر لا عقب له. وهذا معنى ما رواه الفريقان عن النبيّ ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ: «كلّ أمرٍ ذي بالٍ لم يبدأ فيه باسم الله فهو أبتر».[٤] الحديث.

ثمّ إنّه سبحانه كرّر في كلامه ذكر السورة كثيراً، كقوله سبحانه: ﴿ فَأْتُواْ بِسُورَةٍ مِثْلِهِ ﴾،[٥] وقوله سبحانه: ﴿ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ ﴾،[٦] وقوله تعالى: ﴿ فَإِذَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ ﴾،[٧] وقوله تعالى: ﴿ سُورَةٌ أَنزَلْنَاهَا وَفَرَضْنَاهَا ﴾.[٨]

فبانَ لنا من ذلك: أنّ لهذه الطوائف من كلامه سبحانه ـ التي فصّلها قِطعاً قِطعاً وسمّى كلّ قطعة منها سورة ـ نوعاً من وحدة التأليف والتمام لا يوجد بين أبعاض من سورة، ولا بين سورة وسورة.

ومن ذلك يعلم: أنّ الأغراض والمقاصد في السور مختلفة، وأنّ كلّ واحدة منها مسوقة لبيان معنى مقصود خاصّ لن تتمّ إلّا بتمامه. وعلى هذا: فالتسمية في أوّل كلّ سورة ـ على ما تقدّم من البيان ـ راجعة إلى توصيف المعنى المقصود

---

١. اشارة الى سورة الفرقان (٢٥): ٢٣.
٢. اشارة الى سورة فصّلت (٤١): ٤٨.
٣. اشارة الى سورة آل عمران (٣): ٢٤؛ الأنعام (٦): ٢٤؛ الأعراف (٧): ١٥١.
٤. *بحار الأنوار* ٧٣: ٣٠٥، الحديث: ١، و ١٠٧: ١٠٨، الحديث: ٢٩؛ *مسند أحمد* ٢: ٣٥٩.
٥. يونس (١٠): ٣٨.
٦. هود (١١): ١٣.
٧. محمّد (٤٧): ٢٠.
٨. النور (٢٤): ١.

بيانه فيها وتنعيته باسمه سبحانه، وكلامه سبحانه جملة واحدة حيث كان مشتملاً بالنظر إلى الغاية الأخيرة على هداية العباد إلى مستقيم الصراط وسواء السبيل [و] بمقتضى الرحمة التي وعد سبحانه أن سيكتبها للذين يتّقون كان الأنسب هو الابتداء والتسمية بالأسماء الثلاثة: «الله» «الرحمن» «الرحيم»، كما اشتمل عليها قوله سبحانه: ﴿ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ ﴾.[١] فهو سبحانه «رحيم» لأنّه «رحمن» و«رحمن» لأنّه «الله» سبحانه، هذا بالنسبة إلى مجموع السور.

وأمّا بالنسبة إلى خصوص هذه السورة ـ وهي سورة الحمد ـ فالذي تشتمل عليه، هو الحمد وإظهار العبوديّة، فما فيها من المضمون فهو له سبحانه لا سبيل للبطلان إليه، غير أنّ قوله سبحانه: ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ ﴾[٢] حيث كان بالنيابة عن العباد تعليماً وتأديباً، كان اشتماله على إظهار العبوديّة والاستعانة اشتمالاً على فعل العبد، وهذا منتهى ما في هذا العمل من وجه الهلاك والفساد.

فالتسمية تنعيته باسمه سبحانه وتبريكه به ليكون بذلك خالصاً لوجهه الكريم، وتستقرّ معنى العبوديّة في مستقرّها، إذ إثبات العبادة للعبد ينافي كونه عبداً لا يملك لنفسه شيئاً.

ويتبيّن بذلك معنى ما ورد من الروايات عنهم ـ عليهم السلام ـ

فعن عليّ ـ عليه السلام ـ: «يعني بهذا الاسم أقرأ وأعمل هذا العمل».[٣]

وفي *التوحيد* و*تفسير الإمام* عنه ـ عليه السلام ـ يقول: «﴿ بِسْمِ اللَّهِ ﴾ أي:

---

١. الأعراف (٧): ١٥٦.

٢. الفاتحة (١): ٥.

٣. تفسير *الصافي* ١: ٨٠.

أستعين على أُموري كلّها بالله الذي لا تحقّ العبادة إلّا له، المغيث إذا استغيث، والمجيب إذا دُعي».[١]

أقول: وهو إشارة إلى ما ذكرناه آنفاً: أنّ التسمية في هذه السورة لتتميم الإخلاص، على ما يقتضيه لفظ الاستعانة الذي لا يستعمل إلّا في مورد يحتاج فيه إلى التتميم دون أصل العمل.

وفي *العيون*، و*المعاني*، عن الرضا ـ عليه السلام ـ: «يعني اسم نفسي بسمة من سمات الله وهي العبادة» قيل له: ما السمة؟ قال: «العلامة».[٢]

أقول: وهذا معنى كالمتولّد من المعنى الذي أشرنا إليه، فإنّ العبد إذا وسم عبادته باسم الله لزم ذلك أن يسم نفسه التي ينسب العبادة إليها بسمة من سماته تعالى.

وفي *التهذيب*: عن الصادق ـ عليه السلام ـ، وفي *العيون*، و*تفسير العيّاشي*، عن الرضا ـ عليه السلام ـ: «إنّها أقرب إلى اسم الله الأعظم من ناظر العين إلى بياضها».[٣]

أقول: وسيأتي معناه في الكلام على الاسم الأعظم.

وفي *العيون*: عن أمير المؤمنين ـ عليه السلام ـ: «إنّها من الفاتحة وإنّ رسول الله ـ صلّى الله عليه وآله ـ كان يقرؤها ويعدّها آية منها، ويقول: فاتحة الكتاب هي السبع المثاني».[٤]

---

١. *التوحيد*: ٢٣١، الحديث: ٥؛ *تفسير الإمام العسكري ـ عليه السلام ـ*: ٢١، الحديث: ٥.
٢. عيون *أخبار الرضا ـ عليه السلام ـ* ٢: ٢٣٦، الحديث: ١٩؛ *معاني الأخبار*: ٣، الحديث: ١.
٣. تهذيب *الأحكام* ٢: ٢٨٩، الحديث: ١٥؛ عيون *أخبار الرضا ـ عليه السلام ـ* ١: ٨، الحديث: ١١؛ تفسير *العيّاشي* ١: ٢١، الحديث: ١٣.
٤. عيون *أخبار الرضا ـ عليه السلام ـ* ٢: ٢٧٠، الحديث: ٥٩.

وفي *الخصال*: عن الصادق ـعليه السلام ـ: «قال: ما لهم قاتلهم الله عمدوا إلى أعظم آية في كتاب الله فزعموا أنّها بدعة إذا أظهروها».[١]

وعن الباقر ـعليه السلام ـ: «سرقوا أكرم آية من كتاب الله بسم الله الرحمن الرحيم».[٢]

وينبغي الإتيان به عند افتتاح كلّ أمر عظيم أو صغير ليبارك فيه.[٣]

أقول: والروايات عن أهل البيت [عليهم السلام] في هذا المعنى كثيرة، وهي على كثرتها تدلّ على أنّ البسملة جزء من كلّ سورة في القرآن إلّا البراءة؛ فإنّها جزء من سورة الأنفال.[٤]

وأمّا خلاصة القول في الأسماء الثلاث: «الله، الرحمن، الرحيم» فـ«الله» فعّال بمعنى المفعول كالكتاب بمعنى المكتوب من أله بمعنى عبد، أو بمعنى تاه إذ هو ذات يتيه فيه العقول وتتحيّر، إذ هو الأصل والمنشأ لكلّ موجود أو كمال موجود لا سبيل لشيء من البطلان إليه؛ إذ هو لازم الأُلوهيّة بحسب النظرة الأُولى من العقل، ولذلك قيل: إنّه اسم للذات الواجب الوجود المستجمع لجميع صفات الكمال، و«الرحمن» فعلان بمعنى كثير الرحمة.

والصفات المثبتة له تعالى من المعاني التي نفهمها يجب أن تجرّد عن الخصوصيّات المصداقيّة التي بين أيدينا أعني عن نواقص الإمكان، فهي تثبت له سبحانه بمجرّد معناها من غير تقيّد بقيود المصاديق المادّية، بل الممكنة على

---

١. لم نجده في *الخصال*؛ أُنظر إلى تفسير *العيّاشي* ١: ٢٢، الحديث: ١٦؛ مجمع *البيان* ١: ٥٠.

٢. لم نجده في *الخصال*؛ تفسير *العيّاشي* ١: ١٩، الحديث: ٤؛ بحار *الأنوار* ٨٢: ٢٠، الحديث: ١٠، و ٨٩: ٢٣٦، الحديث: ٢٨.

٣. والظاهر أنّه ـ قدس سره ـ أخذه من كلام الفيض ـ رحمه الله ـ كما جاء في تفسير *الصافي*.

٤. وسائل *الشيعة* ٦: ٥٦، الباب: ١١؛ مستدرك *الوسائل* ٤: ١٦٤، الباب: ٨.

ما حقّق في محلّه، والرحمة فينا ميل قلبي من الراحم إلى المرحوم لإصابة الخير إليه و بالتجريد عن خصوصيّات المصاديق هي إيصال الخير إلى المحتاج إليه، والخير هو الوجود، فالرحمة منه سبحانه إفاضة الوجود فهو الغنيّ ذو الرحمة وسعت رحمته كلّ شيء، فالاسمان: «الرحمن والرحيم» بمعنى واحد إلّا ما يدلّ عليه هيئة الاسمين. فصيغة المبالغة تدلّ على الكثرة، والصفة المشبّهة على الاستقرار والثبوت والدوام، من غير فرق من حيث الظرف كالدنيا والآخرة، ولا من حيث المتعلّق كالمؤمن والكافر، لكنّه سبحانه يستعمل اسم «الرحيم» في كلامه في موارد يختصّ بالمؤمنين، وبـ«الرحمة» من حيث الهداية أو الثواب، كقوله: ﴿ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾،[١] ﴿ وَإِنَّ ٱللَّهَ بِكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾.[٢]

و من هنا ما يقال: إنَّ الرحمان مختصّ بالدنيا أو عامّ للمؤمن و الكافر، و الرحيم بالآخرة، و هو الملائم لما تفيده الصفة المشبّهة.

وبذلك يتبيّن معنى ما في *الكافي*، و*التوحيد*، و*المعاني*، و*العيّاشي*، عن الصادق ـ عليه السلام ـ في حديثٍ: «والله إله كلّ شيء، الرحمن بجميع خلقه، الرحيم بالمؤمنين خاصّةً».[٣]

وروي عن عيسى بن مريم ـ عليه السلام ـ: «الرحمن رحمن الدنيا، والرحيم رحيم الآخرة».[٤]

وروي عن الصادق ـ عليه السلام ـ: «الرحمن اسم خاصّ بصفة عامّة،

---

١. البقرة (٢): ٢١٨؛ آل عمران (٣): ٣١ و ١٢٩.

٢. الحديد (٥٧): ٩.

٣. *الكافي* ١: ١١٤، الحديث: ١؛ *التوحيد*: ٢٣٠، الحديث: ٢؛ *معاني الأخبار*: ٣، الحديث: ٢؛ *تفسير العيّاشي* ١: ٢٢، الحديث: ١٩.

٤. *التبيان* ١: ٢٩؛ *مجمع البيان* ١: ٥٤؛ *نور الثقلين* ١: ١٤.

والرحيم اسم عامّ لصفة خاصّة».[١]

أقول: وكأنّه ـعليه السلام ـ يريد أنّ الرحمن خاصّ بالدنيا ويعمّ المؤمن والكافر، والرحيم يشمل الدنيا والآخرة لكن يختصّ بالمؤمنين والإفاضة الخاصّة بهم، فيرجع إلى ما ذكرناه من المعنى، وقد قال سبحانه: ﴿ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ ﴾.[٢]

*

---

١. مجمع *البيان* ١: ٥٤؛ جوامع *الجامع* ١: ٥٣؛ نور *الثقلين* ١: ١٤.
٢. الأعراف (٧): ١٥٦.

[ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَالَمِينَ ۝٢ ٱلرَّحْمَنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٣ مَالِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ۝٤]

قوله سبحانه: ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَالَمِينَ ﴾ إلى قوله: ﴿ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴾ ثناء وحمد منه تعالى لنفسه بقصر الحمد عليه، ولا يتفاوت في ذلك كون اللام للاستغراق أو الجنس، إذ قد قال سبحانه: ﴿ ذَلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ ﴾[1] فعمّم نسبة الخلق على ما سواه من شيء ثمّ قال: ﴿ ٱلَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ ﴾،[2] فأثبت الحسن لكلّ شيء مخلوق، فالخلق يدور مع الحسن أينما دار، فما ليس بحسن ليس بمخلوق من حيث إنّه ليس بحسن جميل، ثمّ قال سبحانه: ﴿ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَالَمِينَ ﴾،[3] فأثبت مالكيّة الخلق لنفسه، فهو المالك لكلّ شيء مخلوق جميل، ولا يملك غيره خلقاً ولا جميلاً إلّا بإذنه وتمليكه، فهو سبحانه المالك لكلّ حمد وثناء بالحقيقة، وما ينسب من ذلك إلى غيره سبحانه فله حقّه وحقيقته قبله.

---

١. غافر (٤٠): ٦٢.

٢. السجدة (٣٢): ٧.

٣. الأعراف (٧): ٥٤.

وهذا المعنى هو الذي يقتضيه نضد هذه الأسماء الخمسة المباركة بعد الحمد، فهو سبحانه بألوهيّته مبدأ لكلّ خلق وأمر، وبربوبيّته للعالمين مالكهم ومدبّرهم، وبأنّه رحمن فيّاض للرحمة على جميع خلقه، وبأنّه رحيم للمؤمنين خاصّة، وبملكه يوم الدين حاكم فاصل بين عباده مجازٍ إيّاهم، فلا يبقى شأن من شؤون ما سواه إلّا وهو مبدؤه ومصيره، فله الحمد جميعاً.

روي في كشف *الغمّة*: عن الصادق ـ عليه‌السلام ـ: «قال فُقد لأبي ـ عليه‌السلام ـ بغلة، فقال ـ عليه السلام ـ: لئن ردّها الله عليَّ لأحمدنّه بمحامد يرضاها، فما لبث أن أُتي بها بسرجها ولجامها، فلمّا استوى وضمّ إليه ثيابه رفع رأسه إلى السماء وقال: الحمد لله، ولم يزد، ثمّ قال: ما تركت ولا أبقيت شيئاً، جعلت أنواع المحامد لله عزّ وجلّ، فما من حمد إلّا وهو داخل فيما قلت»،[1] الحديث.

ثمّ إنّ الظاهر من سياق هذه الآيات وقرينة الالتفات في قوله: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾[2] أنّ قوله: «الحمد لله» إلى آخره، كلام العبد، فهو سبحانه يلقي قوله: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾، بالنيابة عن عبده تأديباً وتعليماً لما ليس له بنفسه، فإنّ الحمد توصيف، وقد نزّه سبحانه نفسه عمّا يصفه به العباد، فقال سبحانه: ﴿سُبْحَانَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ * إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ﴾[3] ولم يرد في كلامه ما يؤذن بحكاية الحمد عن غيره إلّا قوله لنبيّه نوح [عليه السلام]: ﴿فَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي نَجَّانَا مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّالِمِينَ﴾،[4] وقوله في خليله إبراهيم ـ عليه السلام ـ: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ

١. كشف *الغمّة* ٢: ٣٢٩.

٢. الفاتحة (١): ٥.

٣. الصافّات (٣٧): ١٥٩ و ١٦٠.

٤. المؤمنون (٢٣): ٢٨.

ﭐلَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى ٱلْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ ﴾ ،[١] وقوله لرسوله محمّد ـ صلّى الله عليه وآله وسلّم ـ في ستّة مواضع، أو سبعة من كلامه: ﴿ وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ﴾ ،[٢] وهؤلاء من عباده المخلصين بنصّ القرآن، وإلّا ما حكاه عن أهل الجنّة في مواضع من كلامه، كقوله: ﴿ وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَالَمِينَ ﴾ ،[٣] وهم مطهّرون من غلّ الصدور ولغو القول والتأثيم، وأمّا غير هذه الموارد فهو سبحانه وإن حكى عن كثير من خلقه بل عن جميعهم الحمد له، كقوله: ﴿ وَٱلْمَلَائِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ ﴾ ،[٤] وقوله: ﴿ وَيُسَبِّحُ ٱلرَّعْدُ بِحَمْدِهِ ﴾ ،[٥] وقوله: ﴿ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ ﴾ ،[٦] إلّا أنّه سبحانه شفّع الحمد في جميعها بالتسبيح، بل جعل التسبيح هو المحكيّ والحمد معه، وذلك أنّ غيره سبحانه لا يحيطون بجمال أفعاله وكمالها لما لم يحيطوا بجمال صفاته الذي عنه جمال الفعل، فما أحاطوا به من شيء فهو محدود بحدودهم مقدّر بقدر نيلهم، فلا يستقيم ما أثنوه بثناء إلّا بعد أن يسبّحوه وينزّهوه عمّا حدّوه وقدّروه بأفهامهم، وقد قال سبحانه: ﴿ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ ،[٧] فالذي يقتضيه أدب العبوديّة أن يقتصر من الثناء على ما يعلمه سبحانه من جمال فعله وصفته، ويطوي كشحاً عمّا دون ذلك، كما في الحديث المتّفق عليه بين الفريقين عن النبيّ ـ صلّى الله عليه وآله

---

١. إبراهيم (١٤): ٣٩.
٢. الإسراء (١٧): ١١١؛ النمل (٢٧): ٥٩، ٩٣؛ المؤمنون (٢٣): ٢٨؛ العنكبوت (٢٩): ٦٣؛ لقمان (٣١): ٢٥.
٣. يونس (١٠): ١٠.
٤. الشورى (٤٢): ٥.
٥. الرعد (١٣): ١٣.
٦. الإسراء (١٧): ٤٤.
٧. البقرة (٢): ٢١٦ و ٢٣٢؛ آل عمران (٣): ٦٦؛ النور (٢٤): ١٩.

وسلّم ـ: «لا أُحصي ثناءً عليك أنت كما أثنيت على نفسك».[١]

وفي *العيون*: عن عليّ ـ عليه السلام ـ أنّه سئل عن تفسيرها، فقال: «هو أنّ الله سبحانه عرّف عباده بعض نعمه عليهم جملاً إذ لا يقدرون على معرفة جميعها بالتفصيل لأنّها أكثر من أن تحصى أو تُعرف، فقال: قولوا: الحمد لله على ما أنعم به علينا».[٢]

أقول: يشير ـ عليه السلام ـ إلى ما مرّ أنّ الحمد من العبد و إنّما ذكره سبحانه بالنيابة تأديباً و تعليماً، ومراده من تعريف بعض النعم جملاً ما يشتمل عليه الأسماء المعدودة بعد الحمد من إجمال النعم وجملها، كما عدّ سبحانه فيوضات هذه الأسماء في سورة الرحمن نعماً و آلاءً لنفسه، ويشير إليه الحديث القدسيّ الآتي.

*

١. *عوالي اللآلي* ٤: ١١٤، الحديث: ١٧٦؛ *مسند أحمد* ١: ٩٦ و ١١٨ و ١٥٠، و ٦: ٢٠١؛ *صحيح مسلم* ٢: ٥١؛ *سنن ابن ماجة* ١: ٣٧٣. أيضاً لاحظ *الكافي* ٣: ٣٢٤، الحديث: ١٢؛ *التوحيد*: ١١٤، الحديث: ١٣.

٢. *عيون أخبار الرضا ـ عليه السلام ـ* ٢: ٢٥٥، الحديث: ٣٠.

[إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥]

قوله سبحانه: ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾.

العبد هو المملوك من الإنسان أو كلّ ذي شعور بتجريد المعنى، كما يعطيه قوله سبحانه: ﴿ إِنْ كُلُّ مَنْ فِي ٱلسَّمَوَاتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّا آتِي ٱلرَّحْمَنِ عَبْداً ﴾،[١] والعبادة مأخوذة منه، و ربّما تفرّقت اشتقاقاتها أو المعاني المستعملة هي فيها لاختلاف الموارد، وما ذكره الجوهري في *الصحاح* أنّ أصل العبوديّة الخضوع[٢] فمن باب الأخذ باللازم، إذ الخضوع متعدٍّ باللام، والعبادة بنفسها، فكأنّ العبادة نصب العبد نفسه في مقام المملوكيّة لربّه، ولذلك كانت العبادة منافية للاستكبار، كما قال سبحانه: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴾،[٣] وغير منافية للاشتراك، فمن الجائز أن يشترك أزيد من الواحد في عبادة واحد، كما جاز أن يشتركوا في ملك رقبة، قال سبحانه: ﴿ وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ

---

١. مريم (١٩): ٩٣.

٢. *الصحاح* ٢: ٥٠٣، مادّة «عبد».

٣. غافر (٤٠): ٦٠.

أَحَداً﴾،(١) وقال: ﴿يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئاً﴾،(٢) والعبوديّة إنّما تستقيم فيما بين العبيد ومواليهم فيما يملكه الموالي منهم، وأمّا ما لا يتعلّق به الملك من شؤون العبد فلا يتعلّق به عبادة ولا عبوديّة لكنّ الله سبحانه إذا نسبنا إليه العبوديّة لم نجد شيئاً سواه لا يتعلّق به ملكه كما لا نجد شيئاً سواه يشاركه في ملكه، وذلك كما يفيده معاني ما ساقه سبحانه من أسمائه عند الحمد، فليس الملك إلّا له سبحانه فقط، وليس لغيره سبحانه إلّا المملوكيّة فقط بنحو التعاكس في القصر، فالملك مقصور له سبحانه، وغيره مقصور على المملوكيّة.

ثمّ إنّ الملك لا يحجب عن مالكه، فإنّك إذا نظرت إلى الدار المملوكة لزيد ـ مثلاً ـ فإن نظرت إليها بما أنّها دار أمكنك أن تغفل عن زيد، وإن نظرت إليها بما أنّها ملك زيد لم يمكنك الغفلة عن المالك، وإذ كان ما سواه سبحانه ليس له إلّا المملوكيّة وكانت هذه حقيقيّة لم يمكن لشيء منها أن يحجب عن ربّه سبحانه ولا النظر إليه والغفلة عنه سبحانه، فله سبحانه الحضور المطلق، قال سبحانه: ﴿أَوَ لَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ * أَلَا إِنَّهُمْ فِي مِرْيَةٍ مِنْ لِقَاءِ رَبِّهِمْ أَلَا إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُحِيطٌ﴾.(٣)

وفي *تحف العقول*: عن الصادق ـ عليه السلام ـ في حديثٍ: «ومَن زعم أنّه يعبد بالصفة لا بالإدراك فقد أحال على غائب، ومَن زعم أنّه يضيف الموصوف إلى الصفة فقد صغّر بالكبير وما قدروا الله حقّ قدره»(٤) الحديث.

---

١. الكهف (١٨): ١١٠.

٢. النور (٢٤): ٥٥.

٣. فصّلت (٤١): ٥٣ و ٥٤.

٤. *تحف العقول*: ٣٢٦.

فحقّ عبادته سبحانه ـ وهي إظهار العبوديّة وحكاية ما عليه العبد من مولاه ـ أن يكون عن حضور مطلق بإمحاء كلّ ما يوجب بحضوره غيبة المعبود والانصراف عنه إلى غيره وترك الاشتغال بما هو مربوب مملوك له وهو الشرك، قال سبحانه: ﴿ قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِي رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ ﴾.[1] فالاشتغال بغيره سبحانه ـ إمّا بعبادة ذلك الغير، أو في ضمن العبادة له سبحانه ـ إعطاء ربوبيّة لغير الله سبحانه، وإنّما الفرق أنّ العبادة لغيره سبحانه ترك له وأخذ لغيره والاشتغال بغيره أو طلبه من العبادة، كطلب الوصول إلى ثواب أو النجاة من عذاب توسيط له سبحانه بينه وبين المطلوب والواسطة غير مقصودة بالذات إلّا من أجل ذي الواسطة، فهو المقصود المعبود بالحقيقة والمآل، كما يشير إليه في رواية *تحف العقول* السابقة: «ومَن زعم أنّه يضيف الموصوف إلى الصفة فقد صغّر بالكبير»[2] الحديث، فالعابد له لأنّه ينعم بالجنّة أو ينجي من النار يصغّر الكبير، قال سبحانه: ﴿ فَاعْبُدِ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ ﴾،[3] وقال: ﴿ أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلْخَالِصُ ﴾،[4] وقال: ﴿ وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَى إِنَّ ٱللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴾.[5]

وفي *الكافي*: عن الصادق ـ عليه السلام ـ قال: «العبادة ثلاثة: قوم عبدوا الله خوفاً، فتلك عبادة العبيد، وقوم عبدوا الله تبارك وتعالى طلب الثواب، فتلك عبادة الأُجراء، وقوم عبدوا الله عزّوجلّ حبّاً له، فتلك عبادة الأحرار، وهي

---

١. الأنعام (٦): ١٦٤.

٢. *تحف العقول*: ٣٢٦؛ نقلت رواية قبل أسطر.

٣. الزمر (٣٩): ٢.

٤. الزمر (٣٩): ٣.

٥. الزمر (٣٩): ٣.

أفضل العبادة».[١]

وفي نهج *البلاغة*: «إنّ قوماً عبدوا الله رغبةً، فتلك عبادة التجّار، وإنّ قوماً عبدوا الله رهبةً، فتلك عبادة العبيد، وإنّ قوماً عبدوا الله شكراً، فتلك عبادة الأحرار».[٢]

وفي *العلل*، و*المجالس*، و*الخصال*: عن الصادق ـعليه السلام ـ: «إنّ الناس يعبدون الله على ثلاثة أوجه، فطبقة يعبدونه رغبةً في ثوابه، فتلك عبادة الحرصاء وهو الطمع، وآخرون يعبدونه خوفاً من النار، فتلك عبادة العبيد وهي رهبة، ولكنّي أعبده حبّاً له عزّ وجلّ، فتلك عبادة الكرام؛ لقوله عزّ وجلّ: ﴿ وَهُمْ مِنْ فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ آمِنُونَ ﴾،[٣] ولقوله عزّ وجلّ: ﴿ قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ ٱللهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ ٱللهُ ﴾،[٤] فمن أحبّ الله عزّ وجلّ أحبّه، ومن أحبّه الله كان من الآمنين»،[٥] وهذا مقام مكنون لا يمسّه إلّا المطهّرون.

أقول: وقد تبيّن معناها ممّا مرّ. وما عدّه في الخبر الثاني قسماً وهو العبادة شكراً يرجع معناها إلى المحبّ على ما في الخبرين الآخرين، فإنّ الشكر وضع الشيء في محلّه، والعبادة شكرها أن يكون لله الذي يستحقّها لذاته، فيعبد الله لأنّه هو، وهو المستجمع لصفات الجمال بذاته، فهو الجميل لذاته المحبوب لذاته، فليس الحبّ إلّا الميل الغريزي إلى الجميل من حيث هو جميل. فقولنا

---

١. *الكافي* ٢: ٨٤، الحديث: ٥.
٢. نهج *البلاغة*، الكلمة: ٢٣٧.
٣. النمل (٢٧): ٨٩.
٤. آل عمران (٣): ٣١.
٥. *علل الشرائع* ١: ١٢ ـ ١٣، الباب: ٩، الحديث: ٨؛ *أمالي* للصدوق ـرحمه الله ـ: ٣٨، الحديث: ٤، المجلس العاشر؛ *الخصال*: ١٨٨، الحديث: ٢٥٩.

فيه سبحانه: لأنّه جميل، وأنّه محبوب، وأنّه هو كلّها واحد. فالعبادة شكراً هي العبادة حبّاً، فافهم ذلك.

ولنرجع إلى ما كُنّا فيه، فنقول: وكأنّ ما ذكرناه من جهتي القصر في العبادة وما يلزمهما، أعني التوحيد في العبادة، ومعنى الحضور هو الوجه في الالتفات من الغيبة إلى الحضور وتقديم الضمير في قوله: ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ ﴾.

وروي بطريق عامّي في معناه عن الصادق ـعليه السلامـ: «يعني: لا نريد منك غيرك، لا نعبدك بالعوض والبدل، كما يعبدك الجاهلون بك، المغيّبون عنك».(١)

أقول: وقد اتّضح معناه ممّا مرّ آنفاً.

واعلم: أنّه لا يبقى على ما مرّ من معنى ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ ﴾، نقص في إظهار العبوديّة غير ما في دعوى العبد العبادة لنفسه، وهي مملوكة له سبحانه، فكأنّه تدورك ذلك في قوله: ﴿ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾، أي: إنّ الذي ننسبه من العبادة إلى أنفسنا إنّما ننسبه إلينا وندّعيه مع الاستعانة بك، لا مستقلّين مدّعين ذلك دونك.

فقوله: ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ لإبداء معنى واحد؛ وهو العبادة الكاملة، وكأنّه لذلك شرّك بين الاستعانة والعبادة في السياق.

وقيل: ﴿إيّاك نعبد وإيّاك نستعين﴾ من دون أن يقال نحو من قولنا: إيّاك نعبد أعنّا واهدنا، وسيجيء الوجه في تغيير السياق في قوله: ﴿ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَاطَ ﴾.

*

---

١. تفسير الصافي ١: ٨٤.

[ٱهْدِنَا ٱلصِّرَاطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝٦ صِرَاطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّالِّينَ ۝٧]

قوله سبحانه: ﴿ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَاطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ * صِرَاطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّالِّينَ ﴾

سؤال للهداية، وقد وصف سبحانه الصراط بالمستقيم وعرّفه به، ثمّ بيّنه بأنّه صراط الذين أنعم عليهم وعرّفهم بالمقابلة بأنّهم ﴿غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ﴾، وقد قرّر في كلامه للجميع سبيلاً يسلكون به إليه سبحانه، كلٌّ على شاكلته،[1] فقال سبحانه: ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾،[2] وقال سبحانه: ﴿ وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمْرِهِۦ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾،[3] أي فيزعمون أنّ الخلقة قد تخلّفت عن مراده سبحانه، وقال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ بَٰلِغُ أَمْرِهِۦ قَدْ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ

---

١. إشارة إلى قوله تعالى: ﴿ قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِۦ فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَىٰ سَبِيلًا ﴾، الإسراء (١٧): ٨٤.

٢. الذاريات (٥١): ٥٦.

٣. يوسف (١٢): ٢١.

شَىْءٍ قَدْراً ﴾(١) أي حدّاً محدوداً وقدراً مخصوصاً بحسب ما يشاكل خلقته وشأنه، فلا ينبغي لزاعم أن يزعم أنّه سبحانه يريد ما يريده من كلّ شيء على وتيرة واحدة، ثمّ يقدّر أنّ الخلقة صادفت غايتها في بعض وتخلّفت عنها في آخر.

وبالجملة، فالعبادة غاية الإيجاد، وهي ثابتة في كلّ موجود لا تتخلّف.

ولا يذهب عليك أنّ هذا ليس من الجبر الباطل في شيء، فمثل الخلق بالنسبة إلى ربّهم كمثل العبد يملكه المولى من ملك نفسه وما يتّجر به ويتصرّف من نقل ومبادلة وأكل وشرب وسكنى، وهو وما يملكه لمولاه، وللمولى في ملكه حكم، وللعبد فيما ملكه بتمليك المولى حكم، ففرقٌ بين أن نبطل بملك المولى ملك العبد، وهو مثل الجبر، أو بملك العبد ملك المولى، وهو مثل التفويض، وبين أن نثبت للمولى ملكه وللعبد ملكه بتمليك المولى، وهو الحقّ.

وبالجملة، فهو سبحانه معبود مطلقاً، وقد قال: ﴿ يَا أَيُّهَا ٱلْإِنسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحاً فَمُلَاقِيهِ ﴾،(٢) وقال تعالى: ﴿ وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ ﴾،(٣) إلى غير ذلك من الآيات، فأثبت أنّ الكلّ سائرون إليه سبحانه وأنّ للجميع طريقاً.

ثمّ فرّق سبحانه بين السبل والطرق فقال: ﴿ أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَنْ لَا تَعْبُدُواْ ٱلشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ * وَأَنِ ٱعْبُدُونِي هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ ﴾،(٤) فهناك صراط مستقيم وغيره، وقال سبحانه: ﴿ فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي ﴾،(٥) وقال: ﴿ ٱدْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ ٱلَّذِينَ

---

١. الطلاق (٦٥): ٣.

٢. الانشقاق (٨٤): ٦.

٣. المائدة (٥): ١٨.

٤. يس (٣٦): ٦٠ و ٦١.

٥. البقرة (٢): ١٨٦.

يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴾،[1] فبيّن أنّه قريب من عباده وأنّ الطريق القريب منه سبحانه دعاؤه وعبادته، ثمّ قال سبحانه في وصف الذين لا يؤمنون: ﴿ أُوْلَئِكَ يُنَادَوْنَ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ ﴾،[2] فبيّن أنّ غاية غير المؤمنين في مسيرهم وسبيلهم بعيدة، فالسبيل إلى الله سبيلان: سبيل قريب وهو سبيل المؤمنين، وسبيل بعيد وهو سبيل غيرهم، فهذا نحو اختلاف في الطرق.

وهناك نحو آخر من الاختلاف، قال سبحانه: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ ﴾،[3] وقال سبحانه: ﴿ وَمَنْ يَحْلِلْ عَلَيْهِ غَضَبِي فَقَدْ هَوَىٰ ﴾[4] أي سقط إلى أسفل وهو أسفل سافلين، وقال: ﴿ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالاً بَعِيداً ﴾،[5] فعرّف الضلال بالشرك لمكان «قد»، وقال: ﴿ يَرْفَعِ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ ﴾،[6] وقال: ﴿ إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ ﴾،[7] وعند ذلك تقسّم الناس في طرقهم ثلاثة أصناف، وطرقهم ثلاثة: مَن طريقه إلى فوق وهم المؤمنون وأُولو العلم، ومَن طريقه إلى أسفل وهم المغضوب عليهم، ومَن ضلّ الطريق وهو في الطريق وهم الضالّون، وفي هذه المعاني آيات أُخر كثيرة.

ثمّ إنّ الضلال كما عرفت معرّف بالشرك في قوله: ﴿ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللهِ فَقَدْ

---

١. غافر (٤٠): ٦٠.
٢. فصّلت (٤١): ٤٤.
٣. الأعراف (٧): ٤٠.
٤. طه (٢٠): ٨١.
٥. النساء (٤): ١١٦.
٦. المجادلة (٥٨): ١١.
٧. فاطر (٣٥): ١٠.

ضَلَّ ﴾،[١] وكلّ ظلم شرك، سواء كان معصية بالأفعال أو انحرافاً في الاعتقاد كما فيما حكاه عن الشيطان لمّا قضي الأمر إذ يقول: ﴿ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِنْ قَبْلُ إِنَّ ٱلظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾،[٢] وقال سبحانه: ﴿ أَنْ لَا تَعْبُدُواْ ٱلشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ * وَأَنِ ٱعْبُدُونِي هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ * وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنْكُمْ جِبِلاًّ كَثِيراً ﴾.[٣] فإذا كان كلّ ضلال في علم أو عمل شركاً فمستقيم الصراط الذي هو صراط غير الضالّين ما لا يقع فيه شرك عمل أو علم ألبتّة، وهو التوحيد علماً وعملاً؛ إذ لا ثالث لهما، وماذا بعد الحقّ إلّا الضلال، فهو طريق مأمون فيه من الضلال فينطبق على قوله سبحانه: ﴿ ٱلَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيْمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُوْلَئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ ﴾.[٤] وفي هذه الآية تثبيت للأمن ووعد بالاهتداء، وسيجيء سرّه إن شاء الله.

ثمّ إنّه عرّف هؤلاء الذين أنعم عليهم في قوله سبحانه: ﴿ وَمَنْ يُطِعِ ٱللهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللهُ عَلَيْهِمْ مِنَ ٱلنَّبِيِّينَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَاءِ وَٱلصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُوْلَئِكَ رَفِيقاً ﴾،[٥] وقد وصف هذا الإيمان والإطاعة بقوله قبل الآية: ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيْمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُواْ فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجاً مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيماً * وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ ٱقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ أَوِ ٱخْرُجُوا مِنْ دِيَارِكُمْ مَا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِنْهُمْ وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْراً لَهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتاً ﴾،[٦]

---

١. النساء (٤): ١١٦.
٢. إبراهيم (١٤): ٢٢.
٣. يس (٣٦): ٦٠ ـ ٦٢.
٤. الأنعام (٦): ٨٢.
٥. النساء (٤): ٦٩.
٦. النساء (٤): ٦٥ ـ ٦٦.

فوصفهم بالثبات التامّ قولاً وفعلاً وظاهراً وباطناً على العبوديّة، فلا يشذّ منهم شاذّ من هذه الجهة، ومع ذلك جعلهم في تبعهم وصفّ بعد صفّهم لمكان «مع» ولمكان قوله: ﴿ وَحَسُنَ أُوْلَئِكَ رَفِيقاً ﴾،[1] وكما يشعر به قوله في محلٍّ آخر: ﴿ وَٱلَّذِينَ آمَنُوا بِٱللهِ وَرُسُلِهِ أُوْلَئِكَ هُمُ ٱلصِّدِّيقُونَ وَٱلشُّهَدَاءُ عِنْدَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ ﴾،[2] وهذا هو الإلحاق في الآخرة لمكان قوله: ﴿ عِنْدَ رَبِّهِمْ ﴾[3] و﴿ لَهُمْ أَجْرُهُمْ ﴾،[4] فهؤلاء وهم أصحاب الصراط المستقيم أعلى قدراً و أقرب منزلةً من هؤلاء المؤمنين الذين أخلصوا قلوبهم وأعمالهم من الظلم والشرك، ﴿ يَرْفَعُ ٱللهُ ٱلَّذِينَ آمَنُوا وَٱلَّذِينَ أُوتُوا ٱلْعِلْمَ دَرَجَاتٍ ﴾،[5] وإذا تدبّرت قوله سبحانه: ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ ﴾،[6] وتعريفه أصحاب الصراط المستقيم بقوله: ﴿ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّالِّينَ ﴾ أيقنت أنّ هناك نحواً آخر من الشرك لم يخلص عنه المؤمنون الخالصون وشأنهم هذا الشأن، وإنّما يختصّ به أصحاب الصراط المستقيم، فتدبّر.

وبالجملة، فمآل قوله: ﴿ صِرَاطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ ﴾، إلى التوحيد علماً وعملاً.

وأمّا ﴿ ٱلصِّرَاطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴾ فالصراط هو الواضح من الطريق، من سرطت سرطاً إذا بلعت بلعاً، كأنّه يبلع السالكين فيه فلا يدعهم ولا يدفعهم عن بطنه،

---

١. النساء (٤): ٦٩.
٢. الحديد (٥٧): ١٩.
٣. الحديد (٥٧): ١٩.
٤. الحديد (٥٧): ١٩.
٥. المجادلة (٥٨): ١١.
٦. النساء (٤): ٦٥.

والمستقيم على ما يظهر من اللغة غير ما اصطلح عليه أرباب علوم الرياضة من المستقيم، بل هو الذي لا يتغيّر أمره ولا يختلف شأنه، فمستقيم الصراط ما لا يتخلّف في هدايته وإيصاله سالكيه إلى غايته ومقصدهم، قال سبحانه: ﴿ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ آمَنُوا بِٱللهِ وَاعْتَصَمُواْ بِهِ فَسَيُدْخِلُهُمْ فِي رَحْمَةٍ مِنْهُ وَفَضْلٍ وَيَهْدِيهِمْ إِلَيْهِ صِرَاطاً مُسْتَقِيماً ﴾،[١] وقال سبحانه: ﴿ فَمَنْ يُرِدِ ٱللهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلامِ وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقاً حَرَجاً كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى ٱلسَّمَاءِ كَذَٰلِكَ يَجْعَلُ ٱللهُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ * وَهَـٰذَا صِرَاطُ رَبِّكَ مُسْتَقِيماً قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ ﴾،[٢] وقال سبحانه: ﴿ قَالَ هَٰذَا صِرَاطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ * إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴾[٣] أي هذه سنّتي وطريقتي لا تختلف ولا تتخلّف، فهو يجري مجرى قوله: ﴿ وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللهِ تَبْدِيْلاً ﴾[٤] و﴿ وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللهِ تَبْدِيْلاً ﴾.[٥]

وعن *قرب الإسناد* عن الرضا ـ عليه السلام ـ: قال: «جفّ القلم بحقيقة الكتاب [من الله] بالسعادة لمن آمن واتّقى، والشقاوة من الله لمن كذّب وعصى».[٦]

وعن *تفسير القمّي* و*توحيد الصدوق* عن النبيّ ـ صلّى الله عليه وآله ـ ما في معناه.[٧]

---

١. النساء (٤): ١٧٥.
٢. الأنعام (٦): ١٢٥ و ١٢٦.
٣. الحجر (١٥): ٤١ و ٤٢.
٤. الأحزاب (٣٣): ٦٢.
٥. الفتح (٤٨): ٢٣.
٦. *قرب الإسناد*: ١٥٦.
٧. *تفسير القمّي* ١: ٢١٥؛ ولم نجده في *التوحيد*.

فـ﴿ ٱلصِّرَاطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴾ هو الطريق الواضح المؤدّي إلى المطلوب ألبتّة.

وأمّا كونه أقرب الطرق لكون الخطّ المستقيم أقصر الخطوط الموصلة بين نقطتين فكلامٌ شعريّ في هذا المقام وإن كان برهانيّاً أو متلقّىً بالقبول في مقامٍ آخر.

نعم، بيّن سبحانه كون صراطه المستقيم أقرب الطرق إليه ببيانٍ آخر سبقت الإشارة إليه.

واعلم أنّه سبحانه على أنّه نصب في كلامه لنفسه صراطاً وسبيلاً وكرّر ذكر صراط الله وسبيل الله، لم يعدّ لنفسه أزيد من صراطٍ واحد مستقيم، وعدّ لنفسه سبلاً كثيرة، فقال تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ﴾،[1] ولم ينسب الصراط المستقيم إلى غيره من خلقه غير ما في هذه الآية ﴿ صِرَاطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ ﴾، ونسب السبيل إلى غيره، فقال عزّ من قائل: ﴿ قُلْ هَٰذِهِ سَبِيلِي أَدْعُوا إِلَى ٱللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ ﴾،[2] وقال تعالى: ﴿ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ ﴾،[3] وقال تعالى: ﴿ سَبِيلِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾.[4]

ويعلم من ذلك أنّ السبيل غير الصراط المستقيم، وأنّه يختلف باختلاف أصناف المتعبّدين، دون الصراط المستقيم كما يشير إليه قوله سبحانه: ﴿ قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ * يَهْدِي بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ ٱلسَّلَامِ وَيُخْرِجُهُمْ مِنَ ٱلظُّلُمَاتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾،[5] فجعل اتّباع رضوانه

١. العنكبوت (٢٩): ٦٩.
٢. يوسف (١٢): ١٠٨.
٣. لقمان (٣١): ١٥.
٤. النساء (٤): ١١٥.
٥. المائدة (٥): ١٥ و ١٦.

مقدّمةً للهداية إلى سبل السلام، ثمّ أضاف إليه الإخراج من الظلمات إلى النور وجعل المجموع كالمقدّمة للهداية إلى صراط مستقيم، والتنكير فيه للتفخيم، وقال أيضاً: ﴿ وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ ﴾،[١] فمن الشرك وهو ضلال ما يوجد في المؤمنين، ولهم سبيل إلى ربّهم، فقد يجتمع الضلال مع سبيلهم، لكنّه لا يجتمع مع الصراط المستقيم. فظهر أنّ مثل الصراط المستقيم بالنسبة إلى السبيل مثل الروح بالنسبة إلى البدن، فكما أنّ للبدن أطواراً في مدّة حياته هو عند كلّ طور غيره عند طورٍ آخر، كالصبا والطفوليّة والرهوق والشباب والكهولة والشيب والهرم، لكنّ الروح هي الروح، والبدن يمكن أن يطرأ عليه طوار تنافي ما تحبّه وتقتضيه الروح إذا خُلّيت ونفسها، بخلاف الروح ﴿ فِطْرَتَ ٱللهِ ٱلَّتِي فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ﴾،[٢] والبدن مع ذلك هو الروح، أعني الإنسان، فكذلك السبيل إلى الله سبحانه هو الصراط المستقيم، غير أنّ السبيل كسبيل المؤمنين وسبيل المتّقين أو غير ذلك من سبل الله سبحانه ربما وصل إليه آفة من خارج أو نقص ولن تصل إلى الصراط المستقيم.

كما عرفت أنّ الإيمان ربما يجتمع مع الشرك والظلم، وهو سبيل، ولا يجتمع مع شيء من ذلك الصراط المستقيم، فللسبيل مراتب كثيرة بعضها فوق بعض من جهة خلوصه وشوبه وقربه وبعده، والجميع على الصراط المستقيم، أو هي هو. قال سبحانه: ﴿ يَرْفَعِ ٱللهُ ٱلَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُوا ٱلْعِلْمَ دَرَجَاتٍ ﴾،[٣] والأخبار في درجات الإيمان والكفر كثيرة مستفيضة.

---

١. يوسف (١٢): ١٠٦.

٢. الروم (٣٠): ٣٠.

٣. المجادلة (٥٨): ١١.

ثمّ إنّه سبحانه قال ـوهو في هذا المعنى ـ: ﴿ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ ٱلسَّيْلُ زَبَداً رَابِياً وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِى ٱلنَّارِ ٱبْتِغَاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِثْلُهُ كَذَلِكَ يَضْرِبُ ٱللهُ ٱلْحَقَّ وَٱلْبَاطِلَ فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِى ٱلْأَرْضِ كَذَلِكَ يَضْرِبُ ٱللهُ ٱلْأَمْثَالَ ﴾ ،[١] يبيّن أنّ هذه طريقته وسنّته في الخلقة يمزج الحقّ الباطن بالباطل الظاهر، والحقائق بالأوهام ﴿ لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً ﴾ ،[٢] وإنّ هذه طريقته أيضاً في ضرب الأمثال وبيان الأوصاف كما قال: ﴿ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا ٱلْعَالِمُونَ ﴾ .[٣]

وهاتان الآيتان في مساق ما ورد في الحديث المشهور بين الفريقين عن النبيّ ـصلّى الله عليه وآله ـ: نحن معاشر الأنبياء نكلّم الناس على قدر عقولهم.[٤]

وأنت خبير بأنّ مثل هذا الكلام إنّما يساق لبيان الكيفيّة دون الكمّيّة، أي أنّه سبحانه في كلامه أو بلسان أنبيائه إنّما يلقي المعارف والعلوم إلى الناس بعد لبسها وصبغها بكيفيّةٍ تلائم كيفيّة فهمهم، لا بالتبعيض بأن يلقي بعضاً ويكفّ عن بعض كالمدرّس في مقدار ما يقرأه ويعلّمه تلاميذه، وهو سبحانه مع ذلك قد كلّم الناس بكلّ بيان متصوّر من برهان أو جدل أو خطابة.

ومن هنا يعلم:

أوّلاً: أنّ لهذه المعارف مرتبة في حقيقتها لا تنال بالعقل والفكر، بل لو نيلت

---

١. الرعد (١٣): ١٧.

٢. الكهف (١٨): ٧.

٣. العنكبوت (٢٩): ٤٣.

٤. *المحاسن* ١: ١٩٥، الحديث: ١٧؛ *مشكاة الأنوار*: ٢٥١؛ شرح *نهج البلاغة* ١٨: الحديث: ١٨٦.

فإنّما تنال بإدراكٍ دون الإدراك العقلي وعلم غير العلم الفكري.

وثانياً: أنّ هذه الحقائق ليست خارجة مغايرة لهذه الظواهر الملقاة من البيانات المتعارفة والأمثال المضروبة، بل مثلها فيها كمثل الروح في الأجساد أو كرسول يرسله الملك إلى طوائف مختلفة من رعيّته ويأمره أن يتلبّس بكلّ طائفة منهم بلباس لا ينكرونه، ويتّسم بهيئة وسمة يعرفونها، والرسول واحد، كمجرى قوله سبحانه: ﴿ وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكاً لَجَعَلْنَاهُ رَجُلاً وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِمْ مَا يَلْبِسُونَ ﴾،[1] وقد قال سبحانه: ﴿ إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآناً عَرَبِيّاً لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ * وَإِنَّهُ فِي أُمِّ ٱلْكِتَابِ لَدَيْنَا لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ ﴾،[2] يريد سبحانه أنّ للقرآن مرتبة أُخرى في محلّ آخر لا تنال بهذه الأفهام والعقول، ثمّ قال تعالى: ﴿ إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ * فِي كِتَابٍ مَكْنُونٍ * لَا يَمَسُّهُ إِلَّا ٱلْمُطَهَّرُونَ ﴾[3] فأثبت مسّه ونيله للمطهّرين، وهو في مرتبة أرفع من أن ينال بالعقل والفكر، وقد عدّ سبحانه كلّ ظلم وشرك من الرجس، فهؤلاء المطهّرون رجال أزال الله عن قلوبهم رجس الشرك والريب، وعن أفعالهم رجس الظلم والمعصية وطهّرهم تطهيراً، كما أنزل في أهل بيت نبيّه قوله سبحانه: ﴿ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً ﴾،[4] وهؤلاء رجال آتاهم الله من علم الأشياء بحقائقها وحقائق ما يكلّم به الناس ويخاطبهم نيلاً وراء نيل العقل، ونحواً غير نحوه، فنظروا إلى الأشياء على ما هي عليه من المملوكيّة لله والفقر إلى الله والقيام بالله بكشف

---

١. الأنعام (٦): ٩.

٢. الزخرف (٤٣): ٣ و ٤.

٣. الواقعة (٥٦): ٧٧ ـ ٧٩.

٤. الأحزاب (٣٣): ٣٣.

الغطاء عن قلوبهم والحجاب عن بصائرهم، فحاولوا العبوديّة على حقيقة معناها ولم يلههم تجارة ولا بيع عن ذكر الله سبحانه، كما عرفت في قوله تعالى: ﴿ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً ﴾،[1] وقوله: ﴿ وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ ﴾،[2] وقوله: ﴿ إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآناً ﴾،[3] فتولية أمرهم وشأنهم هذا الشأن لله وحده لا شريك له، إذ طهارتهم علماً وعملاً بما آتاهم الله من العلم؛ إذ رجس المعصية والشرك لا يتحقّق إلّا بالجهل بحقيقة الشيء والغفلة منه سبحانه، وعلمهم ذلك يكفي مؤونتها فالله سبحانه وليّهم وحده.

ويدلّك على ما قلنا، أنّ ما وصفهم سبحانه من أوصاف الكرامة بصيغة المفعول مثل المخلصين والمقرّبين والمطهّرين، وما ورد من الأسماء في حقّهم بصيغة الفاعل، فآثاره منسوبة إليه سبحانه، كقوله: ﴿ وَأَدْخَلْنَاهُ فِي رَحْمَتِنَا إِنَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴾،[4] أُنظر إلى موضع قوله: ﴿ وَأَدْخَلْنَاهُ ﴾، وقوله: ﴿ من ﴾، وكقوله: ﴿ وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ ﴾،[5] أُنظر إلى موضع قوله: ﴿ نُرِي ﴾، وقوله ﴿ وَلِيَكُونَ مِنَ ﴾، فالصراط المستقيم هو صراط ولاية الله محضاً الذي لا سبيل للشرك علماً وعملاً إليه، ولذلك نرى أنّه سبحانه على ما أضاف سبيله إلى كثيرين لم يضف صراطه المستقيم إلى غيره إلّا لطائفة من أوليائه فقط في قوله: ﴿ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ ﴾، وعرّف هؤلاء المنعَم عليهم في قوله: ﴿ فَأُوْلَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ

---

١. الرعد (١٣): ١٧.

٢. العنكبوت (٢٩): ٤٣.

٣. الزخرف (٤٣): ٣.

٤. الأنبياء (٢١): ٧٥.

٥. الأنعام (٦): ٧٥.

وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَاءِ وَٱلصَّالِحِيْنَ وَحَسُنَ أُوْلَئِكَ رَفِيقاً ﴾،[١] وبذلك يعلم الوصف الجامع لهؤلاء الطوائف الأربع. وسيجيء الكلام فيما يختصّ بكلّ واحد من الكرامات في محلّه إن شاء الله.

فقد تحصّل ممّا مرّ أنّ الصراط المستقيم صراط مهيمن على جميع الطرق إلى الله وسبله تعالى، ولذلك تجد أنّه سبحانه مع تنزيهه صراطه المستقيم عن كلّ ضلال وغيّ ربما يطلق اسمه على بعض السبل الذي لا يخلو عن شوب الضلال، قال سبحانه: ﴿ وَأَنِ ٱعْبُدُونِي هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ ﴾،[٢] فسمّى العبادة صراطاً مستقيماً، وقال سبحانه: ﴿ قُلْ إِنَّنِي هَدَانِي رَبِّي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ دِيْناً قِيَماً مِلَّةَ إِبْرَاهِيْمَ ﴾،[٣] فسمّى الدين صراطاً مستقيماً، وقال سبحانه: ﴿ يَهْدِي بِهِ اللهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ ﴾ إلى قوله: ﴿ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾،[٤] فسمّى جميع سبل السلام وهي سبله صراطاً مستقيماً، ولا ينافي ذلك ما مرّ من قضيّة المقدّميّة، كما لا يخفى، فالصراط المستقيم هو المتعالي المهيمن على جميع السبل كالروح على جميع القوى والأعضاء.

ويعلم من ذلك:

أوّلاً: أنّ الطرق إلى الله سبحانه متفاوتة كمالاً ونقصاً وغلاءً ورخصاً، من جهة قربه من منبع الحقيقة والصراط المستقيم، كالإسلام والإيمان والخلوص والإطاعة والعبادة والزهد والتقوى والإحسان ونحوها، كما أنّ مقابلاتها من

---

١. النساء (٤): ٦٩.

٢. يس (٣٦): ٦١.

٣. الأنعام (٦): ١٦١.

٤. المائدة (٥): ١٦.

الكفر والشرك والطغيان وغيرها كذلك. قال سبحانه: ﴿ وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِمَّا عَمِلُوا وَلِيُوَفِّيَهُمْ أَعْمَالَهُمْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾[1] أي لكلٍّ من أهل السعادة والشقاوة.

وثانياً: أنّ الصراط المستقيم كما أنّه المهيمن على جميع الطرق، كذلك أصحابه الذين مكّنهم الله فيه أن جعل الله لهم الولاية يتولّون أمر التربية، كما قال سبحانه: ﴿ إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللهُ وَرَسُولُهُ وَٱلَّذِينَ آمَنُوا ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ ﴾،[2] والآية نازلة في أمير المؤمنين علي ـعليه السلام ـ بالأخبار المتواترة،[3] وهو ـعليه السلام ـ أوّل فاتح لهذا الباب من الأُمّة.

وثالثاً: أنّ الهداية إلى الصراط يتعيّن معناها بحسب تعيّن معناه.

توضيح ذلك: أنّ الهداية هي الدلالة على ما في *الصحاح*[4] وذكر أنّ تعديتها لمفعولين لغة أهل الحجاز، وغيرهم يعدّونه إلى المفعول الثاني بـ(إلى)، و هو الظاهر.

وما قيل: إنّ الهداية إذا تعدّت إلى المفعول الثاني بنفسها فهي بمعنى الإيصال إلى المطلوب، وإذا تعدّت بـ(إلى) فبمعنى إراءة الطريق، مستدلاً بقوله تعالى: ﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ ٱللهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ ﴾،[5] حيث إنّ هدايته ـصلّى الله عليه وآله ـ بمعنى إراءة الطريق ثابتة، فالمنفي عنه هو الإيصال إلى المطلوب.

فيه: أنّ الآية مسوقة سوق نفي الحقيقة والاستقلال وإثبات الإذن والعرض،

---

١. الأحقاف (٤٦): ١٩.

٢. المائدة (٥): ٥٥.

٣. *الكافي* ١: ٢٨٨، الحديث: ٣؛ و ٤٢٧، الحديث: ٧٧؛ *الاحتجاج* ١: ٥٩ و ١٣٩؛ *الإرشاد* ٢: ٥؛ *كتاب الأربعين*، للماحوزي: ٩١؛ *شواهد التنزيل*، للحاكم الحسكاني ١: ١٦١ـ١٨٤، الحديث: ٢١٦ـ٢٤١؛ *تاريخ دمشق* ٢: ٤٠٩، الحديث: ٩٠٨ـ٩٠٩؛ *الكشّاف* ١: ٦٤٩، و غيرها.

٤. *الصحاح* ٦: ٢٥٣٣.

٥. القصص (٢٨): ٥٦.

كقوله سبحانه: ﴿ مَا لَكُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا شَفِيعٍ ﴾ ،[١] وقوله: ﴿ إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ ﴾ ،[٢] وقوله: ﴿ مَا مِنْ شَفِيعٍ إِلَّا مِنْ بَعْدِ إِذْنِهِ ﴾ ،[٣] وقوله: ﴿ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَىٰ ﴾ ،[٤] إي إنّ الشفاعة والولاية ملك لله حقيقةً إلّا أن يملّكها من يشاء، وقد قال تعالى حكايةً عن بعض عباده: ﴿ يَا قَوْمِ اتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ الرَّشَادِ ﴾ ،[٥] فلا يتفاوت معنى الهداية باختلاف التعدية. ومن الممكن أن يكون التعدية إلى الثاني من قبيل قولهم: دخلت الدار.

وبالجملة، فالهداية هي الدلالة وإراءة الغاية بإراءة الطريق، وهي نحو إيصال إلى المطلوب، وإنّما تكون من الله سبحانه، وسنّته سنّة الأسباب بإيجاد سبب ينكشف به المطلوب، ويتحقّق به الوصل بين العبد وبين المطلوب، وقد بيّنه سبحانه بقوله: ﴿ فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ ﴾ ،[٦] وقوله سبحانه: ﴿ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ ذَٰلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ ﴾ ،[٧] وتعدية (تلين ﴾ بـ﴿ إلى ﴾ وهو يتعدّى باللام لتضمين معنى مثل الميل والاطمئنان، فهو إيجاده سبحانه وصفاً في القلب به يقبل ذكر الله ويميل ويطمئنّ إليه، وكما أنّ سبله سبحانه مختلفة فكذلك الهداية تختلف باختلاف الطريق الذي تضاف إليه، فلكلّ سبيل هداية قبله تختصّ به، يشير إلى ذلك قوله سبحانه:

---

١. السجدة (٣٢): ٤.
٢. المائدة (٥): ٥٥.
٣. يونس (١٠): ٣.
٤. الأنفال (٨): ١٧.
٥. غافر (٤٠): ٣٨.
٦. الأنعام (٦): ١٢٥.
٧. الزمر (٣٩): ٢٣.

﴿ وَٱلَّذِينَ جَاهَدُواْ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾.[١] ففرقٌ بين أن يجاهد العبد في الله تعالى وبين أن يجاهد في سبيل الله تعالى، فـالثاني يـريد سلامة السبيل ودفع العائق عنه، والأوّل إنّما يريد وجه الله تعالى ولا يوقف نظره على سبيل دون سبيل، بل يريده سبحانه بذلك فيمدّه الله سبحانه بالهدايـة إلى سبيل بعد سبيل حتّى يختصّه به جلّت عظمته.

إذا تمهّد جميع ما مرّ على طوله تبيّن معنى قوله سبحانه: ﴿ ٱهْدِنَا ٱلصِّـرَاطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ * صِرَاطَ ٱلَّذِينَ ... ﴾، وأنّه أمر وراء معنى العبادة غـير أنّـه بـمنزلة روحه، وهو الوجه في تغيير السياق من الإخبار في قوله: ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ ﴾ إلى الإنشاء بقوله: ﴿ اهْدِنَا ﴾، ومن الوصل إلى الفصل، وتبيّن أيضاً معنى الروايات الواردة فيهما.

فمنها: ما في *المعاني* في معنى ﴿ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَاطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴾ عن الصـادق ـعليه السلام ـ: يعني أرشدنا إلى لزوم[٢] الطريق المؤدّي إلى محبّتك والمبلّغ إلى جنّتك[٣] والمانع من أن نتّبع أهواءنا فنعطب أو أن[٤] نأخذ بآرائنا فنهلك.[٥]

ومنها: ما فيه أيضاً عن عليّ ـعليه السلام ـ: يـعني أدِم لنـا تـوفيقك الذي أطعناك به[٦] في ماضي أيّامنا حتّى نطيعك كذلك في مستقبل أعمارنا.[٧]

---

١. العنكبوت (٢٩): ٦٩.
٢. في المصدر: «للزوم»
٣. في المصدر: «دينك»
٤. في المصدر: «أن»
٥. *معاني الأخبار*: ٣٣، الحديث: ٤.
٦. في المصدر: ـ «به»
٧. *معاني الأخبار*: ٣٣، الحديث: ٤.

أقول: معنى الروايتين واضح ممّا مرّ، وكأنّ الأُولى أدقّ تفسيراً من الثانية، والثانية تفسّر الصراط بصراط العبادة، ولذلك فسّر الهداية بإدامة التوفيق لكونها حاصلة بالفعل، وهو من الصراط المستقيم كما مرّ.

ومنها: ما عنه أيضاً عن عليّ ـعليه السلام ـ: ﴿ ٱلصِّرَاطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴾ في الدنيا ما قصر عن الغلوّ وارتفع عن التقصير واستقام... وفي الآخرة طريق المؤمنين إلى الجنّة.[١]

أقول: معناه ظاهر، وقوله: «وفي الآخرة طريق المؤمنين إلى الجنّة» مبنيّ على ما سيجيء من أنّ الآخرة مطابقة للأُولى.

ومنها: ما في *الفقيه* عن الصادق ـعليه السلام ـ قال: الصراط المستقيم أمير المؤمنين ـعليه السلام ـ،[٢] ورواه العيّاشي أيضاً.[٣]

ومنها: ما في *المعاني* عن الصادق ـعليه السلام ـ قال: هي[٤] الطريق إلى معرفة الله، وهما صراطان: صراط في الدنيا، وصراط في الآخرة، فأمّا الصراط [الذي] في الدنيا فهو الإمام المفترض الطاعة، من عرفه في الدنيا واقتدى بهداه مرّ على الصراط الذي هو جسر جهنّم في الآخرة، ومَن لم يعرفه في الدنيا زلّت قدمه [عن الصراط] في الآخرة فتردّى في نار جهنّم.[٥]

ومنها: ما فيه أيضاً عن السجّاد ـعليه السلام ـ قال: ليس بين الله وبين حجّته حجاب، ولا لله دون حجّته ستر، نحن أبواب الله، ونحن الصراط المستقيم،

---

١. *معاني الأخبار*: ٣٣، الحديث: ٤.
٢. *معاني الأخبار*: ٣٢، الحديث: ٣.
٣. *تفسير العيّاشي* ١: ٢٤، الحديث: ٢٥.
٤. في المصدر: «هو»
٥. *معاني الأخبار*: ٣٢، الحديث: ١.

ونحن عيبة علمه، ونحن تراجمة وحيه، ونحن أركان توحيده، ونحن موضع سرّه.[١]

أقول: وأنت بعد التأمّل فيما ذيّلنا بـه قـوله سبحانه: ﴿ أَنـزَلَ مِـنَ ٱلسَّـمَاءِ مَآءً ﴾،[٢] تعرف معنى هذه الروايات الثلاث المفسّرة للصراط المستقيم بالإمام أو بخصوص عليّ ـعليه السلامـ، ولا تحتاج أن تحمل أمثال هذه المعارف الغالية التي حواها كلامه سبحانه على المجاز والكناية ونحوهما من تفنّنات البيان، فقد مرّ أنّ هذه المعاني ذوات مراتب بحسب التحقّق، فللكفر مراتب وللإيمان مراتب، وأمّا نفس المعنى فصدقه على الجميع واحد، وإنّما الاختلاف بحسب خصوصيّات المصاديق كما ذكره المحقّقون فقالوا: إنّ الألفاظ في تعيّنها بإزاء المعاني غير مقيّدة بما احتفّت به المصاديق من القيود، وإنّما هي من خصوصيّات المصاديق، فالميزان ـ مثلاً ـ اسم لما يوزن به الشيء والوزن يختلف باختلاف الموزون، فذات الكفّتين ـ مثلاً ـ لوزن الأثقال، والذرع لوزن الأطوال، والمكيال لوزن الحجم، والمسطرة لوزن السطر، وكذا العروض لوزن الشعر، والمنطق لوزن التصوّر والتصديق إلى غير ذلك.

ويدلّ على ذلك أنّا نرى عرف اللغة إذا وجد آلة جديدة تفي بغرض القديمة سمّاها باسمها من غير توقّف واعتبار علاقة ونحوها.

وأمّا أنّ هناك رجلاً حاول وضع اللغة العربيّة أو غيرها ثمّ زوّج المعاني الموجودة عنده وفي عصره من ألفاظ اخترعها واقترحها بوضع شخصي، ثمّ الحقيقة والمجاز والتراكيب لوضع نوعي وحكم بأنّ ما وراء ذلك غلط، فدون إثباته نقلاً أو عقلاً خرط القتاد، وإنّما هي تطوّرات وتحوّلات في الألفاظ

---

١. *معاني الأخبار*: ٣٥، الحديث: ٥.

٢. الرعد (١٣): ١٧.

والمعاني جبّل عليها الإنسان في حياته المدنيّة على ما قرّر في محلّه.

وبالجملة، فالسير على صراط العبادة ـ مثلاً ـ سير بالحقيقة في صراط بالحقيقة وإن خالف قطع الإنسان بأقدامه الصراط من أديم الأرض، والسير في صراط المعرفة كذلك، وكلٌّ منهما سير أيضاً في إنسان ليس عنده غيره من أصحاب الصراط.

وقد عرفت أنّ المفهوم من كلامه سبحانه هو ذلك، فافهم ذلك.

ومنها: ما في *المعاني* في معنى ﴿ صِرَاطَ ٱلَّذِينَ ﴾، عن عليّ ـ عليه السلام ـ: أي قولوا: اهدنا صراط الذين أنعمت عليهم بالتوفيق لدينك وطاعتك، وهم الذين قال الله تعالى: ﴿ وَمَنْ يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ ٱلنَّبِيِّينَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَاءِ وَٱلصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُوْلَٰئِكَ رَفِيقاً ﴾[1].[2]

ومنها: ما رواه الصدوق عن الصادق ـ عليه السلام ـ قال: قول الله في الحمد: ﴿ صِرَاطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ ﴾، يعني محمّداً وذرّيّته.[3]

أقول: وهو من الجري، ويمكن أن يكون النظر إلى كون صراطهم أكمل الصرط، فهو من التفسير.

ومنها: ما في *المعاني* عن النبيّ ـ صلّى الله عليه وآله ـ قال: شيعة عليّ الذين أنعمت عليهم بولاية عليّ بن أبي طالب ـ عليه السلام ـ لم يغضب عليهم ولم يضلّوا.[4]

---

١. النساء (٤): ٦٩.

٢. *معاني الأخبار*: ٣٦، الحديث: ٩.

٣. *معاني الأخبار*: ٣٦، الحديث: ٧.

٤. *معاني الأخبار*: ٣٦، الحديث: ٨.

أقول: وكأنّه مستفاد من قوله تعالى: ﴿ وَمَنْ يُطِعِ ٱللهَ وَٱلرَّسُولَ ﴾،[١] وقوله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ آمَنُوا بِاللهِ وَرُسُلِهِ أُوْلَئِكَ هُمُ ٱلصِّدِّيقُونَ وَٱلشُّهَدَاءُ عِنْدَ رَبِّهِمْ ﴾،[٢] فإنّ في الآية الأُولى حكاية قضيّة المعيّة، وفي الثانية وعد الإلحاق، فافهم.

ويناسبه ما رواه ابن شهرآشوب عن تفسير وكيع بن الجرّاح عن [سفيان] الثوري عن السدّي عن أسباط ومجاهد عن ابن عبّاس في قوله تعالى: ﴿ اهْدِنَا ٱلصِّرَاطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴾، قال: قولوا معاشر العباد: أرشدنا إلى حبّ محمّد وأهل بيته.[٣]

أقول: وكأنّه استفاده من قوله سبحانه: ﴿ قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِي ٱلْقُرْبَىٰ ﴾،[٤] وقوله تعالى: ﴿ قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِلَّا مَنْ شَاءَ أَنْ يَتَّخِذَ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلاً ﴾.[٥]

ومنها: ما في *المعاني* في قوله تعالى: ﴿ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّالِّينَ ﴾، عن عليّ ـعليه السلامـ: إنّ المغضوب عليهم هم اليهود الذين قال الله فيهم: ﴿ مَنْ لَعَنَهُ ٱللهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ ﴾،[٦] والضالّين هم النصارى الذين قال الله فيهم: ﴿ قَدْ ضَلُّوا مِنْ قَبْلُ وَأَضَلُّوا كَثِيراً ﴾[٧].[٨]

---

١. النساء (٤): ٦٩.
٢. الحديد (٥٧): ١٩.
٣. *المناقب* ٣: ٧٣.
٤. الشورى (٤٢): ٢٣.
٥. الفرقان (٢٥): ٥٧.
٦. المائدة (٥): ٦٠.
٧. المائدة (٥): ٧٧.
٨. لم نجده في *معاني الأخبار*، ولكن روي نحوه في *تفسير الإمام*: ٥٠؛ و *تأويل الآيات*: ٣٢؛ و *تفسير العيّاشي* ١: ٢٤ الحديث: ٢٧.

أقول: وهو من الجري.

ومنها: ما في *تفسير القمّي* عن الصادق ـ عليه السلام ـ: أنّ المغضوب عليهم النصّاب، والضالّين هم أهل[١] الشكوك الذين لا يعرفون الإمام.[٢]

أقول: وهو أيضاً من الجري.

ومنها: ما في *العيون* عن الصادق عن آبائه عن أمير المؤمنين ـ عليه السلام ـ قال: لقد سمعت[٣] رسول الله ـ صلّى الله عليه وآله ـ يقول[٤]: قال الله عزّ وجلّ: قسّمت فاتحة الكتاب بيني وبين عبدي، فنصفها لي، ونصفها لعبدي. ولعبدي ما سأل، إذا قال العبد: ﴿ بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴾ قال الله جلّ جلاله: بدأ عبدي باسمي، وحقّ عليّ أن أُتمّم له أُموره وأُبارك له في أحواله، فإذا قال: ﴿ الحَمْدُ للهِ رَبِّ العَالَمِينَ ﴾ قال جلّ جلاله: حمدني عبدي وعلم أنّ النعم التي له من عندي وأنّ البلايا التي اندفعت[٥] عنه فبتطوّلي[٦] أُشهدكم فإنّي أُضيف له إلى نعم الدنيا نعم الآخرة وأدفع عنه بلايا الآخرة كما دفعت عنه بلايا الدنيا، وإذا قال: ﴿ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴾ قال الله جلّ جلاله: أشهدكم لأوفرنّ من نعمتي[٧] حظّه، ولأجزلنّ من عطائي نصيبه، فإذا قال: ﴿ مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ ﴾، قال الله تعالى: أُشهدكم كما اعترف بأنّي أنا المالك يوم الدين لأُمتهلنّ[٨] يوم الحساب حسابه،

---

١. في المصدر: ـ «أهل»
٢. *تفسير القمّي* ١: ٢٩.
٣. في المصدر: ـ «لقد سمعت»
٤. في المصدر: ـ «يقول»
٥. في المصدر: «دفعت»
٦. في المصدر: «فبطولي»
٧. في المصدر: «رحمتي»
٨. في المصدر: «لأُسهّلنّ»

ولأتقبّلنّ حسناته ولأتجاوزنّ عن سيّئاته، فإذا قال العبد: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾، قال الله عزّ وجلّ: صدق عبدي إيّاي يعبد، أُشهدكم لأُثيبنّه على عبادته ثواباً يغبطه كلّ من خالفه في عبادته لي فإذا قال العبد: ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾، قال الله تعالى: بي استعان وإليّ التجأ، أُشهدكم لأُعيننّه على أمره ولأُغيثنّه في شدائده، ولآخذنّ بيده يوم نوائبه، فإذا قال: ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ إلى آخر السورة، قال الله عزّ وجلّ: هذا لعبدي، ولعبدي ما سأل، فقد استجبت لعبدي وأعطيته ما أمّل وآمنته ممّا منه وجل.[١]

أقول: معناها ظاهر ممّا مرّ، وقد روى الصدوق قريباً منه في *العلل*[٢] عن الرضا ـ عليه السلام ـ.

واعلم أنّ هذه السورة تسمّى بأسماء كثيرة، منها: أُمّ الكتاب، وفاتحة الكتاب، وسورة الحمد، والسبع المثاني. والأخبار تدلّ على أنّ هذه الأسماء كانت متداولة في زمن النبيّ ـ صلّى الله عليه وآله ـ. وربما يستفاد من تسميتها بفاتحة الكتاب وجود تأليفٍ مّا للقرآن في زمن النبيّ ـ صلّى الله عليه وآله ـ.

*

١. عيون أخبار الرضا ـ عليه السلام ـ ١: ٣٠٠ ـ ٣٠١، الحديث: ٥٩.

٢. علل الشرائع: ٢٥٨ ـ ٢٥٩، الباب: ١٨٢، الحديث: ٩.

سُورَةُ البَقَرَةِ

-١-

[بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ الٓمٓ (١) ذٰلِكَ ٱلْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدىً لِلْمُتَّقِينَ (٢) ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلاَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ (٣) وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَبِالآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ (٤)]

قوله سبحانه: ﴿الٓمٓ﴾

سيأتي بعض ما يتعلّق من الكلام بالحروف المقطّعة ـ التي في أوائل السور ـ في أوّل سورة الشورى، وكذلك الكلام في هداية القرآن فيها.

قوله سبحانه: ﴿هُدىً لِلْمُتَّقِينَ * ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ﴾

المتّقون هم المؤمنون، وليست التقوى من الأوصاف الخاصّة لطبقة من طبقاتهم، ـ أعني لمرتبة من مراتب الإيمان ـ حتّى تكون مقاماً من مقاماته، كالإخبات والخلوص، بل هي صفة مجامعة لجميع مراتب الإيمان إذا تلبّس الإيمان بلباس التحقّق والصدق.

والذي أخذه سبحانه من الأوصاف المعرِّفة للتقوى في هذه الآيات التسع

عشرة ـ التي يبيّن فيها حال المؤمنين والكافرين والمنافقين ـ خمس صفات؛ وهي: الإيمان بالغيب، وإقامة الصلاة، والإنفاق ممّا رزقهم الله، والإيمان بما أنزل الله على أنبيائه، والإيقان بالآخرة.

وحيث عقّب سبحانه هذه الأوصاف بقوله: ﴿أُولَٰئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ وقابلها أيضاً بما وصف به الكافرين والمنافقين ـ من الضلال والعمى الذاتي الذي لهم من أنفسهم، والضلال العارضي الذي يمدّ سبحانه به ضلالهم الذاتي ـ فهذه الأوصاف تنشأ في المتّقين من اهتداءين في مقابل الضلالين في غيرهم، وهما اهتداء ذاتي أوّل، واهتداء ثانٍ يلحق بالأوّل، ويُتمّ به كمالهم في الإيمان، وهما: سلامة الفطرة في الإنسان وما يلحق بها ثانياً من خلعة الاهتداء من الله ـ سبحانه ـ:

فإنّ الفطرة إذا سلمت لم تنفكّ من أن تتنبّه شاهدة لفقرها وحاجتها إلى أمر خارج، وكذلك احتياج كلّ ما سواها ـ ممّا يقع عليه حسّ أو وهم أو عقل ـ إلى أمر خارج تقف دونه سلسلة الحوائج، فهي شاهدة بوجود موجود غائب عن الحسّ، منه يبدأ الجميع وإليه ينتهي ويعود، وأنّه كما لم يهمل دقيقةً من دقائق ما يحتاج إليه الخلقة، كذلك لا يهمل هداية الناس إلى ما ينجون به من مهلكات الأعمال والأخلاق، وهذا هو الإذعان بالتوحيد والمعاد والنبوّة، وهي أُصول الدين.

ويلزم ذلك استعمال الخضوع له سبحانه في ربوبيّته، واستعمال ما في وسع الإنسان ـ من مال وجاه وعلم ـ لإحياء هذا الأمر ونشره، وهذان هما الصلاة والإنفاق.

ومن هنا يعلم: أنّ الذي أخذه سبحانه من أوصافهم، هو الذي تقضي به الفطرة إذا سلمت، وأنّه سبحانه وعدهم بأنّه سيفيض عليهم أمراً سمّاه هداية؛ فهذه الأعمال الزاكية منهم متوسّطة بين أمرين: إهتداء ذاتي سابق، واهتداء ثانٍ

لاحق، وبين الهدايتين يقع صدق الاعتقاد وصلاح العمل.

والدليل على أنّ هذه الهداية من الله ـسبحانه ـ فرع الاهتداء الذاتي الأوّل: آيات كثيرة؛ كقوله سبحانه: ﴿يُثَبِّتُ ٱللهُ ٱلَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَاةِ ٱلدُّنْيَا﴾،[1] وقوله: ﴿يَا أَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا ٱتَّقُوا ٱللهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَحْمَتِهِ وَيَجْعَلْ لَكُمْ نُوراً تَمْشُونَ بِهِ﴾،[2] وقوله: ﴿إِنْ تَنصُرُوا ٱللهَ يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾،[3] وقوله: ﴿وَٱللهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّالِمِينَ﴾،[4] وقوله: ﴿وَٱللهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَاسِقِينَ﴾[5]... إلى غير ذلك.

والأمر في ضلال الكافرين والمنافقين كما في المؤمنين، فعندهم ضلالان: أحدهما من عند أنفسهم، والثاني من عند الله ـسبحانه ـ: خذلاناً لهم وعقوبةً لكفرهم ونفاقهم؛ ففي هذه الآيات إشارة إلى حياة أُخرى للإنسان مستبطنة كامنة تحت هذه الحياة الدنيويّة، وهي الحياة التي بها يعيش الإنسان في هذه الدار وبعد الموت وحين البعث، وسيأتي تتمّة الكلام فيه ـإن شاء الله ـ

قوله سبحانه: ﴿يُؤْمِنُونَ﴾

الإيمان تمكّن الاعتقاد في القلب؛ مأخوذ من الأمن، كأنّ المؤمن يعطي لما آمن به الأمنَ من الريب والشكّ، وهو آفة الاعتقاد.

والإيمان ـ كما مرّ ـ معنى ذو مراتب؛ إذ الإذعان ربّما يتعلّق بالشيء نفسه

---

١. إبراهيم (١٤): ٢٧.

٢. الحديد (٥٧): ٢٨.

٣. محمّد (٤٧): ٧.

٤. البقرة (٢): ٢٥٨.

٥. المائدة (٥): ١٠٨.

فيترتّب عليه أثره فقط، وربّما يشتدّ بعض الاشتداد فيتعلّق ببعض لوازمه، وربّما يتعلّق بجميع لوازمه، فيستنتج منه أنّ للمؤمنين طبقات على حسب مراتب الإيمان.

قوله سبحانه: ﴿بِالْغَيْبِ﴾

قد عرفت معنى الإيمان بالغيب على ما يستفاد من السياق.

وفي *المعاني* عن الصادق ـ عليه السلام ـ في قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ﴾ قال: «من آمن[١] بقيام القائم أنّه حقّ».[٢]

وفيه عن يحيى بن أبي القاسم قال: «سألت الصادق ـ عليه السلام ـ عن قول الله ـ عزّ وجلّ ـ: ﴿الٓمٓ * ذَٰلِكَ ٱلْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدىً لِلْمُتَّقِينَ * ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ﴾ فقال: المتّقون شيعة عليّ ـ عليه السلام ـ والغيب هو الحجّة الغائب، وشاهد ذلك قوله تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ فَقُلْ إِنَّمَا ٱلْغَيْبُ لِلّٰهِ فَانْتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ ٱلْمُنْتَظِرِينَ﴾.[٣] [٤]

أقول: والحديثان من باب الجري. وسيأتي الكلام في تمام معنى الغيب في قوله: ﴿وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ﴾.[٥]

قوله سبحانه: ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ﴾

قد عرفت معنى الإنفاق على ما يستفاد من السياق، وأنّه لا يختصّ بالمال؛

---

١. في المصدر: «من أقر»

٢. *كمال الدين* ١: ١٧.

٣. يونس (١٠): ٢٠.

٤. *كمال الدين* ٢: ٣٤١ ـ ٣٤٢، الحديث: ٢٠.

٥. الأنعام (٦): ٥٩.

وإطلاق الرزق على غير المال ـ من سائر الكرامات ـ كثير في القرآن.

وفي *تفسير العيّاشي* عن الصادق ـ عليه السلام ـ في الآية، قال: «وممّا علّمناهم يبثّون».[١] [٢]

وفي *المعاني* عنه ـ عليه السلام ـ: «وممّا علّمناهم يبثّون،[٣] ومما علّمناهم من القرآن يتلون».[٤]

قوله سبحانه: ﴿وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾

العدول ـ في خصوص الإذعان بالآخرة ـ عن الإيمان إلى اليقين، كأنّه للإيماء إلى أنّ التقوى لا تتمّ إلّا مع اليقين بالآخرة ـ الذي لا يجامع نسيانها ـ دون الإيمان المجرّد؛ فإنّ الإنسان ربّما يؤمن بشيء ويذهل عن بعض لوازمه فيأتي بما ينافيه، لكنّه إذا كان على ذُكرٍ من يومٍ يحاسَب فيه على الخطير واليسير من أعماله، لا يقتحم معه الموبقات، ولا يحوم حول محارم الله البتّة.

قال سبحانه: ﴿وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ﴾[٥] فبيّن أنّ الضلال عن سبيل الله إنّما هو بنسيان يوم الحساب، فذكره واليقين به يُنتج التقوى.

*

١. في المصدر: «ينبثون»

٢. تفسير *العيّاشي* ١: ٢٥، الحديث: ١.

٣. في المصدر: «ينبثون»

٤. *معاني الأخبار*: ٢٣، الحديث: ٢.

٥. ص (٣٨): ٢٦.

[أُولَٰئِكَ عَلَىٰ هُدىً مِنْ رَبِّهِمْ وَأُولَٰئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٥﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا
سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٦﴾ خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ
قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ وَعَلَىٰ أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٧﴾
وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ ٱلْآخِرِ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ ﴿٨﴾
يُخَادِعُونَ ٱللَّهَ وَٱلَّذِينَ آمَنُوا وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿٩﴾
فِى قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضاً وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا
يَكْذِبُونَ ﴿١٠﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِى ٱلْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ
مُصْلِحُونَ ﴿١١﴾ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْمُفْسِدُونَ وَلَٰكِنْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٢﴾ وَإِذَا قِيلَ
لَهُمْ آمِنُوا كَمَا آمَنَ ٱلنَّاسُ قَالُوا أَنُؤْمِنُ كَمَا آمَنَ ٱلسُّفَهَاءُ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ
ٱلسُّفَهَاءُ وَلَٰكِنْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٣﴾ وَإِذَا لَقُوا ٱلَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا
إِلَىٰ شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ ﴿١٤﴾ ٱللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ
وَيَمُدُّهُمْ فِى طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١٥﴾ أُولَٰئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُا ٱلضَّلَالَةَ
بِٱلْهُدَىٰ فَمَا رَبِحَتْ تِجَارَتُهُمْ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ ﴿١٦﴾]

قوله سبحانه: ﴿أُولٰئِكَ عَلَىٰ هُدىً مِنْ رَبِّهِمْ وَأُولٰئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾

بيّن سبحانه أوّلاً أنّ الكتاب هدى للمتّقين، ثمّ ظهر من السياق أنّ لهم اهتداءاً فطريّاً إجماليّاً، يتعقّبه اهتداء تفصيليّ إلٰهيّ، وهو الذي يحصل لهم ـ ببيانه سبحانه لهم وجوهَ خيرهم من شرّهم، بواسطة كتابه المبيّن ـ فيه صلاح معاشهم ومعادهم.

فظهر أنّ لهم الاهتداء بسلامة فطرتهم، والاهتداء كرامةً من ربّهم، وكان الجميع منه سبحانه؛ إذ كلّ حسنة فمن الله، فجمع بين الهدايتين، فقال: ﴿أُولٰئِكَ عَلَىٰ هُدىً مِنْ رَبِّهِمْ﴾ وقد قال سبحانه: ﴿فَمَنْ يُرِدِ ٱللهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ﴾[1] فذكر أنّ الهداية بانشراح الصدر وسعته، وقال: ﴿وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولٰئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾[2] والشحُّ: الضَيقُ والبُخل؛ فتمّ بذلك أنّ هؤلاء أصحاب الفلاح، فقال: ﴿فَأُولٰئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾.

قوله سبحانه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا ...﴾

هؤلاء قوم ثبتوا على الكفر، وتمكّن في قلوبهم؛ ويدلّ عليه قوله: ﴿سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ ...﴾ والإتيان بالماضي المجرّد من «قد».

ويشعر تغيير السياق في قوله سبحانه: ﴿خَتَمَ ٱللهُ ...﴾ ـ حيث نسب الختم إلى نفسه، والغشاوة إليهم أنفسهم ـ بأنّ فيهم حجاباً دون الحقّ في ذاتهم وأنفسهم، وحجاباً من الله عقيب كفرهم وفسوقهم؛ فأعمالهم متوسّطة بين حجابين: من ذاتهم ومن الله تعالى؛ وسيجيء تمام الكلام في قوله تعالى:

---

١. الأنعام (٦): ١٢٥.

٢. الحشر (٥٩): ٩.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَسْتَحْيِى أَنْ يَضْرِبَ مَثَلاً ...﴾[١] الآية.

واعلم: أنّ أصل الكفر هو الستر؛ كأنّ الكافر يستر على الحقّ، فهو إذن ذو مراتب، ولذلك كان بعض مراتبه يجتمع مع بعض مراتب الإيمان؛ وفي كلامه تعالى من ذلك آيات كثيرة.

وفي *الكافي* عن الزبيريّ عن الصادق ـ عليه السلام ـ قال: «قلت له: أخبرني عن وجوه الكفر في كتاب الله ـ عزّ وجلّ ـ قال: الكفر في كتاب الله على خمسة أوجه: فمنها كفر الجحود، والجحود على وجهين، والكفر بترك ما أمر الله، وكفر البراءة، وكفر النعم.

فأمّا كفر الجحود فهو الجحود بالربوبيّة، وهو قول من يقول: لا ربّ ولا جنّة ولا نار، وهو قول صنفين من الزنادقة يقال لهم الدهريّة، وهم الذين يقولون: ﴿وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا ٱلدَّهْرُ﴾[٢] وهو دين وضعوه لأنفسهم بالاستحسان منهم، ولا تحقيق لشيء ممّا يقولون؛ قال الله ـ عزّ وجلّ ـ: ﴿إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾[٣] أنّ ذلك كما يقولون، وقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ يعني بتوحيد الله، فهذا أحد وجوه الكفر.

وأمّا الوجه الآخر فهو الجحود على معرفة، وهو أن يجحد الجاحد وهو يعلم أنّه حقّ قد استقرّ عنده؛ وقد قال الله ـ عزّ وجلّ ـ: ﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلْماً وَعُلُوّاً﴾[٤] وقال الله ـ عزّ وجلّ ـ: ﴿وَكَانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ

---

١. البقرة (٢): ٢٦.
٢. الجاثية (٤٥): ٢٤.
٣. البقرة (٢): ٧٨.
٤. النمل (٢٧): ١٤.

كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ ٱللهِ عَلَى ٱلْكَافِرِينَ﴾(١) فهذا تفسير وجهي الجحود.

والوجه الثالث من الكفر: كفر النعم، وذلك قوله سبحانه يحكي قول سليمان: ﴿هٰذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّى لِيَبْلُوَنِى ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَنْ شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّى غَنِيٌّ كَرِيمٌ﴾(٢) وقال: ﴿لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِى لَشَدِيدٌ﴾(٣) وقال: ﴿فَاذْكُرُونِى أَذْكُرْكُمْ وَٱشْكُرُوا لِى وَلَا تَكْفُرُونِ﴾.(٤)

والوجه الرابع من الكفر: ترك ما أمر الله ـعزّ وجلّ ـ به، وهو قول الله ـعزّ وجلّ ـ: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ وَلَا تُخْرِجُونَ أَنْفُسَكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنْتُمْ تَشْهَدُونَ * ثُمَّ أَنْتُمْ هٰؤُلَاءِ تَقْتُلُونَ أَنْفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقاً مِنْكُمْ مِنْ دِيَارِهِمْ تَظَاهَرُونَ عَلَيْهِمْ بِالْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَانِ وَإِنْ يَأْتُوكُمْ أُسَارَىٰ تُفَادُوهُمْ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ ٱلْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ﴾(٥) فكفرهم بترك ما أمر الله ـعزّ وجلّ ـ به، ونسبهم إلى الإيمان ولم يقبله منهم ولم ينفعهم عنده، فقال: ﴿فَمَا جَزَاءُ مَنْ يَفْعَلُ ذٰلِكَ مِنْكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِى ٱلْحَيَاةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ ٱلْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰ أَشَدِّ ٱلْعَذَابِ وَمَا ٱللهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾.(٦)

والوجه الخامس من الكفر: كفر البراءة، وذلك قول الله ـعزّ وجلّ ـ يحكي قول إبراهيم ـعليه السلام ـ: ﴿كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱلْعَدَاوَةُ وَٱلْبَغْضَاءُ أَبَداً

---

١. البقرة (٢): ٨٩.
٢. النمل (٢٧): ٤٠.
٣. إبراهيم (١٤): ٧.
٤. البقرة (٢): ١٥٢.
٥. البقرة (٢): ٨٤ ـ ٨٥.
٦. البقرة (٢): ٨٥.

حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا بِاللهِ وَحْدَهُ﴾[١] يعني تبرّأنا منكم، وقال يذكر إبليس وتبرّيه من أوليائه من الإنس يوم القيامة: ﴿إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِنْ قَبْلُ﴾[٢] وقال: ﴿وَقَالَ إِنَّمَا ٱتَّخَذْتُم مِن دُونِ ٱللهِ أَوْثَاناً مَوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي ٱلْحَيَاةِ ٱلدُّنْيَا ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُمْ بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُمْ بَعْضاً﴾[٣] يعني يتبرّأ بعضكم من بعض.[٤]

*

١. الممتحنه(٦٠): ٤.
٢. إبراهيم (١٤): ٢٢.
٣. العنكبوت (٢٩):٢٥.
٤. *الكافي* ٢: ٣٨٩ ـ ٣٩١، الحديث: ١.

[مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى ٱسْتَوْقَدَ نَاراً فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ ٱللهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِى ظُلُمَاتٍ لَايُبْصِرُونَ (١٧) صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَايَرْجِعُونَ (١٨) أَوْ كَصَيِّبٍ مِنَ ٱلسَّمَاءِ فِيهِ ظُلُمَاتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصَابِعَهُمْ فِى آذَانِهِمْ مِنَ ٱلصَّوَاعِقِ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ وَٱللهُ مُحِيطٌ بِالْكَافِرِينَ (١٩) يَكَادُ ٱلْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَارَهُمْ كُلَّمَا أَضَاءَ لَهُمْ مَشَوْا فِيهِ وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا وَلَوْ شَاءَ ٱللهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ إِنَّ ٱللهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ (٢٠) يَاأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (٢١) ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَاشاً وَٱلسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنْزَلَ مِنَ ٱلسَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ ٱلثَّمَرَاتِ رِزْقاً لَكُمْ فَلَا تَجْعَلُوا لِلهِ أَنْدَاداً وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ (٢٢)]

قوله سبحانه: ﴿كَمَثَلِ ٱلَّذِى ٱسْتَوْقَدَ﴾ ـإلى قوله: ـ﴿قَدِيرٌ﴾

بيّن سبحانه حال المنافقين ـوهم آخر الفِرق الثلاث الذين تعرّض لبيان حالهم ـ ومبدأه وما يعقبه، بمثلَين ضربهما بالنار والبرْق، فحالهم كحال من وقع في ظلمةٍ

لا ضياء عندها في نفسها، وإنّما يُستضاء فيها بسبب من أسباب الاستضاءة، تدوم معه الاستضاءة مادام، وتفتقد إذا زال؛ فأمّا البرق فليس من شأنه الدوام والبقاء، وأمّا النار فلمّا أضاءت ما حوله ذهب الله بنورهم الذي تسبّبوا له ـ بمثل ريح أو مطر وأشباههما.

فهم بين حيرتين وعماءين: حيرة الظلمة التي هم فيها، وحيرة بطلان السبب الذي تشبّثوا به للنجاة من حيرة الظلمة الأُولى الأصليّة، فحال هؤلاء المنافقين حال الكافرين كما مرّ، فهم واقعون بين ضلال ذاتي وضلال آخر هو وبال أعمالهم الخبيثة، حيث يزيدهم الله مرضاً على مرض قلوبهم، ويستهزئ بهم، ويمدّهم في طغيانهم يعمهون. وسيجيء تتمّة الكلام في قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللهَ لَايَسْتَحْيِى ...﴾[1] الآية.

قوله سبحانه: ﴿يَا أَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾ ـ إلى قوله: ـ ﴿تَتَّقُونَ﴾

لمّا بيّن سبحانه حال الفِرق الثلاث: المتّقين والكافرين والمنافقين ـ وأنّ المتّقين على هدىً من ربّهم وهم المفلحون، وأنّ الكافرين ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى أبصارهم غشاوة، وأنّ المنافقين صمٌّ بكمٌ عميٌ ومرضى يزيدهم الله مرضاً ـ وذلك في تمام تسع عشرة آية، فرّع تعالى على ذلك أن دعاهم إلى عبادته، وأن يلتحقوا بالمتّقين، دون الكافرين والمنافقين، بهذه الآيات الخمسة إلى قوله: ﴿خَالِدُونَ﴾.[2]

وهذا السياق يعطي كون قوله: ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ متعلّقاً بقوله: ﴿آعْبُدُوا﴾ دون قوله: ﴿خَلَقَكُمْ﴾ وإن كان المعنى صحيحاً على التقديرين.

---

١. البقرة (٢): ٢٦.

٢. البقرة (٢): ٢٥.

[وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ وَٱدْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ ٱللهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٢٣﴾ فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا ٱلنَّارَ ٱلَّتِي وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ ﴿٢٤﴾ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا ٱلصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَارُ كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِنْ ثَمَرَةٍ رِزْقاً قَالُوا هَٰذَا ٱلَّذِي رُزِقْنَا مِنْ قَبْلُ وَأُتُوا بِهِ مُتَشَابِهاً وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٢٥﴾]

قوله سبحانه: ﴿فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ﴾

أمر تعجيزيّ لإبانة إعجاز القرآن ـ وأنّه كتاب منزل من عند الله لا ريب فيه ـ إعجازاً باقياً بمرّ الدهور وتوالي القرون. وقد تكرّر في كلامه هذا التعجيز، كقوله: ﴿قُلْ لَئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنْسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰ أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً﴾ [1] وقوله تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَٱدْعُوا مَنِ ٱسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ ٱللهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [2].

---

١. الاسراء (١٧): ٨٨.

٢. هود (١١): ١٣.

وعلى هذا فالضمير في قوله تعالى: ﴿مِثْلِهِ﴾ عائد إلى قوله تعالى: ﴿مِمَّا نَزَّلْنَا﴾ و يكون تعجيزاً بالقرآن نفسه وغرابة أُسلوبه وبيانه.

ويمكن أن يكون الضمير راجعاً إلى قوله: ﴿عَبْدِنَا﴾ فيكون تعجيزاً بالقرآن؛ من حيث إنّ الذي جاء به رجل أُمّي لم يتعلّم من معلّم، ولم يتلقّ شيئاً ـ من هذه المعارف العجيبة العالية، والبيانات الغريبة المُتقنة ـ من أحد من الناس، فتكون الآية نظيرة قوله تعالى: ﴿قُلْ لَوْ شَاءَ ٱللَّهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَلَا أَدْرَاكُمْ بِهِ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُراً مِنْ قَبْلِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾.(١)

وقد ورد التفسيران جميعاً في بعض الأخبار.

وهذه الآية ـ كنظائرها ـ تعطي إعجاز أقصر سورة من القرآن؛ كسورة الكوثر وسورة العصر ... وهكذا؛ وما ربّما يحتمل من رجوع ضمير ﴿مِثْلِهِ﴾ إلى نفس السورة ـ كسورة البقرة، أو سورة يونس مثلاً ـ يأباه الفهم المستأنس بأساليب الكلام؛ إذ من يرمي القرآن بالافتراء على الله إنّما يرميه جميعاً، ولا يخصّص قوله بسورة دون سورة، فلا معنى لردّه بالتحدّي بسورة البقرة أو سورة يونس؛ لرجوع المعنى حينئذٍ إلى مثل قولنا: «وإن كنتم في ريب من سورة الكوثر أو الإخلاص مثلاً، فأتوا بسورةٍ مثل سورة يونس» وهو بيّن الاستهجان.

وأمّا الصَّرْف ـ الذي قال به بعضهم في إعجاز القرآن ـ فأمر يستفاد من هذه الآيات خلافه، فتدبّر.

قوله سبحانه: ﴿فَاتَّقُوا ٱلنَّارَ ٱلَّتِي وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ﴾

سوق الآيات من أوّل السورة، وإن كانت في المتّقين والكافرين والمنافقين

---

١. يونس (١٠): ١٦.

ـالطوائف الثلاث جميعاً ـ لكنّه سبحانه حيث جمعهم طرّاً في قوله: ﴿يَا أَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا رَبَّكُمُ﴾[1] ودعاهم إلى عبادته وعبوديّته، تقسّموا قهراً إلى مؤمن وغيره؛ وهو الكافر؛ فإنّ هذه الدعوة لا تحتمل ـ من حيث إجابتها وعدمها ـ غير الإيمان والكفر، وأمّا النفاق فإنّما يتحقّق بضمّ الظاهر إلى الباطن واللسان إلى القلب، فكان هناك مَن جمع بين اللسان والقلب ـ إيماناً أو كفراً ـ ومن اختلف لسانه وقلبه وهو المنافق، فلِما ذكرنا أسقط سبحانه المنافقين من الذكر، وخصّه بالمؤمنين والكافرين، ووضع الإيمان مكان التقوى.

ثمّ المراد بالحجارة الأصنام التي كانوا يعبدونها، ويشهد به قوله تعالى: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ ٱللهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾.[2]

وقوله تعالى: ﴿وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ﴾

كقوله: ﴿كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِنْ ثَمَرَةٍ رِزْقاً قَالُوا هٰذَا ٱلَّذِى رُزِقْنَا مِنْ قَبْلُ وَأُتُوا بِهِ مُتَشَابِهاً﴾ ظاهرٌ في أنّه ليس هناك إلّا ما هيّأوه هاهنا، كما عن النبيّ ـ صلّى الله عليه وآله وسلّم ـ: «كما تعيشون تموتون، وكما تموتون تبعثون ...»[3] الحديث.

وإن كان بين الفريقين فرق؛ من حيث إنّ لأهل الجنّة مزيداً من ربّهم؛ قال

---

١. البقرة (٢): ٢١.

٢. الأنبياء (٢١): ٩٨.

٣. *عوالي اللئالي* ٤: ٧٢، الحديث: ٤٦؛ وفي *روضة الواعظين*: ٥٣: «والله لتموتنّ كما تنامون ولتبعثنّ كما تستيقظون...»؛ وفي *الإعتقادات* للمفيد: ٦٤: «...لتموتنّ كما تنامون، ولتبعثنّ كما تستيقظون»؛ وفي *الفصول المهمّة في أصول الأئمة* ١: ٣٤٢، الحديث: ٤٢٥؛ *حلية الأبرار* ١: ٧١؛ *الغدير* ٧: ٣٥٣؛ *الكامل* لابن الأثير ٢: ٢٤؛ *مجمع الزوائد* ٦: ٢٠؛ *المعجم الأوسط* ٦: ٣٦١؛ *كنز العمّال* ١٣: ٦١٣؛ *تاريخ مدينة الدمشق* ٢٣: ٤٤٠؛ نقل كما في *الإعتقادات*.

سبحانه: ﴿وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ﴾[١] وسيجيء الكلام فيه إن شاء الله.

قوله سبحانه: ﴿لَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ﴾

قرينة الأزواج تعطي أنّ المراد بالطهارة هي الطهارة من أنواع الأقذار والمكاره، التي تمنع من تمام الالتئام والأُلفة من أقذار ومكاره خُلُقيّة أو خَلْقيّة.

روى الصدوق، قال: «سئل الصادق ـ عليه السلام ـ عن الآية، قال: الأزواج المطهَّرة: اللاتي لا يحضن ولا يحدثن».[٢]

وفي بعض الأخبار تعميم الطهارة للبراءة عن جميع العيوب والمكاره.[٣]

*

١. ق (٥٠): ٣٥.

٢. من لا يحضره *الفقيه* ١: ٨٩، الحديث: ١٩٥.

٣. تفسير *العياشي* ١: ١٦٤، الحديث: ١١؛ *تفسير الإمام*: ٢٠٣، قال: «من أنواع الأقذار والمكاره مطهرات من الحيض والنفاس»

[إِنَّ ٱللهَ لَا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلاً مَا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا فَأَمَّا ٱلَّذِينَ آمَنُوا فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا فَيَقُولُونَ مَاذَا أَرَادَ ٱللهُ بِهٰذَا مَثَلاً يُضِلُّ بِهِ كَثِيراً وَيَهْدِي بِهِ كَثِيراً وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا ٱلْفَاسِقِينَ ﴿٢٦﴾ ٱلَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ ٱللهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ ٱللهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي ٱلْأَرْضِ أُوْلٰئِكَ هُمُ ٱلْخَاسِرُونَ ﴿٢٧﴾ كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللهِ وَكُنْتُمْ أَمْوَاتاً فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٨﴾ هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعاً ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ إِلَى ٱلسَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٢٩﴾]

قوله سبحانه: ﴿إِنَّ ٱللهَ لَا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلاً ...﴾

هذه الآيات نظير الآيات في سورة الرعد: ﴿أَفَمَنْ يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ ٱلْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُوا ٱلْأَلْبَابِ﴾[1] ﴿وَٱلَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ ٱللهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ ٱللهُ بِهِ أَن يُوصَلَ﴾[2] وقد سمّى سبحانه هذا الضلال

---

١. الرعد (١٣): ١٩.

٢. الرعد (١٣): ٢٥.

ـالمذكور هاهنا ـعمى هنالك، وهو يؤيّد ما مرّ؛ أنّ من الضلال والعمى ما يلحق الإنسان عقيب أعماله السيّئة، غير العمى الذاتي الذي له في نفسه، ويشهد به قوله سبحانه: ﴿وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا ٱلْفَاسِقِينَ﴾ حيث جعل إضلاله في تلو الفسق، لا متقدّماً عليه.

و«الهداية والإضلال» كلمتان جامعتان لجميع أنواع الكرامة والخذلان التي ترد منه سبحانه لعباده السُّعداء والأشقياء:

فإنّ ـ الله سبحانه ـ وصف في كلامه حال السعداء من عباده: بأنّه يحييهم حياة طيّبة، ويؤيّدهم بروح الإيمان، ويخرجهم من الظلمات إلى النور، ويجعل لهم نوراً يمشون به، وهو وليّهم، ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون، وهو معهم يستجيب لهم إذا دعوه، ويذكرهم إذا ذكروه، والملائكة تتنزّل عليهم بالبُشرى والسَّلام ... إلى غير ذلك.

ووصف حال الأشقياء من عباده: بأنّه يُضلّهم، ويخرجهم من النور إلى الظلمات، ويختم على سمعهم وعلى قلوبهم وعلى أبصارهم غشاوة، ويطمس وجوههم على أدبارهم، ويجعل في أعناقهم أغلالاً فهي إلى الأذقان فهم مُقْمَحون، ويجعل من بين أيديهم سدّاً ومن خلفهم سدّاً فيغشيهم فهم لا يبصرون، ويقيّض لهم شياطين قرناء يضلّونهم عن السبيل، ويحسبون أنّهم مهتدون، ويزيّنون لهم أعمالهم، وهم أولياؤهم، ويستدرجهم الله من حيث لا يشعرون، ويملي لهم إنّ كيده متين، ويمكر بهم، ويمدّهم في طغيانهم يعمهون.

فهذه نبذة ممّا ذكره سبحانه في وصف حال الفريقين، وظاهرها أنّ للإنسان في الدنيا ـ وراء الحياة التي يعيش بها فيها ـ حياة أُخرى سعيدة أو شقيّة، ذات أُصول وأعراق، يعيش بها فيها، وسيطّلع ويقف عليها عند انقطاع الأسباب

وارتفاع الحجاب.

ويظهر من كلامه سبحانه أيضاً: أنّ للإنسان حياة أُخرى سابقة على حياته الدنيا، يقتفي أثرها نحواً من الاقتفاء في حياته الدنيا، كما يحذو حذو حياته الدنيا فيما يتلوه من الحياة، وسيجيء بيانه في موضع يليق به، إن شاء الله العزيز.

فالإنسان ـ وهو في الدنيا ـ واقع بين حياتين: سابقة ولاحقة، غير السبق واللحوق الزمانيّين، فهذا هو الذي يقضي به ظاهر القرآن.

لكنّ الجمهور من المفسّرين حملوا القسمَ الثاني من الآيات ـ وهي الواصفة للحياة السابقة ـ على نحوٍ من لسان الحال وإقتضاء الإستعداد، والقسمَ الأوّل منها ـ وهي الواصفة للحياة اللاحقة ـ على ضروب المجاز والاستعارة.

إلّا أنّ ظواهر كثيرة من الآيات تدفع ذلك، منها: الآيات الدالة على أنّ الجزاء يومَ الجزاء بنفس الأعمال وعينها؛ كقوله تعالى: ﴿لَا تَعْتَذِرُوا ٱلْيَوْمَ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾،[1] وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ﴾،[2] وقوله تعالى: ﴿فَلْيَدْعُ نَادِيَهُ * سَنَدْعُ ٱلزَّبَانِيَةَ﴾،[3] وقوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُحْضَراً وَمَا عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ﴾،[4] ومثل قوله تعالى: ﴿مَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ إِلَّا ٱلنَّارَ﴾،[5] وقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَاراً﴾[6] ... إلى غير ذلك من الآيات.

---

١. التحريم (٦٦): ٧.
٢. آل عمران (٣): ١٦١.
٣. العلق (٩٦): ١٧ ـ ١٨.
٤. آل عمران (٣): ٣٠.
٥. البقرة (٢): ١٧٤.
٦. النساء (٤): ١٠.

ولعمري لو لم يكن في كتاب الله سبحانه إلّا قوله تعالى: ﴿لَقَدْ كُنتَ فِى غَفْلَةٍ مِنْ هٰذَا فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَآءَكَ فَبَصَرُكَ ٱلْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾[١] لكان فيه كفاية؛ إذ الغفلة لا تكون إلّا عن معلوم حاضر، وكشف الغطاء لا يكون إلّا عن مغطّى موجود.

ولعمري إنّك لو سألت نفسك أن تهديك إلى بيانٍ يفي بهذه المعاني حقيقةً من غير مجاز، ما أجابتك إلّا بنفس هذه البيانات والأوصاف التي أتى بها سبحانه بلسان رسوله. وأمّا البيان البرهاني لاحتفاف هذه الحياة الدنيا بحياتين أُخريين، فموضعه غير هذا الموضع.

وإذ قد تبيّن أنّ هذه المعاني: من الإضلال والمكر والاستدراج ونحوها، وما يقابلها في جانب السعادة، إنّما تلحق بالموصوفين بها عقيب أعمالهم الطالحة أو الصالحة بحسب ما يسانخها، سقط الاستشكال بلزوم الجبر في ذلك رأساً.

وفي *العيون* عن الرضا ـ عليه السلام ـ في قوله سبحانه: ﴿وَتَرَكَهُمْ فِى ظُلُمَاتٍ لَا يُبْصِرُونَ﴾[٢] قال عليه السلام: «إنّ الله لا يوصف بالترك كما يوصف خلقه، لكنّه متى علم أنّهم لا يرجعون عن الكفر والضلال منعهم المعاونة واللطف، وخلّى بينهم وبين اختيارهم».[٣]

وفيه عنه عليه السلام في قوله تعالى: ﴿خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ ...﴾[٤] الآية، قال: «الختم هو الطبع على قلوب الكفّار، عقوبةً على كفرهم، كما قال الله ـ عزّ وجلّ ـ: ﴿بَلْ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلاً﴾[٥]».[٦]

---

١. ق (٥٠): ٢٢.
٢. البقرة (٢): ١٧.
٣. عيون *أخبار الرضا* ـ عليه السلام ـ ١: ١٢٣، الحديث: ١٦.
٤. البقرة (٢): ٧.
٥. النساء (٤): ١٥٥.

وفي مجمع *البيان* قال: «روي عن الصادق ـعليه السلام ـ أنّـه قـال: إنّـما ضرب الله المثل بالبعوضة؛ لأنّ البعوضة ـ على صغر حجمها ـ خـلق الله فـيها جميع ما خلق في الفيل ـ مع كبره ـ وزيادة عضوين آخرين، فأراد الله أن ينبّه بذلك المؤمنين على لطف خلقه وعجيب صنعته».[٧]

قال الصادق ـعليه السلام ـ: «وهذا القول من الله ردّ على من زعـم أنّ الله ـ تبارك وتعالى ـ يضلّ العباد، ثمّ يعذّبهم على ضلالتهم، فقال الله ـ عزّ وجلّ ـ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَسْتَحْيِى أَنْ يَضْرِبَ مَثَلاً مَا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا﴾».[٨]

قوله سبحانه: ﴿إِلَّا ٱلْفَاسِقِينَ﴾

«الفسق» من الكلمات التي أبدع القرآن استعمالها في معناها المعروف، مأخوذ من فسقت التمرة: إذا خرجت عن قشرها وجلدها؛ ولذلك فسّـر بـعده بـقوله: ﴿الَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ...﴾ الآية، والنقض إنّما يكون عن إبرام.

ووصف الفاسقين أيضاً في آخر الآية بالخاسرين والإنسان إنّما يخسر فيما ملكه، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْخَاسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَامَةِ﴾.[٩]

وإيّاك أن تتلقّى هذه الأوصاف التي أثبتها سبحانه في كتابه للسـعداء مـن عـباده أو الأشـقياء ـ مـثل المـقرّبين والمـخلصين والمـخبتين والصـالحين والمطهّرين وغيرها، ومثل الفاسقين والظالمين والخاسرين والغاوين والضالّين

---

٦. عيون *أخبار الرضا* ـعليه السلام ـ ١: ١٢٣، الحديث: ١٦.

٧. مجمع *البيان* ١: ١٣٥.

٨. تفسير *القمي* ١: ٣٤؛ تفسير *نور الثقلين* ١: ٤٥، الحديث: ٦٣؛ *بحار الأنوار* ٥: ٧، الحديث: ٦.

٩. الزمر (٣٩): ١٥.

وأمثالها ـ أوصافاً مبتذلةً، أو مفيدةً لمجرّد تزيين اللفظ، فتضطرب بذلك قريحتك في فهم كلامه سبحانه؛ فتعطف الجميع على وادٍ واحد، وتأخذها هجاءاً عامّياً وحديثاً ساذجاً سوقيّاً! بل هي أوصاف كاشفة عن حقائق روحيّة ومقامات معنويّة، في صِراطَي السعادة والشقاوة، كلّ واحد منها في نفسه مبدأ لآثار خاصّة، ومنشأ لأحكام مخصوصة معيّنة، كما أنّ مراتب السِّنّ وخصوصيّات القوى وأوضاع الخلقة، كلّ منها منشأ لأحكام وآثار مخصوصة لا يمكننا أن نطلب واحداً منها من غير منشئه ومَحْتِده، ولئن تدبّرت في مواردها من كلامه سبحانه وأمعنت فيها، وجدت صدق ما ادّعيناه.

ويتفرّع عليه: أنّ «اللام» في كثير من موارد الأوصاف للعهد.

قوله سبحانه: ﴿ٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ ...﴾

هذه الأوصاف الثلاثة جامعة لجميع موارد الفسق، كما أنّ مقابلاتها لمقابلاته، وقد تكرّر ذكر معانيها في كلامه تعالى في موارد، وذلك أنّ للإنسان رابطةً في نفسه مع ربّه، ورابطةً قريبة مع أرحامه وأقربائه، ورابطةً مع جميع الأرض ومن فيها، فإذا أبقاها على ما تقضي به الفطرة من إبقائها وتحكيمها، كان جارياً على ما هداه الله إليه بفطرته وبخلقته، وإنّما يتذكّر أُولو الألباب، وإذا قطعها كان فاسقاً خاسراً.

وفي بعض الأخبار: أنّ الآية في حقّ أمير المؤمنين ـ عليه السلام ـ وولايته،[1] وهو إن صحّ فمن باب الجري.

---

١. *تفسير القمي* ١ : ٣٥؛ *تفسير الإمام*: ٢٠٦، الحديث: ٩٦؛ *بحار الأنوار* ٢٤ : ٣٩٢؛ ٩٠ : ١٤.

قوله سبحانه: ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللهِ ...﴾

رجوع وتفريع ثانياً إلى ما في صدر السورة؛ فإنّه بعد ما فرّع عليه قوله: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ ...﴾[1] الآية ببيان ملخّص في ضمن خمس آيات، عاد ثانياً إلى بيان أطنب منه في ضمن اثنتي عشرة آية، يبيّن فيه حال الإنسان وحياته وموته، وأنّه خلق له ما في الأرض جميعاً والسماوات، وجعله خليفته، وأسجد له ملائكته، وأسكن أباه الجنّة، ثمّ فتح له باب التوبة، وأكرمه بعبادته وهدايته.

*

١. البقرة (٢): ٢١.

[وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّى أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ (٣٠) وَعَلَّمَ آدَمَ ٱلْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِى بِأَسْمَاءِ هٰؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (٣١) قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ (٣٢) قَالَ يَا آدَمُ أَنْبِئْهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّى أَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَاوَاتِ وَٱلْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ (٣٣)]

قوله سبحانه: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ...﴾

الآيات تنبئ عن غاية إنزال الإنسان إلى الدنيا، وحقيقة الخلافة في الأرض.

قوله تعالى: ﴿قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا﴾ ـ إلى قوله: ـ ﴿وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾ مشعر بأنّهم إنّما فهموا وقوع هذه المعاصي ـ التي عدّوها ـ من قوله سبحانه: ﴿إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ حيث إنّ الوجود الأرضيّ بما أنّه ماديّ مركّب من القوى الشهويّة والغضبيّة، والدار دار التزاحم، محدودة الجهات، وافرة المزاحمات، مركّباتها في معرض الانحلال، وانتظاماتها

وإصلاحاتها في مظنّة الفساد ومصبّ البطلان، لا تتمّ الحياة فيها إلّا بالحياة النوعيّة، ولا يكمل البقاء فيها إلّا بالاجتماع والتعاون، فلا يخلو من فساد وسفك دم، ففهموا من هناك أنّ الخلافة المرادة لا تقع في الأرض إلّا بكثرة الأفراد، ونظام اجتماعيّ بينهم يفضي بالأخرة إلى الفساد.

والخلافة ـ وهي قيام شيء مقام آخر ـ لا تتمّ إلّا بكون الخليفة حاكياً بوجوده لوجود المستخلِف، مبدياً لآثاره الوجوديّة وأحكامه وتدابيره، وهو سبحانه بوجوده مسمّى بالأسماء الحسنى، متّصف بأوصاف الكمال والجمال والجلال، منزّه في صفاته عن النقص، وفي أفعاله عن الشرّ والفساد، جلّت عظمته. والخليفة الأرضي ـ بما هو كذلك ـ لا يليق بالاستخلاف، ولا يحكي ـ بوجوده المشوب بكلّ نقص وشَين ـ الوجودَ المنزّه المقدّس عن كلّ النقائص والأعدام.

وهذا من الملائكة في مقام تعرُّف ما جهلوه، واستيضاح ما أشكل عليهم من أمر هذا الخليفة، وليس بالاعتراض، والدليل عليه: قولهم فيما حكاه تعالى: ﴿إِنَّكَ أَنْتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ﴾ حيث صدّر بـ: «إنّ» التعليليّة المشعرة بتسلّم مدخولها، فافهم.

فملخّص قولهم يعود إلى أنّ جعل الخلافة إنّما هو لأجل أن يحكي الخليفةُ مستخلَفَه بتسبيحه بحمده وتقديسه له بوجوده، والأرضيّة لا تدعه يفعل ذلك، بل تجرّه إلى الفساد والشرّ، والغاية من هذا الجعل ـ وهي التسبيح والتقديس بالمعنى الذي مرّ من الحكاية ـ موجودة بتسبيحنا بحمدك وتقديسنا لك، فنحن خلفاؤك، أو فاجعلنا خلفاء لك، فأيّ فائدة في جعل هذه الخلافة الأرضيّة؟!

فردّ سبحانه ذلك عليهم بقوله: ﴿قَالَ إِنِّى أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ * وَعَلَّمَ آدَمَ

ٱلْأَسْمَاءَ ...﴾ الآية وهذا السياق يفيد أنّه سبحانه لم ينفِ عن خليفة الأرض الفساد، ولا عن الملائكة دعواهم، وقرّرهم على ما ادّعوا، بل إنّما أبدى شيئاً آخر؛ وهو أنّ هناك أمراً لا يقدر الملائكة على تحمّله، ويقدر عليه الخليفة الأرضي، فهو يحكي عنه سبحانه أمراً ويتحمّل سرّاً ليس في الملائكة.

وقد بدّل سبحانه قوله: ﴿إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ ثانياً بقوله: ﴿أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَاوَاتِ وَٱلْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ﴾.

وهذا الغيب هو الأسماء، دون علم آدم بها؛ فالملائكة ما كانت تعلم أنّ هناك أسماءً لا يعلمونها، لا أنّهم كانوا يعلمون أنّ هناك أسماءً غير معلومة لكن ما كانوا يعلمون من آدم أنّه يعلمها؛ وإلّا لما كان لسؤاله تعالى إيّاهم عن الأسماء وجه، بل كان حقّ المقام أن يقتصر على قوله: ﴿قَالَ يَا آدَمُ أَنْبِئْهُمْ ...﴾ إلى آخره، حتّى يتبيّن لهم أنّ آدم يعلمها، لا أن يسأل الملائكة عن ذلك؛ فإنّ هذا السياق يعطي أنّهم ادّعوا الخلافة وأذعنوا انتفاءها عن آدم.

وكان اللازم في الخلافة أن يعلم الخليفة بالأسماء، فسألهم عن الأسماء فجهلوها، وعلمها آدم ـ عليه السلام ـ فثبت لياقته لها وانتفاؤها عنهم، وقد ذيّل سبحانه السؤال بقوله: ﴿إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ وهو يعطي أنّهم ادّعوا شيئاً كان لازمه العلم بالأسماء لذلك.

وقوله سبحانه: ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ ٱلْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ ...﴾

مشعر بأنّ هذه الأسماء ـ أو أنّ مسمّياتها ـ كانوا موجودات أحياءً عقلاء محجوبين تحت حجاب الغيب، وأنّ العلم بأسمائهم غير نحو العلم الذي عندنا بأسماء الأشياء؛ وإلّا لكانت الملائكة ـ بإنباء آدم إيّاهم بها ـ عالمين بها،

صائرين مثل آدم مساوين معه، ولم يكن في ذلك إكرام لآدم؛ حيث علّمه الله سبحانه أسماءاً ولم يعلّمهم، ولو علّمهم إيّاها كانوا مثل آدم أو أشرف منه، ولم يكن في ذلك إقناع لهم وإلزام لحجّتهم.

وأيُّ حجّةٍ تتمّ في أن يعلّم الله رجلاً علم اللغة، ثمّ يباهي به ويتمّ الحجّة على ملائكة مكرمين ـ لا يسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون ـ بأنّ هذا قابل لخلافتي دونكم، ويقول تعالى لهم: أنبئوني باللغات ـ التي سوف يضعها الآدميّون بينهم للإفهام والتفهيم ـ إن كنتم صادقين في دعواكم أو مسألتكم خلافتي؟!

وأضف إلى ذلك: أنّ كمال اللغة هو المعرفة بمقاصد القلوب، والملائكة لا تحتاج فيها إلى التكلّم، وإنّما تتلقّى المقاصد من غير واسطة.

وبالجملة: فما حصل للملائكة من العلم ـ بإنباء آدم لهم بالأسماء ـ من غير حقيقة العلم التي حصلت لآدم بأسمائهم بتعليمه سبحانه، فأحد الأمرين كان ممكناً في حقّ الملائكة وفي مقدرتهم دون الآخر، وآدم ـ عليه السلام ـ إنّما استحقّ الخلافة الإلٰهيّة بالعلم بالأسماء دون إنبائها؛ إذ الملائكة إنّما قالوا في الجواب على ما حكاه سبحانه: ﴿سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا﴾ فنفوا العلم دون القدرة على الإنباء، فافهم.

وظهر ممّا مرّ: أنّ العلم بأسماء هؤلاء المسمّيات يجب أن يكون علماً يكشف عن حقائقهم وشؤونهم وخصوصيّات وجودهم، دون مجرّد ما يتكفّله الوضع اللغوي عندنا من الإشارة إلى مشار إليه معيّن، مثل ما يكشف معنى قولك: «أنا» عن ذاتك، فأنت عند مشاهدتك ذاتك تشاهد معنى «أنا»، وهو إسم من أسماء ذاتك، فهذا هو الحريّ أن يكون مراداً بالاسم أو داخلاً في المراد، ويكون معه المسمّى مستوراً تحت ستر الغيب محفوظاً عند الله ـ سبحانه ـ حيث لا وضع ولا

صوت ولا لغة.

فإذاً الأسماء والمسمّيات كانوا موجودين بوجودات عينيّة، وكان العلم المذكور بها أوّلاً: ميسوراً ممكناً لموجود أرضيّ لا مَلَك سماويّ وثانياً: دخيلاً في الخلافة الإلٰهيّة.

غير أنّ الظاهر من سياق الآيات: أنّ هؤلاء الملائكة كانوا يعرفون بعض هؤلاء المسمّيات بأسمائها؛ حيث يقول سبحانه: ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا﴾ بلفظة الجمع المحلّى باللام و «كُلّ»، ويحكي عن الملائكة أنّهم قالوا: ﴿لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا﴾ فجاؤوا بالاستثناء، فلولا علمهم ببعضها كان الاستثناء مستغنى عنه زائداً في الكلام، وحينئذٍ فلولا إرادة الاستغراق من الأسماء، كان اللائق بالمقام أن يقولوا: «لا علم لنا منها إلّا بما علّمتنا» أو ما يؤدّي هذا المعنى.

ومن هنا تستشعر ـ إن كنت ذا لبّ ـ أنّ معلومات الملائكة كانت كلّها أسماءاً، أي مسمّيات أسماء، كما في علومنا ومعلوماتنا، ومن هنا تعرف أنّ «اللام» في «الأسماء» ليست للعهد.

فإذاً هذه الأسماء ليست أسماءاً عينيّة من غير جنس الأسماء التي للملائكة والإنسان، بل كلّ اسم يقع لمسمّى ما، لكن مسمّيات هذه الأسماء كانت أُموراً غيبيّة ـ تحت أستار الغيب ـ هم غيب السماوات والأرض، فحينئذ ينطبق بالضرورة على ما أُشير إليه في قوله سبحانه: ﴿وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ﴾[1] حيث أخبر سبحانه: أنّ كلّ ما يقع عليه اسم «الشيء» فله عنده تعالى خزائن مخزونة، باقية عنده، غير نافدة، ولا مقدّرة بقدر،

---

١. الحجر (١٥): ٢١.

ولا محدودة بحدّ، وأنّ القدر والحدّ في مرتبة الإنزال والخلق، والكثرة التي فيها وتعدّدها ليست من جنس الكثرة العدديّة الملازمة للقدر والحدّ، بل تعدّد المراتب والدرجات، وسيجيء شرحها في سورة الحجر إن شاء الله.

فتحصّل: أنّ هؤلاء ـ الذين عرضهم الله تعالى على الملائكة ـ موجودات محفوظة عند الله تعالى، محجوبة بحجب الغيب، أنزل سبحانه كلّ اسم في العالم بخيرها وبركتها، واشتقّ كلّ ما في السماوات والأرض من نورها وبهائها، وأنّهم على كثرتهم وتعدّدهم لا يتعدّدون تعدّد الأفراد، ولا يتفاوتون تفاوت الأشخاص، وإنّما الأمر يدور هناك مدار المراتب والدرجات، ونزول الاسم من عندهم إنّما هو بهذا القسم من النزول، كما سيجيء.

ومن هنا يظهر معنى «غيب السماوات والأرض»؛ وذلك أنّ الإضافة هناك إمّا بمعنى «من» أو بمعنى «اللام» وبعبارة أُخرى: مصداق غيب السماوات والأرض إمّا من غير جنس الموجودات السماويّة والأرضيّة، فيكون موجوداً خارجاً عن عالم السماء والأرض، أو من جنس موجوداتهما، أو الأعمّ من ذلك، وقد استعمل الغيب في كلامه تعالى في كلّ منها: قال سبحانه: ﴿وَعِندَهُ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ﴾[١] وقال تعالى: ﴿فَالصَّالِحَاتُ قَانِتَاتٌ حَافِظَاتٌ لِلْغَيْبِ﴾[٢] وقال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ ٱلسَّمَاوَاتِ وَٱلْأَرْضِ﴾.[٣]

ويلزم على غير التقدير الأوّل أن يكون قوله: ﴿أَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَاوَاتِ وَٱلْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ﴾ على غير النظم البليغ؛ فإنّ

١. الأنعام (٦): ٥٩.
٢. النساء (٤): ٣٤.
٣. هود (١١): ١٢٣؛ النحل (١٦): ٧٧.

المكتوم ـ الذي ذكره سبحانه ـ هو من أفراد غيب السماوات والأرض، فكان جرياً وتدرّجاً في الكلام من الأعمّ إلى الأخصّ من غير نكتة ظاهرة، وهو رديء، بل الصالح حينئذٍ أن يذكر ما كتموه أوّلاً، وجميع الغيب ثانياً.

فهذا الغيب المذكور ليس من جنس السماوات والأرض؛ حتّى يكون غيباً بالنسبة إلى بعض سكنتهما، وشهادة بالنسبة إلى بعض آخر، بل هو غيب خارج عن حيطتهما، غائب مستور عن سكنتهما، فلا يشمل الغيب الذي كتموه أوّلاً.

وقوله سبحانه: ﴿وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ﴾

حيث قيّد بقوله: ﴿كُنتُمْ﴾ مشعرٌ بأنّه كان هناك أمر مكتوم في خصوص آدم وجعل خلافته، ويظهر ذلك ممّا عقّبه تعالى من قوله: ﴿فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾.[١]

فيظهر أنّ إبليس كان كافراً قبل ذلك الحين، وأنّ إباءه عن السجدة كان مرتبطاً بذلك، فقد كان أضمره.

ويظهر منه أنّ سجدة الملائكة ـ وإباء إبليس عنها ـ كانت واقعة بين قوله سبحانه: ﴿وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ﴾ وقوله سبحانه: ﴿إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾.

ويظهر السرّ أيضاً في تبديل قوله أوّلاً: ﴿إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ ـ إلى قوله ـ ثانياً: ﴿إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ ...﴾ الآية.

ويظهر من جميع ما مرّ معنى روايات المقام: ففي *العيّاشي* عن الصادق ـ عليه السلام ـ قال: «ما علم الملائكة بقولهم: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا

---

١. البقرة (٢): ٣٤.

﴿وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ﴾ لولا أنّهم قد كانوا رأوا من يفسد فيها ويسفك الدماء».[1]

أقول: يمكن أن يشير ـ عليه السلام ـ بذلك إلى دورة في الأرض سابقة على دورة بني آدم، كما وردت به الأخبار، ولا ينافي ذلك ما مرّ أنّ الملائكة فهمت ذلك من قوله تعالى: ﴿إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ ...﴾ الآية، بل لا يتمّ الخبر إلّا بذلك؛ وإلّا كان قياساً من الملائكة مذموماً كقياس إبليس. ويمكن أن يشير ـ عليه السلام ـ إلى مضمون الخبر الآتي من إثبات القدر.

وفيه أيضاً عنه ـ عليه السلام ـ قال زرارة: «دخلت على أبي جعفر ـ عليه السلام ـ فقال: أيّ شيء عندك من أحاديث الشيعة؟ فقلت: إنّ عندي منها شيئاً كثيراً، وقد هممت أن أُوقد لها ناراً فأُحرقها، فقال ـ عليه السلام ـ: وارها، تنس ما أنكرت منها، فخطر على بالي[2] الآدميّون، فقال: ما كان علم الملائكة حيث قالوا: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ﴾.

قال: وكان يقول أبو عبد الله ـ عليه السلام ـ إذا حدّث بهذا الحديث: هو كسر على القدريّة.

ثمّ قال أبو عبد الله ـ عليه السلام ـ: إنّ آدم كان له في السماء خليل من الملائكة، فلمّا هبط آدم من السماء إلى الأرض استوحش الملك، وشكا إلى الله تعالى وسأله أن يأذن له، فأذن له، فهبط عليه، فوجده قاعداً في قفرة من الأرض، فلمّا رآه آدم ـ عليه السلام ـ وضع يده على رأسه وصاح صيحة، قال أبو عبد الله ـ عليه السلام ـ: يروون أنّه أسمع عامّة الخلق، فقال له الملك: يا آدم، ما أراك إلّا وقد عصيت ربّك، وحملت على نفسك ما لا تطيق! أتدري ما قال لنا

---

١. *تفسير العيّاشي* ١ : ٢٩، الحديث: ٤.

٢. في المصدر: «بال»

الله فيك فرددنا عليه؟ قال: لا، قال: قال: ﴿إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ قلنا: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ﴾ فهو خلقك أن تكون في الأرض، أيستقيم أن تكون في السماء؟! فقال أبو عبد الله ـعليه السلامـ: والله عزّي بها آدم، ثلاثاً».[١]

أقول: ويستفاد من الرواية أنّ جنّة آدم كانت في السماء، وسيجيء فيه بعض روايات أُخر.

وفيه عن أبي العبّاس عن أبي عبد الله ـعليه السلامـ قال: «سألته عن قول الله: ﴿وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا﴾، ماذا علّمه؟ قال: «الأرضين والجبال والشعاب والأودية، ثمّ نظر إلى بساط تحته، فقال: وهذا البساط ممّا علّمه».[٢]

وفيه عن الفضيل[٣] بن العبّاس عن أبي عبد الله ـعليه السلامـ قال: «سألته عن قول الله: ﴿وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا﴾ ما هي؟ قال: أسماء الأودية والنبات والشجر والجبال من الأرض».[٤]

وفيه عن داود بن سرحان العطّار قال: «كنت عند أبي عبد الله ـعليه السلامـ فدعا بالخوان فتغدّينا، ثمّ دعا بالطست[٥] والدست سنانه، فقلت: جعلت فداك! قوله: ﴿وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا﴾ الطست والدست سنانه منه؟ فقال: الفجاج والأودية، وأهوى بيده كذا وكذا».[٦]

---

١. تفسير *العياشي* ١: ٣٢، الحديث: ٩ و ١٠.
٢. تفسير *العياشي* ١: ٣٢، الحديث: ١١.
٣. في المصدر: «الفضل».
٤. تفسير *العياشي* ١: ٣٢ ـ ٣٣، الحديث: ١٢.
٥. في المصدر: «بالطشت».
٦. تفسير *العياشي* ١: ٣٣، الحديث: ١٣.

وفي *المعاني* عن الصادق ـ عليه السلام ـ: «إنّ الله تبارك وتعالى علّم آدم أسماء حججه كلّها ثمّ عرضهم وهم أرواح على الملائكة، فقال: ﴿أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هٰؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ بأنّكم أحقّ بالخلافة في الأرض ـ لتسبيحكم وتقديسكم ـ من آدم، فقالوا: ﴿سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾ قال الله تبارك وتعالى: ﴿يَا آدَمُ أَنْبِئْهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ﴾ وقفوا على عظم[1] منزلتهم عند الله ـ عزّ ذكره ـ فعلموا أنّهم أحقّ بأن يكونوا خلفاء الله في أرضه، وحججه على بريّته، ثمّ غيّبهم عن أبصارهم، واستعبدهم بولايتهم ومحبّتهم، وقال لهم: ﴿أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ﴾».[2]

أقول: وبالرجوع إلى ما مرّ من البيان تعرف معنى هذه الروايات، وأن لا منافاة بين هذه وما تقدّمها، وهي تؤيّد ما قدّمناه من وجوه لا تخفى.

ويناسب المقام عدّة من أخبار الطينة، كما رواه في *البحار* عن جابر بن عبدالله، قال: «قلت لرسول الله ـ صلّى الله عليه وآله وسلّم ـ: أوّل شيء خلق الله ما هو؟ فقال: نور نبيّك يا جابر، خلقه الله ثمّ خلق منه كلّ خير، ثمّ أقامه بين يديه في مقام القرب ما شاء الله، ثمّ جعله أقساماً: فخلق العرش من قسم، والكرسيّ من قسم، وحملة العرش وسكنة[3] الكرسيّ من قسم، وأقام القسم الرابع في مقام الحبّ ما شاء الله، ثمّ جعله أقساماً: فخلق القلم من قسم، واللوح

---

١. في *كمال الدين*: «عظيم»

٢. لم توجد في *معاني الأخبار*، ولكن رواها في *كمال الدين* ١: ١٣ و ١٤؛ *بحار الأنوار* ١١: ١٤٥ و ٢٦: ٢٣٨؛ تفسير *نور الثقلين* ١: ٥٤؛ *تفسير كنز الدقائق* ١: ٢٢٥.

٣. في المصدر: «خزنة»

من قسم، والجنّة من قسم، وأقام القسم الرابع في مقام الخوف ما شاء الله، ثـمّ جعله أجزاءاً: فخلق الملائكة من جزء، والشمس من جزء، والقمر[١] من جزء، وأقام القسم الرابع في مقام الرجاء ما شاء الله، ثمّ جعله أجزاءاً: فخلق العقل من جزء، والعلم والحلم من جزء، والعصمة والتوفيق من جزء، وأقام القسم الرابع في مقام الحياء ما شاء الله، ثمّ نظر إليه بعين الهيبة، فرشح ذلك النور وقطرت منه مائة ألف وأربعة وعشرون ألف قطرة، فخلق الله من كلّ قطرة روح نبيّ ورسول، ثمّ تنفّست أرواح الأنبياء فـخلق الله مـن أنـفاسها أرواح الأوليـاء والشـهداء والصالحين».[٢]

أقول: والأخبار في هذه المعاني كثيرة مـتظافرة، إذا أجـلت فـيها التأمّـل والإمعان وجدتها شواهد على ما قدّمناه، وسيجيء بعض الكلام في بعضها.

وإيّاك أن ترمي هذه الأحاديث الشريفة ـ الواردة عن معادن العلم ومـنابع الحكمة ـ بأنّها من اختلاقات الغلاة وأوهام المتصوّفة، فللخلقة أسرار، وهو ذا العلماء من طبقات الإنسان، لم يزالوا يبحثون عن أسرار الطـبيعة مـنذ انـتشر البشر؛ وكلّما لاح لهم معلوم واحد بانَ لهم مجاهيل كثيرة، وهي ـ عالم الطبيعة ـ أضيق العوالم، فما ظنّك بما وراءها من عوالم السعة؟!

*

---

١. في المصدر: + «والكواكب»

٢. بحار الأنوار ٢٥ : ٢١ ـ ٢٢، الحديث: ٢٧.

[وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ ٱسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَافِرِينَ ﴿٣٤﴾]

قوله سبحانه: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ ...﴾

قد عرفت من قوله: ﴿وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ﴾[1] الوجه في قوله هنا: ﴿وَكَانَ مِنَ ٱلْكَافِرِينَ﴾، وأنّ هذا الأمر بالسجود كان بين قوله: ﴿إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾[2] وقوله: ﴿إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَاوَاتِ﴾،[3] وإنّما أُخرج من بين القصّة وخُصّ بالذكر، للتخلّص إلى قصّة جنّة آدم، فإنّ هذه الآيات الاثنتي عشرة في بيان: كيفيّة خلافة الإنسان وموقعيّته، وكيفيّة نزوله إلى الدنيا، وما يؤول إليه أمره من سعادة وشقاوة، فلا يهمّ من قصّة السجود إلّا إجمالها، ليتخلّص إلى قصّة الجنّة وهبوط آدم، فهو الوجه في الإضراب عن الإطناب إلى الإيجاز، ولعلّه السر أيضاً في الالتفات من الغَيبة إلى التكلّم، حيث قال: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ﴾ بعد

١. البقرة (٢): ٣٣.

٢. البقره (٢): ٣٠.

٣. البقرة (٢): ٣٣.

قوله تعالى: ﴿وَ إِذْ قَالَ رَبُّكَ﴾.[١]

وعلى ما مرّ فنسبة الكتمان إلى الملائكة ـ وهو فعل إبليس ـ بناءاً على الجري على الدأب الكلامي؛ من نسبة فعل الواحد إلى الجماعة إذا اختلط بهم ولم يتميّز منهم.

وهاهنا روايات أُخر تفسّر الكتمان بمعنىً آخر:

ففي *تفسير العيّاشي* عن أبي عبدالله ـ عليه السلام ـ قال: «لمّا أن خلق الله آدم، أمر الملائكة أن يسجدوا له، فقالت الملائكة في أنفسها: ما كنّا نظنّ أنّ الله خلق خلقاً أكرم عليه منّا، فنحن جيرانه ونحن أقرب الخلق إليه، فقال الله: ﴿أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّى أَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَاوَاتِ وَٱلْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ﴾،[٢] فيما أبدوا [من] أمر بني الجانّ، وكتموا ما في أنفسهم، فلاذت الملائكة الذين قالوا ما قالوا بالعرش».[٣]

وعن عليّ بن الحسين ـ عليه السلام ـ ما في معناه، وفيه: «فلمّا عرفت الملائكة أنّها وقعت في خطيئةٍ لاذوا بالعرش، و إنّها كانت عصابة من الملائكة وهم الذين كانوا حول العرش، لم يكن جميع الملائكة ـ إلى أن قال: ـ فهم يلوذون حول العرش إلى يوم القيامة»[٤] الخبر.

أقول: ويمكن أن يستفاد مضمون الروايتين من قوله سبحانه حكايةً عنهم: ﴿وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾،[٥] وقوله: ﴿ سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا

---

١. البقرة (٢): ٣٠.

٢. البقرة (٢): ٣٣.

٣. *تفسير العياشي* ١: ٣٣، الحديث: ١٤.

٤. *تفسير العياشي* ١: ٣٠ ـ ٣١، الحديث: ٧.

٥. البقرة (٢): ٣٠.

﴿إِنَّكَ أَنْتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ﴾.(١)

وسيجيء في العرش أنّه العلم، وبذلك وردت الروايات عن أئمّة أهل البيت ـ عليهم السلام ـ فافهم.

وعلى هذا يكون المراد من الكافرين في قوله سبحانه: ﴿وَكَانَ مِنَ ٱلْكَافِرِينَ﴾، بنو الجانّ، وهم قوم إبليس الذين كانوا سَكَنَة الأرض قبل آدم، وسيجيء مشروحاً ـ إن شاء الله ـ

وعلى هذه الرواية، فنسبة الكتمان إلى الجميع لا تحتاج إلى مؤونة وعناية زائدة، بل هي على حقيقته، ولا منافاة بين الصنفين من الرواية، حيث يظهر من أحدهما: إنّ المكتوم هو الذي أضمره إبليس في نفسه من الكفر، والآخر: أنّ المكتوم هو الذي وقع في نفس الملائكة من الاعتزاز بقرب الله وجواره؛ لجواز استفادة الجميع كما هو كذلك.

واعلم: أنّه يستفاد من قوله: ﴿ٱسْجُدُوا لِآدَمَ﴾ جواز السجود لغير الله في الجملة، إذا كان التعظيم والخضوع له نحوَ خضوع لله سبحانه؛ إذ الممنوع عقلاً ونقلاً إعطاء الربوبيّة لغير الله تعالى، وما كلّ سجود يُقصد به ذلك، وهو ظاهر، ونظيرها قوله في قصّة يوسف ـ عليه السلام ـ: ﴿وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى ٱلْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّداً وَقَالَ يَا أَبَتِ هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقّاً﴾.(٢)

*

---

١. البقرة (٢): ٣٢.

٢. يوسف (١٢): ١٠٠.

[وَقُلْنَا يَاآدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلا مِنْهَا رَغَداً حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ (٣٥) فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ (٣٦) فَتَلَقَّىٰ آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ (٣٧)]

قوله سبحانه: ﴿وَقُلْنَا يَاآدَمُ اسْكُنْ ...﴾

على أنّ قصّة سجود الملائكة لآدم تكرّرت في عدّة مواضع من القرآن، لم تقع قصّة الجنّة إلّا في ثلاثة مواضع:

أحدها هاهنا من سورة البقرة؛

والثاني في سورة الأعراف، قال تعالى: ﴿وَيَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ * فَوَسْوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُورِيَ عَنْهُمَا مِن سَوْءَاتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَنْ تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ * وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ * فَدَلَّاهُمَا بِغُرُورٍ فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَاتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ

عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَنْ تِلْكُمَا ٱلشَّجَرَةِ وَأَقُل لَكُمَا إِنَّ ٱلشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُبِينٌ * قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَاسِرِينَ * قَالَ ٱهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ * قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ﴾.[١]

والثالث في سورة طه، قال سبحانه: ﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَىٰ آدَمَ مِنْ قَبْلُ فَنَسِىَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْماً * وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ ٱسْجُدُوا لآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَىٰ * فَقُلْنَا يَاآدَمُ إِنَّ هَذَا عَدُوٌّ لَكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ ٱلْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰ * إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ * وَأَنَّكَ لَا تَظْمَؤُا فِيهَا وَلَا تَضْحَىٰ * فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ ٱلشَّيْطَانُ قَالَ يَاآدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَا يَبْلَىٰ * فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْءَاتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ وَعَصَىٰ آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَىٰ * ثُمَّ ٱجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ * قَالَ ٱهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعاً بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّى هُدىً فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ * وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكاً وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ ٱلْقِيَامَةِ أَعْمَىٰ * قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِى أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنْتُ بَصِيراً * قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَلِكَ ٱلْيَوْمَ تُنْسَىٰ﴾.[٢]

وسياق الآيات ـ وخاصّة قوله تعالى قبلها: ﴿إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾[٣] ـ يعطي أنّ آدم كان مخلوقاً ليحيىٰ في الأرض ويموت فيها ويُبعث منها، وإنّما أسكنهما الله تعالى الجنّة للاختبار، وليُبدي لهما سوآتهما، حتّى يهبطا إلى الأرض، كما يعطيه قوله تعالى في سورة طه: ﴿فَقُلْنَا يَا آدَمُ﴾،[٤] وفي سورة

١. الأعراف (٧): ١٩ ـ ٢٥.

٢. طه (٢٠): ١١٥ ـ ١٢٦.

٣. البقرة (٢): ٣٠.

٤. طه (٢٠): ١١٧.

الأعراف: ﴿وَيَا آدَمُ﴾،[١] المشعر بكونه مرتبطاً بمعصية إبليس ودعواه إغواء البشر.

فهو عليه السلام وزوجته ـ وإن كانا قد سوّاهما الله سبحانه تسوية أرضيّة بشريّة ثمّ أدخلهما الجنّة ـ لم يتمّ في الدنيا إدراكهما لسوآتهما ولا لغيرها من لوازم الحياة الدنيا واحتياجاتها حتى أدخلهما الله الجنّة، و أنّه إنّما أدخلهما الجنّة بعد التسوية ونفخ الروح وإسجاد الملائكة، ولمّا ينفصل وينقطع إدراكهما عن عالم الروح والملائكة.

وشاهد ذلك: قوله سبحانه في سورة الأعراف: ﴿لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُورِيَ عَنْهُمَا﴾،[٢] ولم يقل: «ما كان قد ووري عنهما»، وذلك مشعر بأنّ المواراة ما كانت ممكنة في الحياة الدنيا استدامةً، وإنّما تمشّت بإسكان الجنّة، فظهور السّوأة كان محتوماً مقضيّاً في الحياة الأرضيّة، وكذلك مع أكل الشجرة، ولذلك قال تعالى: ﴿فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ ٱلْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰ﴾،[٣] وقال: ﴿فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ﴾، وهو سبحانه قد غفر خطيئتهما بعد ما تابا، ولم يُعدهما إلى الجنّة، بل قضى بحياتهما في الدنيا.

ومن هنا يظهر أنّ هذا النهي منه سبحانه كان نهي إرشاد من غير تكليف، فإنّ جزاء المخالفة للنهي التكليفي يتبدّل بالتوبة إذا قُبلت، ولم يتبدّل هاهنا.

وليس من البعيد أن يستشعر من المقام أنّ صيرورتهما ظالمين، كونهما ظالمين لأنفسهما في اختيار ترك الجنّة؛ فإنّه سبحانه بدّل الظلم في سورة طه بقوله: ﴿إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ * وَأَنَّكَ لَا تَظْمَؤُا فِيهَا وَلَا تَضْحَىٰ﴾،[٤] فافهم.

---

١. الأعراف (٧): ١٩.

٢. الأعراف (٧): ٢٠.

٣. طه (٢٠): ١١٧.

٤. طه (٢٠): ١١٨ ـ ١١٩.

وبالجملة: كان لازمُ الأكل ظهورَ السوأة والهبوطَ إلى الدنيا، لزوماً غير قابل التدارك حتماً مقضيّاً، وذلك بنقض العهد الذي عهده إليهما؛ إذ قال: ﴿فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ ٱلْجَنَّةِ﴾[1] ، وقال تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ﴾.

وليس هذا العهد هو الذي يشير إليه بقوله: ﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَىٰٓ ءَادَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِىَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا﴾[2]؛ فإنّها تدلّ على نسيان العهد، مع أنّ ما في سورة الأعراف يدلّ على أنّه كان حين الاقتراف على ذُكرٍ من النهي؛ إذ يقول: ﴿وَقَالَ مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ ٱلْخَٰلِدِينَ﴾[3]

بل العهد إمّا بمعنى الوصيّة،[4] فيكون هو قوله: ﴿فَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ إِنَّ هَٰذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ ٱلْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰٓ﴾،[5] لكنّه لا يلائم السياق؛ إذ المقصود بالبيان في جميع هذه السورة ـ وهي سورة طه ـ هو ما سهّل الله تعالى لأنبيائه وعباده في تربيتهم وهدايتهم، وقد تعرّض تعالى في هذه الآيات لما منحه من التسهيل في حقّ آدم ـ عليه السلام ـ ولذلك ترى أنّه سبحانه خصّ آدم بالذكر حتى الإمكان، مع اشتراك زوجته معه فيها، فقال: ﴿فَتَشْقَىٰٓ﴾،[6] وقال: ﴿فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ ٱلشَّيْطَٰنُ﴾،[7] وقال: ﴿يَا آدَمُ﴾،[8] وغير ذلك؛ وهذه الوصيّة إنّما هي لكليهما لا لآدم ـ عليه السلام ـ وحده، والعهد المذكور في قوله:

---

١. طه (٢٠): ١١٧.
٢. طه (٢٠): ١١٥.
٣. الأعراف (٧): ٢٠.
٤. ليس له عِدْل ظاهر في العبارة.
٥. طه (٢٠): ١١٧.
٦. طه (٢٠): ١١٧.
٧. طه (٢٠): ١٢٠.
٨. طه (٢٠): ١١٧.

﴿فَنَسِيَ﴾،[1] مخصوص به عليه السلام، فهو غير الوصيّة المذكورة.

على أنّ مرجع هذه الوصيّة إلى الميثاق بالربوبيّة والعبوديّة كما يشعر به قوله: ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَنْ لَّا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ * وَأَنِ اعْبُدُونِي﴾.[2]

على أنّ ذيل الآيات في سورة طه ـ وهو قوله: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكاً وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى﴾،[3] وهو كالنتيجة للتسهيل الذي لآدم مع نسيانه العهد ـ لا يناسب هذه الوصيّة، بل يناسب العهد بمعنى الميثاق كما هو ظاهر.

وبالجملة: فالعهد المذكور هو الميثاق الذي أخذه سبحانه من أنبيائه ورسله، فنسيه بعضٌ، وعزم وثبت عليه بعضٌ، وهم أُولو العزم من الرسل وسيجيء شرحه ـ إن شاء الله ـ في آيات الميثاق، هذا.

ومع ذلك فسياق الآيات في سورة طه يعطي أنّ اقتراف الخطيئة منه عليه السلام كان لنسيان العهد؛ أعني أنّ لهذا النسيان دخلاً في تلك الخطيئة، ومع ذلك ـ أيضاً ـ فمقتضى دلالة السياق في جميع الموارد الثلاثة أنّ المعصية كانت لغرور منه عليه السلام من ناحية الوسوسة، فكان هناك أمران، لكلّ منهما دخل في تحقّق الخطيئة: نسيانُ عهدٍ عهده تعالى، وغرورٌ بالوسوسة: أمّا نسيان العهد فهو ما عهده لعباده وغلّظه في أنبيائه أن لا ينظروا إلى أنفسهم، ولا يكلوا إليها إلّا أنّها ملك لمالكها، مربوبة لربّها، كما سيجيء بيانه، وأمّا الغرور فهو ما يظهر من

---

١. طه (٢٠): ١١٥.

٢. يس (٣٦): ٦٠ ـ ٦١.

٣. طه (٢٠): ١٢٤.

الآيات في سورة طه أنّه الحياة الدنيا الشقيّة.

لكنّك إذا أمعنت النظر في الحياة الدنيا على اختلاف جهاتها، وتشتّت أطرافها وأنحائها، وعلى وحدتها واشتراكها بين المؤمن والكافر، وجدْتها بحسب الباطن والحقيقة مختلفة في الموردين، بحسب ذوق العلم بالله والجهل به.

فالعارف بمقام ربّه إذا نظر إلى نفسه، وكذلك إلى الحياة الدنيا الجامعة لأقسام الكدورات، وأنواع الآلام والمكاره: من موت وحياة، وصحّة وسقم، وسعة وإقتار، وراحة وتعب، ووجدان وفقدان، على أنّ الجميع أعمّ ممّا في نفسه وغيره مملوكة لربّه، لا استقلال لشيء منها وفيها ـ بل الكلّ ممّن ومِن عند مَن ليس عنده إلّا الحسن والبهاء والجمال والخير، على ما يليق بعزّته وجلاله، ولا يترشّح من لدنه إلّا الجميل والخير ـ لم ير مكروهاً يكرهه، ولا مخوفاً يخافه، ولا مهاباً يهابه، ولا محذوراً يحذره، بل يرى كلّ ما يراه حسناً جميلاً محبوباً، إلّا ما يأمره ربّه أن يكرهه ويبغضه، وهو مع ذلك يكرهه لأمره ويحبّ ويلتذّ ويبتهج بأمره، لا شغل له إلّا بربّه، كلّ ذلك بما أنّه يرى الجميع مِلكاً طِلقاً لربّه، لا نصيب ولا حظّ له ولا لغيره في شيء منها، فما له ولمالك الأمر وما يتصرّف به في ملكه من إحياء وإماتة، ونفع وضرّ وغيرها، فهذه هي الحياة الطيّبة التي لا شقاء فيها البتّة.

وفي مقابلها حياة الجاهل بمقام ربّه؛ إذ هذا المسكين بانقطاعه عن ربّه لا يقع بصره على موجود ـ من نفسه وغيره ـ إلّا رآه مستقلاً بنفسه، ضارّاً أو نافعاً، أو خيراً أو شرّاً، فهو يتقلّب في حياته بين الخوف عمّا يخاف فوته، والحذر عمّا يحذر وقوعه، والحزن لما يفوته، والحسرة لما يضيع منه من مال وجاه وبنين وأعوان، وسائر ما يحبّه ويتّكل عليه ويؤثره، كلّما نضج جلده بالاعتياد على مكروه والسكون إلى مرارة بدّل جلداً غيره ليذوق العذاب، بفؤاد مضطرب قلق،

وحشاً ذائب محترق، وصدر ضيّق حرج، كأنّما يصعّد في السماء، كذلك يجعل الله الرجس على الذين لا يؤمنون.

فإذا عرفت هذا علمت أنّ مرجع الأمرين ـ أعني نسيان الميثاق، وشقاء الحياة الدنيا ـ واحد، وأنّ الشقاء الدنيوي من فروع نسيان الميثاق.

وهذا هو الذي يشعر به قوله سبحانه، حيث أتى بالتكليف الجامع لأهل الدنيا في سورة طه؛ إذ قال: ﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدىً فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ * وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكاً﴾،[١] وبدّلها في هذه السورة بقوله تعالى: ﴿فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾.[٢]

ومن هاهنا تحدس ـ إن كنت ذا فطانة ـ أنّ الشجرةَ كانت شجرة في اقترابها تعب الحياة الدنيا وشقاؤها، وهو أن يعيش الإنسان في الدنيا وهو يجد الأشياء مستقلّة الذوات، وأنّ آدم ـ عليه السلام ـ كأنّه أراد أن يجمع بينه وبين الميثاق المأخوذ عليه، فلم يتمكّن فنسي الميثاق ووقع في تعب الحياة الدنيا، وسيجيء أنّ هذا ممّا اختصّ الله به نبيّه محمّداً ـ صلّى الله عليه وآله وسلّم ـ من الكرامة في قوله: ﴿عَسَىٰ أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَاماً مَحْمُوداً﴾،[٣] فانتظر.

*

١. طه (٢٠): ١٢٢ ـ ١٢٣.
٢. البقرة (٢): ٣٨.
٣. الإسراء (١٧): ٧٩.

[قُلْنَا ٱهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعاً فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّى هُدىً فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ فَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٨﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا وَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَـٰئِكَ أَصْحَابُ ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٣٩﴾]

قوله سبحانه: ﴿قُلْنَا ٱهْبِطُوا ...﴾

ظاهر السياق أنّه خطاب لآدم وزوجته ـ عليهما السلام ـ وإبليس ـ لعنة الله عليه ـ وقد خصّ آدم وزوجته بالخطاب في سورة طه؛ إذ قال: ﴿قَالَ ٱهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعاً﴾،[1] وخصّ إبليس به وحده في سورة الأعراف؛ إذ قال: ﴿فَاهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَنْ تَتَكَبَّرَ فِيهَا﴾،[2] فكأنّ قولَه سبحانه: ﴿قَالَ ٱهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ﴾،[3] جمعٌ بين الخطابين، وحكايةٌ عن قضاءٍ قُضي به: من العداوة بين إبليس وبين آدم وذرّيّته، ومن حياتهم وموتهم في الأرض وبعثهم منها. وذرّيّة آدم معه في الحكم، على ما يعطيه ظاهر

---

١. طه (٢٠): ١٢٣.

٢. الأعراف (٧): ١٣.

٣. البقرة (٢): ٣٦.

قوله: ﴿قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ﴾،[١] وقوله: ﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّى هُدىً...﴾ إلى آخر الآيات؛ ومثله ما في ذيل الآيات في سورة طه من قضيّة تفريق الهابطين فريقين، فافهم.

وسيأتي في قوله سبحانه: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ﴾[٢] أنّ إسجاد الملائكة لآدم إنّما كان بما أنّه خليفة أرضيّ، فكان المسجود له هو آدم، وحكم السجدة لجميع البشر، فمنزلته من بين البشر ـ في سجدة الملائكة ـ منزلة الكعبة من بين الجهات؛ وقد قال سبحانه: ﴿فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللهِ﴾،[٣] وقال: ﴿فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ﴾.[٤]

وبالجملة، فيشبه أن تكون هذه القضيّة التي حكاها سبحانه ـ من إسكان آدم وزوجته الجنّة، ثمّ إهباطهما للأكل من الشجرة ـ كالمَثَل يمثّل به ما كان الإنسان فيه قبل نزوله إلى الدنيا من السعادة والكرامة والحبور والسرور، بسكونة حظيرة القدس، ومنزل الرفعة والقرب، ودار نعمة وسرور ونور وأُنس، لا شقاء ولا ظلمة ولا وحشة فيها، مع رفقاء طاهرين وأخلّاء روحانيّين، وبجوار ربّ العالمين، ثمّ إنّه يختار بدله كلّ تعب وألم ومكروه، بالميل إلى حياة فانية وجيفة منتنة دانية، ثمّ إنّه لو رجع إلى ربّه وأناب إليه، أعاده إلى دار كرامته وسعادته، ولو لم يرجع وأخلد إلى الأرض واتّبع هواه، فقد بدّل نعمة الله كفراً وأحلّ نفسه دار البوار، جهنّم يصلاها وبئس القرار.

---

١. الأعراف (٧): ٢٥.
٢. الأعراف (٧): ١١.
٣. البقرة (٢): ١١٥.
٤. البقرة (٢): ١٤٤.

واعلم: أنّه وإن ظلم نفسه في إلقائها إلى شفا جرف المهلكة ومنشعَب طريقَي السعادة والشقاوة، فلو وقف في مهبطه فقد هلك، ولو رجع إلى سعادته الأُولى فقد أتعب نفسه وظلمها، فهو ظالم لنفسه على كلّ تقدير، إلّا أنّه هيّأ لنفسه بنزوله درجةً من السعادة ما كان ينالها لو لم ينزل، فمتى كان يمكنه أن يشاهد ما لنفسه من الفقر والذلّة والمسكنة والحاجة والقصور، وله في كلّ ما يصيبه ـ من التعب والكدّ والنائبة ـ رَوْحٌ وراحةٌ في حظيرة القدس وجوار ربّ العالمين، فلله سبحانه صفات من عفو ومغفرة وتوبة وستر وفضل ورأفة ورحمة لا ينالها إلّا المذنبون، وله سبحانه في أيّام الدهر نفحات لا يرتاح بها إلّا المتعرّضون، والكلام طويل الذيل سيمرّ بك بعضه فيما سيجيء ـ إن شاء الله ـ

ومن التأمّل في المقام يتّضح: أنّ آدم إنّما خالف أمراً إرشاديّاً كما مرّت الإشارة إليه، ولا ينافيه ما نسبهما سبحانه إليه بقوله تعالى: ﴿وَعَصَىٰ آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَىٰ﴾،[1] وقوله: ﴿فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّالِمِينَ﴾،[2] واعترافهما بالظلم، ﴿قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَاسِرِينَ﴾[3]؛ فإنّ للظلم والمعصية والغيّ مراتب، فما كلّ ظلم أو معصية فسقاً موجباً لدخول النار، فالغفلة عن الحقّ منشأ كلّ ظلم ونقص، وليست من المعصية المصطلحة في شيء.

ويستشعر ذلك من قوله سبحانه: ﴿ثُمَّ ٱجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ﴾[4]؛ حيث يدلّ على الاجتباء أوّلاً، ويفرّع عليه التوبة والهداية، والأمر في التوبة من

---

١. طه (٢٠): ١٢١.
٢. البقرة (٢): ٣٥.
٣. الأعراف (٧): ٢٣.
٤. طه (٢٠): ١٢٢.

المعصية المعروفة المصطلحة بالعكس، فعلى هذا فما تسلّمه المفسّرون ـ من كون النهي في قوله: ﴿وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ﴾ ،[١] تعبّديّاً ـ في غير محلّه.

وقوله: ﴿فَتَلَقَّىٰٓ آدَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾[٢] مشعرٌ بأنّ التوبة ـ وهي من العبد الرجوع إلى ربّه من ذنبه ومعصيته، ومن الله سبحانه اللطف على عبده برحمته ـ لا تكون إلّا مسبوقة بتوبة من الله ـ تعالى ـ، فالتوبة من العبد توبة واحدة، ومن الله توبتان محفوفة بهما توبة العبد، كما يدلّ عليه أيضاً قوله: ﴿ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوٓا﴾ .[٣]

وقراءة نصب «آدم» ورفع «كلمات» أنسب لهذا المعنى وأليق، وإن كانت القراءة الأُخرى وهو رفع «آدم» ونصب «كلمات» لا تنافيه أيضاً.

وقد وقع في سورة الأعراف نظير هذا المعنى، وهو قوله تعالى: ﴿قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ ،[٤] وهو تذلّل منهما وتسبيح لربّهما وتمسّك بصفتي المغفرة والرحمة، وهما كالفرع مع أصله.

ويمكن أن يستظهر من ذلك أنّ هذه الكلمات هي التي تلقّاها آدم من ربّه أو تلقّت هي آدم من ربّه، على اختلاف القراءتين، غير أنّ وقوع قوله: ﴿قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَا﴾ ،[٥] قبل قوله: ﴿قُلْنَا ٱهْبِطُوا﴾ ،[٦] في سورة الأعراف، ووقوع قوله:

---

١. البقرة (٢): ٣٥.

٢. البقرة (٢): ٣٧.

٣. التوبة (٩): ١١٨.

٤. الأعراف (٧): ٢٣.

٥. الأعراف (٧): ٢٣.

٦. الأعراف (٧): ٢٤.

﴿فَتَلَقَّىٰ آدَمُ﴾ ،[١] بعد قوله: ﴿قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا﴾[٢] في هذه السورة، لا يساعد عليه.

وأنت إذا تدبّرت الآيات في هذه القصّة ـ وخاصّة ما في سورة طه ـ وجدت أنّ المستفاد منها: أنّ الأكل من الشجرة أوجب القضاء منه سبحانه بالهبوط والاستقرار في الأرض والحياة فيها، تلك الحياة الشقيّة التي حذّرهما الله ـ سبحانه ـ إيّاها حين نهاهما أن يقربا الشجرة هذا.

وأنّ الاجتباء والتوبة ثانياً، تعقّب قضاء ثانياً بإكرامه عليه السلام بالهداية إلى العبوديّة، فالمقضيّ أوّلاً كان نفس الحياة الأرضيّة، ثمّ بالتوبة طيّب الله تلك الحياة؛ بأن ركّب عليها الهداية إليه تعالى، فتألّفت الحياة من حياة أرضيّة وحياة سماويّة.

وهذا هو المستفاد من تكرار الأمر بالهبوط في هذه السورة؛ حيث يقول سبحانه: ﴿وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ﴾[٣] إلى أن قال: ﴿قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعاً فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدىً﴾، وتوسيط التوبة بين الأمرين بالهبوط يشعر بأنّ التوبة وقعت ولمّا ينفصلا من الجنّة، وإن لم يكونا فيها كاستقرارهما قبل.

ويشعر بذلك أيضاً قوله سبحانه: ﴿وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَنْ تِلْكُمَا الشَّجَرَةِ﴾[٤] بعد ما قال لهما: ﴿وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ الشَّجَرَةَ﴾ ،[٥] فأتى بلفظة «تلكما» بعد ما أتى بلفظة «هذه»، أي بالإشارة إلى البعيد بعد الإشارة إلى القريب.

---

١. البقرة (٢): ٣٧.
٢. البقرة (٢): ٣٦.
٣. البقرة (٢): ٣٦.
٤. الأعراف (٧): ٢٢.
٥. البقرة (٢): ٣٥.

وهذا هو المستفاد من بعض الروايات الآتية، هذا.

وممّا تقدّم يتبيّن معنى الروايات في الباب؛ ففي *تفسير القمّي* عن أبيه رفعه، قال: سئل الصادق ـ عليه السلام ـ عن جنّة آدم، أ من جنان الدنيا كانت، أم من جنان الآخرة؟ فقال عليه السلام: «كانت من جنان الدنيا تطلع فيها الشمس والقمر، ولو كانت من جنان الآخرة ما خرج منها أبداً».[1]

قال: «فلمّا أسكنه الله الجنّة[2] وأباحها له إلّا الشجرة، لأنّه خلق خلقة لا تبقى إلّا بالأمر والنهي والغذاء واللباس والاكتنان والنكاح، ولا يدرك ما ينفعه ممّا يضرّه إلّا بالتوفيق.

فجاءه إبليس فقال له: إنّكما إن أكلتما من هذه الشجرة التي نهاكما الله عنها، صرتما مَلَكين وبقيتما في الجنّة أبداً، وإن لم تأكلا منها أخرجكما الله من الجنّة، وحلف لهما أنّه لهما ناصح، كما قال الله ـ عزّ وجلّ ـ حكايةً عنه: ﴿وَقَالَ مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّا أَنْ تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ ٱلْخَالِدِينَ * وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّاصِحِينَ﴾.[3]

فقبل آدم قوله، فأكلا من الشجرة، فكان كما حكى الله: ﴿فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْءَاتُهُمَا﴾،[4] وسقط عنهما ما ألبسهما الله من لباس الجنّة، وأقبلا يستتران من ورق الجنّة ﴿وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَنْ تِلْكُمَا ٱلشَّجَرَةِ وَأَقُلْ لَكُمَا إِنَّ ٱلشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾،[5] فقالا كما حكى الله عنهما: ﴿قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ

---

١. في المصدر: + «ولم يدخلها إبليس»

٢. في المصدر: «أتى جهالة إلى الشجرة فأخرجه؛ لأنّه خلق خلقه»

٣. الأعراف (٧): ٢٠ ـ ٢١.

٤. طه (٢٠): ١٢١.

٥. الأعراف (٧): ٢٢.

لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَاسِرِينَ﴾[١] فقال الله لهما: ﴿قَالَ ٱهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ﴾،[٢] قال: أي يوم القيامة.

قوله: ﴿فَأَزَلَّهُمَا ٱلشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ وَقُلْنَا ٱهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ﴾[٣] قال: فهبط آدم على الصفا، وإنّما سمّيت الصفا لأنَّ صفيّ[٤] الله أُنزل[٥] عليها، ونزلت حوّاء على المروة، وإنَّما سمّيت المروة لأنّ المرأة أُنزلت عليها.

فبقي آدم أربعين صباحاً ساجداً يبكي على الجنّة، فنزل عليه جبرئيل فقال: أليس خلقك الله بيده، ونفخ فيك من روحه، وأسجد لك ملائكته؟ قال: بلى؛ وأمرك أن لا تأكل من الشجرة فعصيته، قال آدم ـ عليه السلام ـ: إنّ إبليس حلف لي بالله[٦] كاذباً».[٧]

أقول: وفي كون جنّة آدم من جنان الدنيا روايات أُخر، وإن اتّحد بعضها مع هذه الرواية في إبراهيم بن هاشم.

والمراد من كونها من جنان الدنيا: كونها برزخيّة في مقابل جنان الخلد، كما يشير إليه بعض فقرات الرواية، كقوله فيها: «إنّ نبيّ الله أُنزل على الصفا وإنّ حوّاء أُنزلت على المروة»،[٨] وكقوله: «إنّ المراد بحين يوم القيامة»، فيكون

١. الأعراف (٧): ٢٣.
٢. الأعراف (٧): ٢٤.
٣. البقرة (٢): ٣٦.
٤. في بعض النسخ: «نبي» [منه ـ رحمه الله ـ].
٥. في المصدر: «نزل»
٦. في المصدر: + «إنه لي ناصح وما ظننت أن يخلقه الله أن يحلف بالله»
٧. تفسير *القمّي* ١: ٤٣ ـ ٤٤.
٨. راجع: تفسير *العياشي* ١: ٣٥، الحديث: ٢١؛ ١: ٣٩، الحديث: ٢٢؛ *الكافي* ٤: ١٨٦، ←

المكث في البرزخ وجنّة مكثاً في الأرض.

ويدلّ عليه ـ أيضاً ـ ما ورد من الروايات: «إنّ آدم إنّما هبط من السماء»، وجُلّ آيات البعث في القرآن تعُدّ الحياة البرزخيّة لبثاً في الأرض.

وأمّا كيفيّة مجيء إبليس إليهما، فالصحاح والمعتبرة من الأخبار خالية عنها، وفي بعض الأخبار ذكر الحيّة والطاووس عونين لإبليس في إغوائه لهما،[١] لكنّها غير معتبرة أضربنا عن ذكرها.

وفي *العيون*: عن عبدالسلام الهروي، قال: قلت للرضا ـ عليه السلام ـ: يابن رسول الله أخبرني عن الشجرة التي أكل منها آدم وحوّاء، ما كانت؟ فقد اختلف الناس فيها، فمنهم من يروي أنّها الحنطة،[٢] ومنهم من يروي أنّها شجرة الحسد.

فقال عليه السلام: «كلّ ذلك حقّ».

قلت: فما معنى هذه الوجوه على اختلافها؟

فقال عليه السلام: «يابن الصلت! إنّ شجرة الجنّة تحمل أنواعاً، وكانت شجرة الحنطة وفيها عنب، وليست كشجرة الدنيا.

وإنّ آدم لمّا أكرمه الله تعالى بإسجاد ملائكته له وبإدخاله الجنّة، قال في نفسه: هل خلق الله بشراً أفضل منّي؟! فعلم الله ـ عزّ وجلّ ـ ما وقع في نفسه، فناداه: ارفع رأسك يا آدم وانظر إلى ساق العرش،[٣] فنظر إلى ساق العرش

← الحديث: ١؛ ٤: ١٩٠، الحديث: ١؛ ٤: ١٩١، الحديث: ٢؛ ٤: ١٩٥، الحديث: ٤؛ ٦: ٥١٣، الحديث: ١؛ *من لا يحضره الفقيه* ٢: ١٩٤؛ *تفسير القمّي* ١: ٤٣؛ *علل الشرائع* ٢: ٤٢١، الحديث: ٣؛ ٢: ٤٣١، الحديث: ١؛ ٢: ٤٣٢، الحديث: ١؛ ٢: ٤٩١، الحديث: ١.

١. *تحف العقول*: ١٠.

٢. في المصدر: «ومنهم من يروي أنّها العنب»

٣. في المصدر: «فرفع آدم رأسه»

فوجد عليه مكتوباً: لا إله إلّا الله، محمّد رسول الله، عليّ بن أبي طالب أمير المؤمنين، وزوجته فاطمة سيّدة نساء العالمين، والحسن والحسين سيّدا شباب أهل الجنّة.

فقال آدم: يا ربّ من هؤلاء؟

فقال ـعزّ وجلّـ: يا آدم هؤلاء[١] ذرّيّتك، وهم خير منك ومن جميع خلقي. ولولاهم ما خلقتك ولا[٢] الجنّة ولا النار ولا السماء ولا الأرض، فإيّاك أن تنظر إليهم بعين الحسد، فأُخرجك عن جواري، فنظر إليهم بعين الحسد وتمنّى منزلتهم، فتسلّط عليه الشيطان حتّى أكل من الشجرة التي نُهي عنها، وتسلّط على حوّاء فنظرت إلى فاطمة بعين الحسد حتّى أكلت من الشجرة كما أكل آدم، فأخرجهما الله تعالى من جنّته وأهبطهما من جواره إلى الأرض».[٣]

أقول: وقد ورد في هذا المعنى عدّة روايات أُخر، بعضها أبسط منها وأطنب، وبعضها أوجز وأخصر.

وهذه الرواية ـكما ترى ـسلّم عليه السلام فيها أنّ الشجرة كانت شجرة حنطة وشجرة حسد، وأنهما أكلا من شجرة الحنطة ثَمَرَها، وحَسَدا وتَمَنَّيا منزلة محمّدٍ وآله ـ صلوات الله عليهم أجمعين ـ ومقتضى المعنى الأوّل: أنّ الشجرة كانت أخفض شأناً من أن يميل إليها أهل الجنّة، ومقتضى الثاني: أنّها كانت أرفع شأناً من أن ينالها آدم وزوجته، كما في رواية أُخرى: أنّها كانت شجرة علم محمّد وآله.

---

١. في المصدر: + «من»

٢. في المصدر: + «خلقت»

٣. عيون *أخبار الرضا* ـعليه السلام ـ ١: ٣٠٦ ـ ٣٠٧، الحديث: ٣٧.

وبالجملة: فهما معنيان مختلفان، لكنّك بالرجوع إلى ما تقدّم من أمر الميثاق تعرف أنّ المعنى واحد، وأنّه عليه السلام نسيَ الميثاق أوّلاً، فتمنّى منزلتهم صلوات الله عليهم أجمعين بالجمع بين المقامين، فأكل من الشجرة، فلم يتهيّأ له إلّا أحد الأمرين وهبط إلى الأرض.

وبذلك يرتفع ما يتراءى من المنافاة بين ما رواه *العيّاشي* عن موسى بن محمد بن عليّ عن أخيه أبي الحسن الثالث عليه السلام ـ وفي *إكمال الدين*: عن الثمالي عن أبي جعفر عليه السلام ـ قال: «إنّ الله ـ عزّ وجلّ ـ عهد إلى آدم أن لا يقرب الشجرة، فلمّا بلغ الوقت الذي في علم الله أن يأكل منها، نسيَ، فأكل منها، وذلك قول الله تبارك وتعالى: ﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَىٰ آدَمَ مِنْ قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْماً﴾.[١][٢] قال: الشجرة التي نهى الله آدم وزوجته أن يأكلا منها، شجرة الحسد، عهد إليهما أن لا ينظرا إلى من فضّل الله عليه وعلى خلائقه بعين الحسد، ولم يجد له عزماً».[٣]

وبين ما رواه عن أحدهما ـ عليهما السلام ـ وقد سئل كيف أخذ الله آدم بالنسيان؟ فقال: «إنّه لم ينس، وكيف ينسى وهو يذكره ويقول له إبليس: ﴿مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَنْ تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ﴾[٤]».[٥]

وفي *العيون* عن عليّ بن محمّد بن جهم، قال: حضرت مجلس المأمون وعنده الرضا عليّ بن موسى ـ عليه السلام ـ فقال له المأمون: يابن رسول الله!

---

١. طه (٢٠): ١١٥.
٢. *كمال الدين* ١: ٢١٣، الحديث: ٢.
٣. *الاختصاص*: ٩٣؛ *تحف العقول*: ٤٧٨؛ *تفسير العياشي* ٢: ٩، الحديث: ٨؛ *المناقب* ٤: ٤٠٤.
٤. الأعراف (٧): ٢٠.
٥. تفسير *العياشي* ٢: ٩، الحديث: ٩.

أليس من قولك: إنّ الأنبياء معصومون؟ فقال: «بلى»، قال: فما معنى قول الله تعالى: ﴿وَعَصَىٰ آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَىٰ﴾[١]؟ قال: «إنّ الله تعالى قال لآدم: ﴿ٱسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَداً حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ﴾[٢] وأشار لهما إلى شجرة الحنطة ﴿فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّالِمِينَ﴾،[٣] ولم يقل لهما: لا تأكلا من هذه الشجرة [لا] ممّا كان من جنسها، فلم يقربا تلك الشجرة،[٤] وإنّما أكلا من غيرها لمّا أن وسوس الشيطان إليهما، وقال: ﴿مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ﴾[٥] وإنّما نهاكما أن تقربا غيرها، ولم ينهكما عن الأكل منها ﴿إِلَّا أَنْ تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ ٱلْخَالِدِينَ * وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّاصِحِينَ﴾[٦] ولم يكن آدم وحوّاء شاهدا قبل ذلك من يحلف بالله كاذباً ﴿فَدَلَّاهُمَا بِغُرُورٍ﴾[٧] فأكلا منها ثقةً بيمينه بالله ...»[٨] الخبر.

أقول: وهو عليه السلام أخذ في الرواية الشجرةَ النوعيّة والنهيَ متعلّقاً بفرد من النوع على نحو الإشارة إلى الحقيقة، والغرورَ بالتأوّل من النوع بالفرد، فكأنّ شجرة الحنطة كانت كثيرة متعدّدة في الحقيقة، وإنّما نهى الله تعالى عن القرب من أحدها بعنوان الإشارة إلى النوع، والشيطان غرّهما بأنّ النهي عن فرد معيّن دون سائر الأفراد، فأكلا من شجرة أُخرى زعماً أنّها غير التي نهى عنها، وهذا البيان

١. طه (٢٠): ١٢١.
٢. البقرة (٢): ٣٥.
٣. البقرة (٢): ٣٥.
٤. في المصدر: + «ولم يأكلا منها»
٥. الأعراف (٧): ٢٠.
٦. الأعراف (٧): ٢٠ - ٢١.
٧. الأعراف (٧): ٢٢.
٨. عيون أخبار الرضا -عليه السلام- ١: ١٩٦ - ١٩٧، الحديث: ١.

لو لم يكن بياناً إقناعيّاً للمأمون، كان المراد به ما بيّنّاه من معنى الميثاق ونسيانه، فتدبّر.

وروى الصدوق عن الباقر ـ عليه السلام ـ عن آبائه عن عليّ ـ عليهم السلام ـ عن رسول الله ـ صلّى الله عليه وآله وسلّم ـ قال: «إنّما كان لبث آدم وحوّاء في الجنّة حتّى أُخرجا منها سبع ساعات من أيّام الدنيا، حتّى أهبطهما الله من يومهما».[١]

أقول: وفي هذا المعنى روايات أُخر، وفي بعضها: «ستّ ساعات» بدل «سبع».[٢]

ففي *تفسير العيّاشي* عن عبد الله بن سنان قال: سئل أبو عبد الله ـ عليه السلام ـ وأنا حاضر: كم لبث آدم وزوجته في الجنّة حتّى أخرجتهما منها خطيئتهما؟ فقال: «إنّ الله ـ تبارك وتعالى ـ نفخ في آدم ـ عليه السلام ـ روحه بعد[٣] زوال الشمس من يوم الجمعة، ثمّ برأ زوجته من أسفل أضلاعه، ثمّ أسجد له ملائكته وأسكنه جنّته من يومه ذلك، فو الله ما استقرّ فيها إلّا ستّ ساعات في يومه ذلك، حتّى عصى الله تعالى، فأخرجهما الله منها بعد غروب الشمس،[٤] وصيّرا بفناء الجنّة حتّى أصبحا، فبدت لهما سوآتهما، وناداهما ربّهما: ألم أنهكما عن تلكما الشجرة؟ فاستحيي آدم منها، فخضع وقال: ربّنا ظلمنا أنفسنا واعترفنا بذنوبنا فاغفر لنا، قال الله لهما: اهبطا من سماواتي إلى الأرض، فإنّه لا يجاورني في جنّتي عاصٍ ولا في سماواتي».[٥]

أقول: وقوله ـ عليه السلام ـ: «وصيّرا بفناء الجنّة» إشارة إلى ما مرّ من الكلام

---

١. *الخصال* ٢: ٣٩٦، الحديث: ١٠٣.
٢. *الاختصاص* ٢: ٣٩٥، *تفسير العياشي* ٢: ١٠، الحديث: ١١؛ *تفسير القمّي* ١: ٤٥.
٣. في بعض النسخ: «عند»، [منه ـ رحمه الله ـ].
٤. في المصدر: + «وما باتا فيها»
٥. تفسير *العياشي* ١: ١٠ ـ ١١.

في تكرّر الأمر بالهبوط فراجع، وأمّا الساعات ـ وأنّها ستّة أو سبعة ـ فالأمر فيها هيّن، فإنّما هو تقريب.

وفي *الكافي* عن أحدهما ـ عليهما السلام ـ في قوله تعالى: ﴿فَتَلَقَّىٰ آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ﴾[1] قال: «لا إله إلّا أنت، سبحانك اللهمّ وبحمدك، عملتُ سوءاً وظلمت نفسي، فاغفر لي وأنت خير الغافرين، لا إله إلّا أنت سبحانك[2] وبحمدك، عملتُ سوءاً وظلمت نفسي، فاغفرلي[3] وأنت خير الراحمين،[4] سبحانك اللهمّ وبحمدك، عملتُ سوءاً وظلمت نفسي، فاغفر لي وتب عليّ، إنّك أنت التوّاب الرحيم».[5]

أقول: وروى هذا المعنى *الصدوق* و*العيّاشي* و*القمّي* وغيرهم،[6] وعن طرق العامّة أيضاً[7] ما يقرب من ذلك، وقد مرّ أنّ ذلك ربّما استفيد من ظاهر الجمع بين آيات القصّة.

وقال الكليني: وفي رواية أُخرى في قوله: ﴿فَتَلَقَّىٰ آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ﴾ قال: «سأله[8] بحقّ محمّد وعليّ وفاطمة والحسن والحسين ـ عليهم السلام ـ».[9]

---

١. البقرة (٢): ٣٧.

٢. في المصدر: + «اللهمّ»

٣. في المصدر: + «وارحمني»

٤. في المصدر: + «لا إله إلّا آلله»

٥. *الكافي* ٨: ٣٠٤، الحديث: ٤٧٢.

٦. تفسير *القمّي* ١: ٤٤؛ تفسير *العيّاشي* ١: ٤١، الحديث: ٢٥؛ *منهج الدعوات*: ٣٠٣؛ *القصص الراوندي*: ٥٣، الحديث: ٢٩؛ *التبيان* ١: ١٦٩؛ مجمع *البيان* ١: ١٧٥.

٧. *المصنف*، لابن أبي شيبة الكوفي ٧: ٣٦؛ كتاب *التوابين*، لعبدالله بن قدامة: ١١؛ جامع *البيان* ١: ٣٤٩؛ *زاد المسير* ١: ٥٧؛ تفسير *القرطبي* ١: ٣٢٤؛ تفسير *ابن كثير* ١: ٨٥؛ *الدرّ المنثور* ١: ٥٩؛ فتح *القدير* ١: ٧٢ وغيرهم.

٨. في بعض النسخ: «سألته» [منه ـ رحمه الله ـ].

٩. *الكافي* ٨: ٣٠٤، الحديث: ٤٧٢.

أقول: وروى هذا المعنى أيضاً *الصدوق* و*العيّاشي* و*القمّي* وغيرهم،[١] وقد روي ما يقرب منها من طرق العامّة أيضاً، كما رواه في *الدرّ المنثور* عن النبيّ ـصلّى الله عليه وآله وسلّم ـ قال: «لمّا أذنب آدم الذنب الذي أذنبه، رفع رأسه إلى السماء فقال: أسألك بحقّ محمّد إلّا غفرت لي، فأوحى الله إليه: ومَن محمّد؟ فقال: تبارك اسمك! لمّا خلقتني رفعتُ رأسي إلى عرشك، فإذا فيه مكتوب: لا إله إلّا الله محمّد رسول الله، فعلمت أنّه ليس أحد أعظم عندك قدراً ممّن جعلت اسمه مع اسمك، فأوحى الله إليه: يا آدم إنّه آخر النبيّين من ذرّيّتك، ولولاه ما خلقتك».[٢]

وهذا المعنى وإن كان بعيداً عن ظاهر الآيات، لكنّك إذا أمعنت وتذكّرت ما مرّ ـ من أنّ التوبة من العبد توبة واحدة، ومن الله سبحانه توبتان حُفَّت بهما توبة العبد ـ وجدت أنّه سبحانه في قوله: ﴿ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ﴾[٣] إنّما تعرّض لذكر توبته الثانية على آدم، أعني توبته بعد توبته إليه سبحانه.

فيكون قوله: ﴿ثُمَّ اجْتَبَاهُ﴾ إجمالاً للتوبتين، أعني توبته سبحانه السابقة على توبة آدم وتوبة آدم، فاجتباؤه سبحانه لآدم مجموع توبته عليه وتوبته إليه.

وكذلك قوله: ﴿فَتَلَقَّىٰ آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ﴾[٤] إنّما تعرّض لذكر توبته الثانية عليه، فتلقّيه من ربّه كلمات إجمال توبته عليه وتوبته إليه.

---

١. *معاني الأخبار*: ١٢٥، الحديث: ٢؛ *تفسير العيّاشي* ١: ٤١، الحديث: ٢٧؛ *الأمالي*: ٧٥، الحديث: ٢؛ *الكافي* ١: ٤١٦، الحديث: ٢٣؛ *المناقب* ٣: ٣٢٠؛ *كمال الدين* ٢: ٣٥٨ـ ٣٥٩، الحديث: ٥٧؛ *كشف اليقين*: ١٤؛ *كشف الغمة* ١: ٤٦٥؛ *إرشاد القلوب* ٢: ٢١٠؛ ٢: ٤٢١ وغيرهم.

٢. *الدرّ المنثور* ١: ٥٨.

٣. طه (٢٠): ١٢٢.

٤. البقرة (٢): ٣٧.

وقد أبهم سبحانه هذه الكلمات حيث نكّرها، وأمّا الكلمات التي حكاها سبحانه عنهما في سورة الأعراف بقوله: ﴿قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾[١] فليس فيها سؤال التوبة والمغفرة، وإنّما هو تذلّل بالاعتراف بالظلم وميل وانعطاف إلى المغفرة والرحمة، وإنّما لم يتعرّضا لسؤال التوبة إشعاراً بغاية تذلّلهما وخضوعهما، على ما هو الدأب في أدب المستغفرين من الذنوب بين الناس فتراهم يذكرون ذنب العاصي ثمّ مغفرة المعصيّ له، ثمّ يسكتون؛ تلويحاً بأنّ الأمر إليه كيف شاء.

وفي لفظ التلقّي ـ وهو الأخذ ـ معنى الاستقبال، ففي معناه علم سابق، كما يعطيه الإستقبال، وقد كان عليه السلام «عُلِّم الأسماء كلّها عقيب قول الملائكة لربّهم: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾،[٢] فهذا العلم كان من شأنه إزاحة كلّ ظلم ومعصية بالضرورة؛ وإلّا لم يتمّ جواب الملائكة، وقد عرفت ما هي حقيقة هذه الأسماء، وأنّها وسائط الفيض لما دونها، ولا يتمّ كمال مستكمل إلّا ببركاتها.

وقد ورد في الخبر أنّه عليه السلام رأى أشباح أهل البيت وأنوارهم حين عُلِّم الأسماء،[٣] وورد أنّه عليه السلام رآها حين أخرج الله ذرّيّته من ظهره،[٤]

---

١. الأعراف (٧): ٢٣.

٢. البقرة (٢): ٣٠.

٣. *اليقين*: ١٧٤؛ *المسائل السرورية*: ٣٧؛ *القصص للراوندي*: ٤٢ و ٤٤؛ *علل الشرائع* ١: ٢٠٨ ـ ٢٠٩، الحديث: ١١؛ *تفسير الفرات*: ٥٥٢، الحديث: ٧٠٧؛ *تفسير الإمام العسكري ـ عليه السلام ـ*: ٢١٩، الحديث: ١٠٢.

٤. *الكافي* ٢: ٨، الحديث: ٢؛ *المناقب* ٢: ٢٤٨؛ *علل الشرائع* ١: ١٨، الحديث: ٢؛ *علل الشرائع* ١: ١٠، ٤؛ *سعد السعود*: ٣٥.

وورد أنّه عليه السلام رآها وهو في الجنّة»،[١] فراجع والله الهادي.

وفي *تفسير القمّي* عن الصادق ـ عليه السلام ـ قال: «إنّ موسى سأل ربّه أن يجمع بينه وبين آدم، فجمع، فقال له موسى: يا أبت أ لم يخلقك الله بيده، ونفخ فيك من روحه، وأسجد لك الملائكة، وأمرك أن لا تأكل من الشجرة، فلِمَ عصيته؟ قال: يا موسى! بِكَمْ وجدت خطيئتي قبل خلقي في التوراة؟ قال: بثلاثين ألف سنة،[٢] قال: فقال: هو ذلك. قال الصادق ـ عليه السلام ـ: فحجج آدم ـ عليه السلام ـ موسى ـ عليه السلام ـ».[٣]

أقول: وروي ما يقرب من هذا المعنى *العلّامة السيوطي* بعدّة طرق عن النبيّ ـ صلّى الله عليه وآله وسلّم ـ.[٤]

وفي *العلل* عن الباقر ـ عليه السلام ـ: «والله لقد خلق الله آدم للدنيا، وأسكنه الجنّة ليعصيه، فيردّه إلى ما خلقه له».[٥]

أقول: وقد مرّ رواية *العيّاشي* عن الصادق ـ عليه السلام ـ في خليل كان لآدم من الملائكة ... الحديث[٦] في هذا المعنى.

ومن الأخبار ما تظافرت بنزولهما من السماء إلى الصفا والمروة من أرض

---

١. *المناقب* ١: ١٧٨؛ *روضة الواعظين* ١: ٥٨؛ *التوحيد*: ٣٣٠، الحديث: ٩؛ *تفسير الفرات*: ١٤٨، الحديث: ١٨٦؛ *تفسير العياشي* ٢: ٢٣٨، الحديث: ٥٧؛ ٢: ٤٠، الحديث: ١١١؛ *بصائر الدرجات*: ٧٢، الحديث: ٩؛ ٧١، الحديث: ٦؛ *الإختصاص*: ٣٣٢؛ *الإحتجاج* ١: ٥٢؛ *الكافي* ٢: ٨، الحديث: ٢؛ *الكافي* ٢: ١٢ ـ ١٣، الحديث: ٤.

٢. في المصدر: «قبل أن خلق آدم»

٣. تفسير *القمّي* ١: ٤٤.

٤. *الدرّ المنثور* ١: ٥٦.

٥. *علل الشرائع* ٢: ٥٧٨، الحديث: ٣.

٦. تفسير *العياشي* ١: ٣٢، الحديث: ١٠.

مكّة،[١] وفي مقابلها ما في الاحتجاج في احتجاج عليّ ـ عليه السلام ـ مع الشامي حين سأله عن أكرم وادٍ على وجه الأرض؟ فقال عليه السلام: «وادٍ يقال له: سرانديب، سقط فيه آدم من السماء».[٢]

أقول: ويمكن التوفيق بنزوله بسرانديب أوّلاً ثمّ بأرض مكّة، وليس بنزولين أرضيّين حتّى يمتنع أحدهما.

وأمّا كيفيّة نزوله من السماء إلى الأرض ـ وهو موجود أرضيّ ـ، فنظير ما ورد أنّ الجنّة في السماء[٣] مع ما ورد أنّ القبر موطن أرواح المؤمنين،[٤] فتأمّل.

*

١. مرّ قبل صفحات.

٢. *علل الشرائع* (٢): ٥٩٤، الحديث: ٤٤.

٣. تفسير *القمّي* ١: ٢٣٠؛ *إرشاد القلوب* ٢: ٣١٦؛ متشابه *القرآن* ٢: ١٢٠؛ *بحار الأنوار* ٨: ٨٣ و ٣٣٤؛ ٣٠: ٩٠.

٤. تفسير *القمّي* ١: ٣٣٧؛ *إرشاد القلوب* ١: 55.

[يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ ٱذْكُرُوا نِعْمَتِيَ ٱلَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ (٤٠) وَآمِنُوا بِمَا أَنْزَلْتُ مُصَدِّقاً لِمَا مَعَكُمْ وَلَا تَكُونُوا أَوَّلَ كَافِرٍ بِهِ وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَناً قَلِيلاً وَإِيَّايَ فَاتَّقُونِ (٤١) وَلَا تَلْبِسُوا ٱلْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُوا ٱلْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ (٤٢) وَأَقِيمُوا ٱلصَّلَاةَ وَآتُوا ٱلزَّكَاةَ وَٱرْكَعُوا مَعَ ٱلرَّاكِعِينَ (٤٣) أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ تَتْلُونَ ٱلْكِتَابَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ (٤٤) وَٱسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَٱلصَّلَاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلْخَاشِعِينَ (٤٥) ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُلَاقُوا رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ (٤٦)]

قوله سبحانه: ﴿يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ ...﴾

لمّا بيّن سبحانه حال الناس في افتراقهم إلى ثلاث، ثمّ دعاهم جميعاً إلى عبادته، وكيفيّة خلقهم ومبدأه وغايته، أخذ في معاتبة أهل الكتاب وملامتهم بعد ما أفاض عليهم من نعمته وما حباهم من كرامته، وتفصيل ما يجب عليهم من حفظ عهوده وحقوقه ممّا اشتمل عليه البيان السابق بالإجمال، وذلك في طيّ نيّف و مائة آية هذه أوّلها.

قوله سبحانه: ﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِى ...﴾

في *الكافي* عن الصادق ـ عليه السلام ـ: «بولاية أمير المؤمنين ﴿أُوفِ بِعَهْدِكُمْ﴾ أُوفِ لكم بالجنّة».[١]

أقول: وهو من الجري.

قوله سبحانه: ﴿وَٱسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَٱلصَّلَاةِ ...﴾

الاستعانة ـ وهي طلب العون ـ إنّما تتمّ فيما لا يقوى الإنسان عليه وحده من المهمّات، وإذ لا معِين في الحقيقة إلّا الله ـ سبحانه ـ فالعون على المهمّات إنّما هو استقامة الإنسان واتّصاله به تعالى بالإقبال عليه، وهذا هو الصبر والصلاة.

وقد ورد عن أهل البيت عليهم السلام عدّة روايات في تفسير الصبر بالصوم،[٢] وهو من باب المصداق:

ففي *الكافي* عن الصادق ـ عليه السلام ـ قال: «كان عليّ ـ عليه السلام ـ إذا هاله أمرٌ[٣] فَزِعٌ قام إلى الصلاة، ثمّ تلا هذه الآية: ﴿وَٱسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَ ٱلصَّلَاةِ﴾».[٤]

وفيه أيضاً عنه عليه السلام في الآية، قال: «الصبر: الصيام، وقال: إذا نزلت بالرجل النازلة الشديدة فليصم؛ فإنّ الله ـ عزّ وجلّ ـ يقول: ﴿وَٱسْتَعِينُوا

---

١. *الكافي* ١: ٤٣١، الحديث: ٨٩.

٢. *الكافي* ٤: ٩٢، الحديث: ٦؛ تفسير *العياشي* ١: ٤٣، الحديث: ٤٠ و ٤١؛ ١: ٦٨، الحديث: ١٢٤؛ تفسير *القمّي* ١: ٤٦.

٣. في المصدر: «شيء»

٤. *الكافي* ٣: ٤٨٠، الحديث: ١.

بِالصَّبْرِ﴾ يعني الصيام».[١]

وروى مضمون الحديثين *العيّاشي* في تفسيره.[٢]

وفي *تفسير العيّاشي* ـ أيضاً ـ عن أبي الحسن ـ عليه السلام ـ في الآية، قال: «الصبر: الصوم، إذا نزلت بالرجل الشدّة أو النازلة فليصم؛ إنّ الله يقول: ﴿وَٱسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَٱلصَّلَاةِ [الصبر: الصيام][٣] وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلْخَاشِعِينَ﴾ والخاشع: الذليل في صلاته، المقبل عليها؛ يعني رسول الله وأميرالمؤمنين».[٤]

أقول: والفرق بين الخضوع والخشوع ـ على أنّهما كلَيهما بمعنى الذلّة ـ: أنّ الأوّل مختصّ بالجوارح، والثاني بالقلب؛ وقد استفاد عليه السلام من الآية استحباب الصوم والصلاة عند نزول الملمّات والشدائد، وكذا التوسّل بالنبيّ والوليّ عندها، وهو تأويل الصوم والصلاة برسول الله وأمير المؤمنين ـ عليهما السلام ـ

قوله سبحانه: ﴿إِلَّا عَلَى ٱلْخَاشِعِينَ * ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَاقُوا رَبِّهِمْ ...﴾

هذا المورد ـ أعني الاعتقاد بالآخرة ـ على أنّه مورد اليقين، لا يفيد فيه الظنّ الذي لا يمنع عن النقيض، ولعلّه إنّما أخذ فيه الظنّ أخذاً بتحقّق الخشوع، فإنّ العلوم التدريجيّة الحصول من أسباب تدريجيّة تتدرّج فيها النفس من تنبّه وشك ثمّ ترجح أحد طرفَي النقيض، ثمّ انعدام الإحتمالات المخالفة شيئاً فشيئاً حتى

---

١. *الكافي* (٤): ٦٣، الحديث: ٧.

٢. تفسير *العيّاشي* ١: ٤٣، الحديث: ٣٩، الحديث: ٤١.

٣. جاء في تفسير *العياشي* ١: ٤٣، الحديث: ٤١ هنا زيادة: وفي تفسير *الفرات*: عن أبي صالح عن إبن عباس ـ رضي الله عنه ـ في قوله تعالى: ﴿وَٱسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَٱلصَّلَاةِ﴾.

٤. تفسير *الفرات*: ٥٩، الحديث: ٢١؛ *المناقب* ٢: ٢٠، عن إبن عباس وأبي جعفر ـ عليه السلام ـ

يتمّ العلم الجازم، وهذا النوع من العلم إذا تعلّق بأمر هائل يوجب الإضطراب والقلق والخشوع، إنّما تبتدئ الخشوع من حين شروع الإذعان في الترجّح قبل تمام العلم، ففي وصفهم بالظنّ إيماء إلى ذلك.

وفي *تفسير العيّاشي* عن عليّ ـ عليه السلام ـ في الآية، يقول: «يوقنون أنّهم مبعوثون، والظنّ منهم يقين».[1]

أقول: ورواه الصدوق ـ أيضاً ـ عنه عليه السلام،[2] ومعناه ما مرّ، فالآية قريبة المضمون من قوله تعالى: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحاً﴾،[3] هذا لو كان المراد من لقائه سبحانه البعث، ولو كان المراد ما سيأتي تصويره في سورة الأعراف ـ من معنى آخر لهذه اللفظة هو المراد بالحقيقة من غير لزوم تجسّم وحدوث ـ فلا محذور أصلاً.

وروى ابن شهر آشوب عن الباقر ـ عليه السلام ـ عن ابن عبّاس: «إنّ الآية نازلة في عليّ ـ عليه السلام ـ وعثمان بن مظعون وعمّار بن ياسر وأصحاب لهم».[4]

*

١. تفسير *العياشي* ١: ٤٤، الحديث: ٤٢.
٢. *التوحيد*: ٢٦٧، الحديث: ٥.
٣. الكهف (١٨): ١١٠.
٤. *المناقب* ٢: ٩.

[يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ ٱذْكُرُوا نِعْمَتِيَ ٱلَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى ٱلْعَالَمِينَ ﴿٤٧﴾ وَٱتَّقُوا يَوْماً لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئاً وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا هُمْ يُنْصَرُونَ ﴿٤٨﴾ وَإِذْ نَجَّيْنَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ ٱلْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَلِكُمْ بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿٤٩﴾ وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ ٱلْبَحْرَ فَأَنْجَيْنَاكُمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ ﴿٥٠﴾ وَإِذْ وَاعَدْنَا مُوسَىٰ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ثُمَّ ٱتَّخَذْتُمُ ٱلْعِجْلَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ ﴿٥١﴾ ثُمَّ عَفَوْنَا عَنْكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٥٢﴾ وَإِذْ آتَيْنَا مُوسَىٰ ٱلْكِتَابَ وَٱلْفُرْقَانَ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿٥٣﴾]

قوله سبحانه: ﴿يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾

روى العيّاشي في حديث عن النبيّ ـ صلّى الله عليه وآله وسلّم ـ قال: «وأنا عبد الله اسمي إسرائيل، فما أمره فقد أمرني، وما عناه فقد عناني...»[1] الحديث.

---

١. تفسير *العياشي* ١: ٤٤، الحديث: ٤٥.

أقول: وهو المصحّح لما روي «أنّ بني إسرائيل آل محمّد»،[١] ولو صحّ الحديث فهو من الجري.

قوله سبحانه: ﴿وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ ...﴾

المراد به يوم الموت دون القيامة، وقد ورد به بعض الروايات أيضاً.[٢]

وروى الصدوق عن النبيّ ـ صلّى الله عليه وآله وسلّم ـ في حديث: قيل: يا رسول الله، ما العدل؟ قال: «الفداء»، قيل: يا رسول الله، ما الصَّرف؟ قال: «التوبة».[٣]

قوله سبحانه: ﴿وَإِذْ وَاعَدْنَا مُوسَىٰ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً﴾

قصّ تعالى القصّة في سورة الأعراف بقوله: ﴿وَوَاعَدْنَا مُوسَىٰ ثَلَاثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَاهَا بِعَشْرٍ فَتَمَّ مِيقَاتُ رَبِّهِ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً﴾،[٤] فعدّ المواعدة هاهنا أربعين: إمّا للتغليب، أو لأنّه كانت العشرة الآخِرة بمواعدة أُخرى، فالأربعون مجموع المواعدتين.

وقد روى العيّاشي عن أبي جعفر ـ عليه السلام ـ قال: «كان في العلم والتقدير ثلاثين ليلة، ثمّ بدا لله فزاد عشراً، فتمّ ميقات ربّه ـ الأوّل والآخر ـ أربعين ليلة».[٥]

---

١. راجع: تفسير *العياشي* ١: ٤٤، الحديث: ٤٣ و ٤٤؛ بحار *الأنوار* ٢٤: ٣٩٧؛ تفسير *الإمام* ـ عليه السلام ـ: ٢٤٠ ـ ٢٤١، الحديث: ١١٨.

٢. راجع: تفسير *الإمام* ـ عليه السلام ـ: ٢٤١، الحديث: ١١٩؛ *تأويل الآيات*: ٦٠؛ بحار *الأنوار* ٨: ٤٤، الحديث: ٤٥.

٣. *معاني الأخبار*: ٢٦٥، الحديث: ٢.

٤. الأعراف (٧): ١٤٢.

٥. تفسير *العياشي* ١: ٤٤، الحديث: ٤٦.

[وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ يَاقَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنْفُسَكُمْ بِاتِّخَاذِكُمُ ٱلْعِجْلَ فَتُوبُوا إِلَىٰ بَارِئِكُمْ فَاقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ عِنْدَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥٤﴾ وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَىٰ لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَىٰ ٱللهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ ٱلصَّاعِقَةُ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ ﴿٥٥﴾ ثُمَّ بَعَثْنَاكُمْ مِنْ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٥٦﴾ وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْغَمَامَ وَأَنْزَلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٥٧﴾]

قوله سبحانه: ﴿فَتُوبُوا إِلَىٰ بَارِئِكُمْ فَاقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ ...﴾

في *تفسير القمّي*: قال عليه السلام: «إنّ موسى لمّا خرج إلى الميقات، ورجع إلى قومه وقد عبدوا العجل، قال لهم موسى ـ عليه السلام ـ: ﴿يَا قَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنْفُسَكُمْ بِاتِّخَاذِكُمُ ٱلْعِجْلَ فَتُوبُوا إِلَىٰ بَارِئِكُمْ فَاقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ عِنْدَ بَارِئِكُمْ﴾ فقالوا: كيف نقتل أنفسنا؟ فقال لهم موسى: اغدوا كلّ واحد منكم إلى بيت المقدس ومعه سكّين أو حديدة أو سيف، فإذا صعدتُ أنا منبر بني إسرائيل،

فكونوا أنتم ملتثمين[١] لا يعرف أحد صاحبه، فاقتلوا بعضكم بعضاً، فاجتمعوا سبعين ألف رجل ممّن كان[٢] عبدوا العجل إلى بيت المقدس، فلمّا صلّى بهم موسى وصعد المنبر، أقبل بعضهم يقتل بعضاً؛ حتّى نزل جبرئيل فقال: قل لهم يا موسى: ارفعوا القتل، فقد تاب الله عليكم، فقتل منهم عشرة آلاف، وأنزل الله: ﴿ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ عِنْدَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾».[٣]

أقول: والرواية ـ كما ترى ـ تشير إلى كون قوله: ﴿ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ عِنْدَ بَارِئِكُمْ﴾ مقولاً لموسى ومقولاً له سبحانه، فتكون إمضاءاً لكلمةٍ قالها موسى وكشفاً عن كونها تامّةً، على خلاف ما يلوح من الظاهر من نقصها؛ فإنّ الظاهر يعطي أنّ موسى ـ عليه السلام ـ جعل قتلهم جميعاً خيراً عند بارئهم، وقد قتل منهم البعض دون الجميع، فجعل سبحانه ما وقع من القتل هو الخير الذي ذكره موسى، فمساقه مساق قوله سبحانه في قصّة رؤيا إبراهيم وذبح إسماعيل: ﴿وَنَادَيْنَاهُ أَنْ يَاإِبْرَاهِيمُ * قَدْ صَدَّقْتَ ٱلرُّؤْيَا﴾.[٤]

ثمّ إنّ «الباريء» من الأسماء الحُسنى، كما قال الله تعالى: ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلْخَالِقُ ٱلْبَارِئُ ٱلْمُصَوِّرُ﴾،[٥] وقع في ثلاثة مواضع من كلامه، اثنان منها في هذه الآية، ولعلّه خصّ بالذكر من بين الأسماء، لملاءمة معناه المقام، فهو قريب المعنى من الخالق والموجد، من برأ براءاً؛ لأنّه يفصل الخلق عن العدم، أو الإنسان من الأرض:

---

١. في المصدر: «متلثمين»

٢. في المصدر: «كانوا»

٣. تفسير *القمّي* ١: ٤٦.

٤. الحشر (٥٩): ٢٤.

٥. الحشر (٥٩): ٢٤.

فكأنّه ـ عليه السلام ـ يقول: هذه التوبة وقتلكم أنفسكم وإن كان شاقّاً أشدّ الأوامر، فإنّ الذي أمركم بهذا الفناء والزوال هو الذي برأكم، فالذي أحبّ وجودكم ـ وهو خير لكم ـ يحبّ الآن حلول القتل عليكم، فهو خير لكم، وكيف لا يحبّ خيركم وقد برأكم؟!

فاختيار لفظ «البارئ» في قوله: ﴿عِنْدَ بارِئِكُمْ﴾ لهذه العلّة، وفي قوله: ﴿فَتُوبُوا إِلَىٰ بَارِئِكُمْ﴾ لاتّحاد الأمر بالتوبة مع الأمر بالقتل، والإتيان بلفظ «كم» في المواضع الثلاث: ﴿إِلَىٰ بَارِئِكُمْ﴾ و ﴿خَيْرٌ لَكُمْ﴾ و ﴿عِنْدَ بَارِئِكُمْ﴾ للإشعار بالاختصاص لإثارة المحبّة، فافهم.

قوله سبحانه: ﴿وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْغَمَامَ ...﴾

في *تفسير القمّي*: «أنّ بني إسرائيل لمّا عبر موسى بهم البحر نزلوا في مفازة، فقالوا: يا موسى أهلكتنا وقتلتنا وأخرجتنا من العمران إلى مفازة لا ظلّ ولا شجر ولا ماء، وكانت تجيء بالنهار غمامة تظلّهم من الشمس، وينزل عليهم بالليل المنّ، فيقع على النبات والشجر والحجر فيأكلونه، وبالعشيّ يأتيهم طائر مشويّ يقع على موائدهم، فإذا أكلوا وشربوا طار ومرّ، وكان مع موسى حجر يضعه وسط العسكر، ثمّ يضربه بعصاه، فينفجر منه اثنتا عشرة عيناً، كما حكى الله، فيذهب إلى كلّ سبط في رحله، وكانوا اثني عشر سبطاً».[١]

قوله سبحانه: ﴿وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾

في *الكافي* عن أبي الحسن الماضي ـ عليه السلام ـ قال: «إنّ الله أعزّ وأمنع من

---

١. *تفسير القمّي* ١: ٤٨.

أن يُظلم أو يَنسب نفسه إلى الظلم، ولكنّه خلطنا بنفسه؛ فجعل ظلمنا ظلمه، وولايتنا ولايته، ثمّ أنزل الله بذلك قرآناً على نبيّه، فقال: ﴿وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِن كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾، قلت: هذا تنزيل؟ قال: «نعم».[١]

أقول: وروى قريباً منه أيضاً عن الباقر ـ عليه السلام ـ.[٢]

قوله عليه السلام: «أمنع من أن يظلم» بالبناء للمجهول، تفسير لقوله تعالى: ﴿وَمَا ظَلَمُونَا﴾ .

وقوله: «أو يَنسب نفسه إلى الظلم» بالبناء للفاعل.

وقوله: «ولكنّه خلطنا بنفسه ...» إلى آخره، أي: خلطنا معاشر الأنبياء والأوصياء والأئمّة بنفسه.

وقوله: «قلت: هذا تنزيل؟ قال: نعم» وجهه أنّ النفي ـ في هذه الموارد وأمثالها ـ إنّما يصحّ فيما يصحّ فيه الإثبات أو يتوهّم، فلا يقال للجدار: «إنّه لا يبصر ـ أو ـ لا يظلم» إلّا لنكتة، وهو سبحانه أجلّ من أن يسلِّم في كلامه توهّم الظلم عليه أو تجويزه، فالنكتة في النفي هو الخلط المذكور؛ لأنّ العظماء يتكلّمون عن خدمهم وأعوانهم.

*

١. الكافي ١: ٤٣٥، الحديث: ٩١.

٢. الكافي ١: ١٤٦، الحديث: ١١.

[وَإِذْ قُلْنَا ٱدْخُلُوا هَذِهِ ٱلْقَرْيَةَ فَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَداً وَٱدْخُلُوا ٱلْبَابَ سُجَّداً وَقُولُوا حِطَّةٌ نَغْفِرْ لَكُمْ خَطَايَاكُمْ وَسَنَزِيدُ ٱلْمُحْسِنِينَ (٥٨) فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلاً غَيْرَ ٱلَّذِى قِيلَ لَهُمْ فَأَنْزَلْنَا عَلَىٰ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا رِجْزاً مِنَ ٱلسَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ (٥٩) وَإِذِ ٱسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ فَقُلْنَا ٱضْرِبْ بِعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ فَانْفَجَرَتْ مِنْهُ ٱثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْناً قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَشْرَبَهُمْ كُلُوا وَٱشْرَبُوا مِنْ رِزْقِ ٱللهِ وَلَا تَعْثَوْا فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ (٦٠) وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَىٰ لَنْ نَصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَاحِدٍ فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنْبِتُ ٱلْأَرْضُ مِنْ بَقْلِهَا وَقِثَّائِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ ٱلَّذِى هُوَ أَدْنَىٰ بِالَّذِى هُوَ خَيْرٌ ٱهْبِطُوا مِصْراً فَإِنَّ لَكُمْ مَا سَأَلْتُمْ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ وَٱلْمَسْكَنَةُ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِنَ ٱللهِ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ ٱللهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّينَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ (٦١)]

قوله سبحانه: ﴿وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّينَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ...﴾

في *تفسير العيّاشي* عن الصادق ـ عليه السلام ـ: «إنّه قرأ[1] هذه الآيـة ﴿ذَٰلِكَ

---

١. في المصدر: «تلا»

بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ الْحَقِّ ذٰلِكَ بِمَا عَصَوا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ﴾، فقال: والله ما ضربوهم بأيديهم ولا قتلوهم بأسيافهم، ولكن سمعوا أحاديثهم فأذاعوها، فأُخذوا عليها فقتلوا، فصار قتلاً واعتداءاً ومصيبةً.(١)

أقول: وفي *الكافي* عنه عليه السلام مثله.

وإنّما استفاد عليه السلام هذا التفسير من قوله سبحانه: **﴿ذٰلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ﴾** فإنّ القتل ـ وخاصّة قتل الأنبياء ـ والكفر بآيات الله لا يعلَّل بالعصيان، بل الأمر بالعكس؛ على ما يوجبه الشدّة والأهمّية.

*

---

١. تفسير *العياشي* ١: ٤٥، الحديث: ٥١.

[إِنَّ ٱلَّذِينَ آمَنُوا وَٱلَّذِينَ هَادُوا وَٱلنَّصَارَىٰ وَٱلصَّابِئِينَ مَنْ آمَنَ بِاللهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحاً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (٦٢) وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ ٱلطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَٱذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (٦٣) ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَلَوْلَا فَضْلُ ٱللهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَكُنْتُمْ مِنَ ٱلْخَاسِرِينَ (٦٤) وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلَّذِينَ ٱعْتَدَوْا مِنْكُمْ فِى ٱلسَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ (٦٥) فَجَعَلْنَاهَا نَكَالاً لِمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا وَمَوْعِظَةً لِلْمُتَّقِينَ (٦٦)]

قوله سبحانه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ آمَنُوا وَٱلَّذِينَ هَادُوا ...﴾

تكرار الإيمان ثانياً ـ وهو الاتّصاف بحقيقته كما يفيده السياق ـ يعطي أنّ المراد بالذين آمنوا في صدر الآية، المتّصفون به ظاهراً المعدودون من المؤمنين وفي زمرتهم، فيكون محصّل المعنى: أنّ الأسماء والتسمية بها ـ مثل المؤمنين واليهود والنصارى والصابئين ـ لا يوجبان عند الله سبحانه كرامةً ولا أجراً ولا أمناً، وإنّما ملاك الأمر حقيقة الإيمان، ولذلك لم يقل: «من آمن منهم» بإرجاع الضمير

إلى الموصول اللازم في الصلة، لئلّا يكون تقرير الفائدة في الاسم على ما يعطيه النظم.

وفي *المعاني* عن ابن فضّال، قال: قلت للرضا ـ عليه السلام ـ: لِمَ سمي النصارى نصارى؟ قال: «لأنّهم كانوا من قرية اسمها ناصرة من بلاد الشام، نزلتها مريم وعيسى بعد رجوعهما من مصر».[١]

وفي *تفسير القمّي* قال: قال: «الصابئون، قوم لا مجوس ولا يهود ولا نصارى ولا مسلمون، وهم قوم يعبدون النجوم والكواكب».[٢]

قوله سبحانه: ﴿وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ ٱلطُّورَ﴾

في *المعاني* عن ابن سنان[٣] قال عليه السلام: «إنّما سمّي الجبل الذي كان عليه موسى طور سيناء؛ لأنّه جبل كان عليه شجر زيتون،[٤] وكلّ جبل يكون عليه ما ينتفع به من النبات والأشجار سمّي طور سيناء وطور سينين، وما لم يكن عليه ما ينتفع به من النبات والأشجار من الجبال سمّي طوراً ولا يقال عليه: طور سيناء وطور سينين».[٥]

---

١. لم توجد في *معاني الأخبار*، وبل في *عيون أخبار الرضا* ـ عليه السلام ـ ٢: ٧٩، الحديث: ١٠.

٢. *تفسير القمّي* ١: ٤٧.

٣. في *علل الشرائع*: «عن ابن عباس»

٤. في *علل الشرائع*: «شجرة الزيتون»

٥. لم توجد بهذه العبارات في *معاني الأخبار*، ولكن رواه في *علل الشرائع* ١: ٦٧ ـ ٦٨، الحديث: ١؛ وفي *معاني الأخبار* في حديث استند سنده إلى *علل الشرائع*: «... ومعنى طور سينا أنّه كان عليه شجرة الزيتون وكل جبل يكون عليه ما ينتفع به من النبات والأشجار يسمى طور سينين وما لم يكن عليه ما ينتفع به من النبات والأشجار من الجبال فإنّه يسمى جبل وطور ولا يقال له طور سيناء ولا طور سينين»؛ *معاني الأخبار*: ٤٨ ـ ٤٩، الحديث: ١.

قوله سبحانه: ﴿خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ﴾

في *المحاسن* عن الصادق ـ عليه السلام ـ عن قول الله: ﴿خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ﴾ أقوّة الأبدان أو قوّة القلب؟ قال ـ عليه السلام ـ: «فيهما جميعاً».[١] ورواه العيّاشي أيضاً.[٢]

وعنه ـ عليه السلام ـ قال: «السجود ووضع اليدين على الركبتين في الصلاة وأنت راكع[٣]».

أقول: وهي استفادة لطيفة، ويستفاد منها اتّساع دائرة الاستفادة منه.

قوله سبحانه: ﴿وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ﴾

في *تفسير العيّاشي* عن الحلبي قال: «قال: ﴿وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ﴾ واذكروا ما في تركه من العقوبة[٤]».

أقول: وقد استفيد ذلك من المقام، وتأتي القصّة في سورة الأعراف ـ إن شاء الله ـ

*

---

١. *المحاسن* ١: ٢٦١، الحديث: ٣١٩.

٢. تفسير *العيّاشي* ١: ٤٥، الحديث: ٥٢؛ ٢: ٣٧، الحديث: ١٠١.

٣. تفسير *العياشي* ١: ٤٥، الحديث: ٥٤.

٤. تفسير *العياشي* ١: ٤٥، الحديث: ٥٣.

[وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً قَالُوا أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا قَالَ أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْجَاهِلِينَ ﴿٦٧﴾ قَالُوا ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ عَوَانٌ بَيْنَ ذَٰلِكَ فَٱفْعَلُوا مَا تُؤْمَرُونَ ﴿٦٨﴾ قَالُوا ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا لَوْنُهَا قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَاءُ فَاقِعٌ لَوْنُهَا تَسُرُّ ٱلنَّاظِرِينَ ﴿٦٩﴾ قَالُوا ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ إِنَّ ٱلْبَقَرَ تَشَابَهَ عَلَيْنَا وَإِنَّا إِنْ شَاءَ ٱللَّهُ لَمُهْتَدُونَ ﴿٧٠﴾ قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا ذَلُولٌ تُثِيرُ ٱلْأَرْضَ وَلَا تَسْقِي ٱلْحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ لَا شِيَةَ فِيهَا قَالُوا ٱلْآنَ جِئْتَ بِالْحَقِّ فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ ﴿٧١﴾ وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْساً فَادَّارَأْتُمْ فِيهَا وَٱللَّهُ مُخْرِجٌ مَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٧٢﴾ فَقُلْنَا ٱضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا كَذَٰلِكَ يُحْيِي ٱللَّهُ ٱلْمَوْتَىٰ وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٧٣﴾ ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً وَإِنَّ مِنَ ٱلْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ ٱلْأَنْهَارُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ ٱلْمَاءُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ وَمَا ٱللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٧٤﴾]

قوله سبحانه: ﴿يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً ...﴾

في *تفسير القمّي* عن ابن فضّال قال: سمعت أبا الحسن ـ عليه السلام ـ يقول: «إنّ الله أمر بني إسرائيل أن يذبحوا[١] بقرة، وإنّما كانوا يحتاجون إلى ذنبها، فشدّد الله عليهم».[٢]

وفي *المعاني* و*تفسير العيّاشي* عن البزنطي قال: سمعت الرضا ـ عليه السلام ـ يقول: «إنّ رجلاً من بني إسرائيل قتل قرابة له، ثمّ أخذه وطرحه على طريق أفضل سبطٍ من أسباط بني إسرائيل، ثمّ جاء يطلب بدمه، فقالوا لموسى: إنّ سبط آل فلان قتلوا فلاناً، فأخبرنا من قتله، قال: إيتوني ببقرة **﴿قَالُوا أَتَتَّخِذُنَا هُزُواً قَالَ أَعُوذُ بِاللهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْجَاهِلِينَ﴾** ولو أنّهم عمدوا إلى بقرة أجزأتهم، ولكن شدّدوا فشدّد الله عليهم **﴿قَالُوا ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ﴾** يعني لا صغيرة ولا كبيرة **﴿عَوَانٌ بَيْنَ ذَٰلِكَ﴾** ولو أنّهم عمدوا إلى بقرة أجزأتهم، ولكن شدّدوا فشدّد الله عليهم **﴿قَالُوا ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا لَوْنُهَا قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَاءُ فَاقِعٌ لَوْنُهَا تَسُرُّ ٱلنَّاظِرِينَ﴾** ولو أنّهم عمدوا إلى بقرة أجزأتهم، ولكن شدّدوا فشدّد الله عليهم **﴿قَالُوا ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ إِنَّ ٱلْبَقَرَ تَشَابَهَ عَلَيْنَا وَإِنَّا إِنْ شَاءَ ٱللهُ لَمُهْتَدُونَ * قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا ذَلُولٌ تُثِيرُ ٱلْأَرْضَ وَلَا تَسْقِي ٱلْحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ لَا شِيَةَ فِيهَا قَالُوا ٱلْآنَ جِئْتَ بِٱلْحَقِّ﴾** فطلبوها فوجدوها عند فتىً من بني إسرائيل، فقال: لا أبيعها

---

١. في *تفسير العياشي*: «تذبحوا»

٢. لم توجد في *تفسير القمّي*، ولكن روي في *تفسير العيّاشي* ١: ٤٧، الحديث: ٨؛ عن الحسن بن علي بن محبوب، عن علي بن يقطين؛ *بحار الأنوار* ١٣: ٢٦٦، الحديث: ٦.

إلّا بملء مسك[١] ذهباً، فجاءوا إلى موسى وقالوا له ذلك، قال: اشتروها، فاشتروها وجاءوا بها، فأمر بذبحها، ثمّ أمر أن يضربوا[٢] الميّت بذنبها، فلمّا فعلوا ذلك حَيِي المقتول وقال: يا رسول الله! إنّ ابن عمّي قتلني، دون من ادّعي[٣] عليه قتلي، فعلموا بذلك قاتله، فقال لرسول الله موسى بعض أصحابه[٤]: إنّ هذه البقرة لها نبأ؟ فقال: وما هو؟ قال: إنّ فتىً من بني إسرائيل كان بارّاً بأبيه، وإنّه اشترى بيعاً فجاء إلى أبيه و الأقاليد تحت رأسه، فكره أن يوقظه، فترك ذلك البيع، فاستيقظ أبوه فأخبره، فقال: أحسنت، هذه البقرة فهي لك عوضاً ممّا فاتك، فقال له رسول الله موسى: انظر إلى البرّ ما بلغ بأهله».[٥]

أقول: وبالرواية يظهر وجه التعرّض لقصّة البقرة بالإطناب، فهو تقريع عليهم بالتشديد على تشديدهم.

قوله سبحانه: ﴿وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْساً﴾

فصل القصّة بـ«إذ» ـ المشعر بالتعدّد ـ لغرض الاهتمام بموارد الأهمّية منها، على ما يوجبه قاعدة الالتقاط والانتخاب، كمجرى قوله: ﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَىٰ آدَمَ مِنْ قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْماً * وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ﴾،[٦] وهو شائع.

---

١. في المصدر: «بمسكها»

٢. في عيون *أخبار الرضا* ـ عليه السلام ـ: «يضرب»

٣. في عيون *أخبار الرضا* ـ عليه السلام ـ: «يدّعى»

٤. في عيون *أخبار الرضا* ـ عليه السلام ـ: «فقال رسول الله موسى لبعض أصحابه»، وهو الصحيح.

٥. لم توجد في *معاني الأخبار*، ولكن رواها في عيون *أخبار الرضا* ـ عليه السلام ـ ٢: ١٣ ـ ١٤، الحديث: ٣١؛ وفي *تفسير العياشي* ١: ٤٦، الحديث: ٥٧، مع اختصار.

٦. طه (٢٠): ١١٥ ـ ١١٦.

[أَفَتَطْمَعُونَ أَنْ يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلامَ ٱللهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ (٧٥) وَإِذَا لَقُوا ٱلَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلا بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ قَالُوا أَتُحَدِّثُونَهُمْ بِمَا فَتَحَ ٱللهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَاجُّوكُمْ بِهِ عِنْدَ رَبِّكُمْ أَفَلا تَعْقِلُونَ (٧٦) أَوَلَا يَعْلَمُونَ أَنَّ ٱللهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ (٧٧) وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ ٱلْكِتَابَ إِلَّا أَمَانِيَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ (٧٨) فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُبُونَ ٱلْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِنْدِ ٱللهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَناً قَلِيلاً فَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا يَكْسِبُونَ (٧٩) وَقَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّا أَيَّاماً مَعْدُودَةً قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِنْدَ ٱللهِ عَهْداً فَلَنْ يُخْلِفَ ٱللهُ عَهْدَهُ أَمْ تَقُولُونَ عَلَىٰ ٱللهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ (٨٠) بَلَىٰ مَنْ كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٨١) وَٱلَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا ٱلصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ أَصْحَابُ ٱلْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٨٢)]

قوله سبحانه: ﴿قَالُوا أَتُحَدِّثُونَهُمْ بِمَا فَتَحَ ...﴾

في المجمع عن الباقر ـ عليه السلام ـ قال: كان قوم من اليهود ـ ليسوا من

المعاندين المتواطئين ـ إذا لقوا المسلمين حدّثوهم بما في التوراة من صفة محمّد ـ صلّى الله عليه وآله وسلّم ـ فنهى[١] كبراؤهم عن ذلك، وقالوا: أ تخبرونهم[٢] بما في التوراة من صفة محمّد ـ صلّى الله عليه وآله وسلّم ـ فيحاجّوكم به عند ربّكم؟! فنزلت الآية».[٣]

قوله سبحانه: ﴿بَلَىٰ مَنْ كَسَبَ سَيِّئَةً ...﴾

في *الكافي* عن أحدهما ـ عليهما السلام ـ في الآية قال: «إذا جحدوا[٤] ولاية أميرالمؤمنين ﴿فَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾».[٥]

أقول: وروى الشيخ في *أماليه* عن النبيّ ـ صلّى الله عليه وآله وسلّم ـ قريباً منه[٦]» وهو من الجري.

ثمّ إنّ الآيتين قريبتا المعنى من قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَىٰ وَالصَّابِئِينَ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ﴾[٧] وإنّما الفرق: أنّ الآية في مقام بيان أنّ الملاك في السعادة هو الإيمان بالحقيقة دون التسمّي بالأسامي، والآيتان في أنّ الملاك هو الإيمان دون الدعاوي.

وقد قابل سبحانه بين الإيمان والعمل الصالح وبين كسب السيّئة وإحاطة

---

١. في المصدر: «فنهاهم»
٢. في المصدر: «لا تخبروهم»
٣. مجمع *البيان* ١: ٢٧٢.
٤. في المصدر: «جهد»
٥. *الكافي* ١: ٤٣٩، الحديث: ٨٢.
٦. *الأمالي* للطوسي: ٣٦٤، الحديث: ٧٦٣.
٧. البقرة (٢): ٦٢.

الخطيئة؛ لأنّ المقام مقام عدّ سيّئات اليهود عليهم.

ثمّ إنّه فرع العمل الصالح على الإيمان وعكس في الخطيئة والسيّئة؛ لأنّ الخطيئة هي الحاصلة للنفس من اكتساب السيّئة وأشار بذلك إلى علّة الخلود؛ وهي إحاطة الخطيئة بالإنسان، فلا يجد مخلصاً يخلص منه ومنفذاً ينفذ فيه، وهذا من الشواهد لما قدّمناه في أوّل السورة أنّ للإنسان حياة تالية لحياته الدنيويّة وفي باطنها.

*

[وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِى إِسْرَائِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً وَذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَامَىٰ وَٱلْمَسَاكِينِ وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْناً وَأَقِيمُوا ٱلصَّلَاةَ وَآتُوا ٱلزَّكَاةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلاً مِنْكُمْ وَأَنْتُمْ مُعْرِضُونَ ﴿٨٣﴾ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ وَلَا تُخْرِجُونَ أَنْفُسَكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنْتُمْ تَشْهَدُونَ ﴿٨٤﴾]

قوله سبحانه: ﴿وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْناً﴾

في *الكافي* عن أبي جعفر ـ عليه السلام ـ في الآية قال: «قولوا للناس أحسن ما تحبّون أن يقال فيكم»؛[1]

وعن الصادق ـ عليه السلام ـ قال: «قولوا للناس حسناً، ولا تقولوا إلّا خيراً؛ حتّى تعلموا ما هو».[2]

وفي *المعاني* عن الباقر ـ عليه السلام ـ قال: «قولوا للناس أحسن ما تحبّون أن يقال لكم؛ فإنّ الله ـ عزّ وجلّ ـ يبغض السباب اللعّان، السبّاب: الطعّان على

---

١ و ٢. *الكافي* ٢: ١٦٥، الحديث: ١٠.

المؤمنين، الفاحش المفحش، السائل، ويحبّ الحَيِيّ الحليم العفيف المتعفّف».[١]

أقول: وروى مثل الحديث الأوّل في *الكافي* بطريق آخر عن الصادق ـ عليه السلام ـ[٢] والعيّاشي عنه،[٣] ومثل الثاني في *الكافي* عنه،[٤] ومثل الثالث العيّاشي عن الباقر ـ عليه السلام ـ.[٥]

وقد استند عليه السلام في استفادة هذه المعاني إلى إطلاق الحُسن عند القائل، وإطلاقه من حيث المورد.

وفي *تفسير العيّاشي* عن الصادق ـ عليه السلام ـ قال: «إنّ الله بعث محمّداً ـ صلّى الله عليه وآله وسلّم ـ بخمسة أسياف: فسيف على أهل الذمّة، قال الله: ﴿وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْناً﴾ نزلت في أهل الذمّة، ثمّ نسختها أُخرى، قوله: ﴿قَاتِلُوا ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ ...»[٦] الحديث.[٧]

أقول: وهو منه عليه السلام أخذ بإطلاق آخر للقول، وهو شموله للكلام ولمطلق التعرّض.

*

١. لم توجد في معاني *الأخبار*، ولكن رواها في *الأمالي* للصدوق: ٢٥٤، الحديث: ٤؛ *تحف العقول*: ٣٠٠؛ *روضة الواعظين* ٢: ٣٧٠؛ *مشكاة الأنوار*: ١٨٩.

٢. *الكافي* ٢: ١٦٤، الحديث: ٩.

٣. تفسير *العيّاشي* ١: ٤٨، الحديث: ٦٣.

٤. *الكافي* ٢: ١٦٥، الحديث: ١٠.

٥. تفسير *العيّاشي* ١: ٤٨، الحديث: ٦٣.

٦. التوبة (٩): ٢٩.

٧. *تفسير العياشي* ١: ٤٨، الحديث: ٦٦.

[ثُمَّ أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ تَقْتُلُونَ أَنْفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقاً مِنْكُمْ مِنْ دِيَارِهِمْ تَظَاهَرُونَ عَلَيْهِمْ بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَإِنْ يَأْتُوكُمْ أُسَارَىٰ تُفَادُوهُمْ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ فَمَا جَزَاءُ مَنْ يَفْعَلُ ذَٰلِكَ مِنْكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰ أَشَدِّ الْعَذَابِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ (٨٥) أُولَٰئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنْصَرُونَ (٨٦) وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَقَفَّيْنَا مِنْ بَعْدِهِ بِالرُّسُلِ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَىٰ أَنْفُسُكُمُ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقاً كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقاً تَقْتُلُونَ (٨٧) وَقَالُوا قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ لَعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلاً مَا يُؤْمِنُونَ (٨٨)]

قوله سبحانه: ﴿وَتُخْرِجُونَ فَرِيقاً مِنْكُمْ﴾

في تفسير *القمّي*: إنّها في عثمان وأبي ذرّ إذ أخرجه إلى الرَّبَذة.[١]

---

١. تفسير *القمّي* ١: ٥١.

أقول: وهو من الجري.

وكذا ما ورد في قوله: ﴿أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَىٰ أَنْفُسُكُم﴾ إنّها ما جاء به رسول الله ـ صلّى الله عليه وآله وسلّم ـ في أهل بيته،[١] فهذا وأمثاله من الأخبار كلّها من باب الجري.

---

١. *الكافي* ١: ٤١٨، الحديث: ٣١؛ *الصراط المستقيم* ١: ٢٨٩؛ *تفسير العيّاشي* ١: ٤٩، الحديث: ٦٨؛ *المناقب* ٣: ٢٠٦.

[وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِنْ عِنْدِ ٱللهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ ٱللهِ عَلَى ٱلْكَافِرِينَ (٨٩) بِئْسَمَا ٱشْتَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ أَنْ يَكْفُرُوا بِمَا أَنْزَلَ ٱللهُ بَغْياً أَنْ يُنَزِّلَ ٱللهُ مِنْ فَضْلِهِ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ فَبَاءُوا بِغَضَبٍ عَلَىٰ غَضَبٍ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُهِينٌ (٩٠) وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا بِمَا أَنْزَلَ ٱللهُ قَالُوا نُؤْمِنُ بِمَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَاءَهُ وَهُوَ ٱلْحَقُّ مُصَدِّقاً لِمَا مَعَهُمْ قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنْبِيَاءَ ٱللهِ مِنْ قَبْلُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (٩١) وَلَقَدْ جَاءَكُمْ مُوسَىٰ بِٱلْبَيِّنَاتِ ثُمَّ ٱتَّخَذْتُمُ ٱلْعِجْلَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ (٩٢)]

قوله سبحانه: ﴿وَكَانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ ...﴾

في *الكافي* و*تفسير العيّاشي* عن الصادق ـ عليه السلام ـ في الآية: «كانت اليهود تجد في كتبها أنّ مهاجرة[1] محمّد ما بين عير وأُحد، فخرجوا يطلبون الموضع، فمرّوا بجبلٍ يسمّى حداداً، فقالوا: حداد وأُحد سواء، فتفرّقوا عنده، فنزل بعضهم

١. في *الكافي*: «مهاجر»

بتيماء وبعضهم بفدك وبعضهم بخيبر، فاشتاق الذين بتيماء إلى بعض إخوانهم، فمرّ بهم أعرابّي من قيس، فتكاروا منه، وقال لهم: أمُرّ بكم ما بين عير وأُحد، فقالوا له: إذا مررت بهما ممّا[١] توسّط بهم[٢] أرض المدينة، قال لهم: وذلك عير وهذا أُحد، فنزلوا عن ظهر إبله، فقالوا: قد أصبنا بُغيتنا، فلا حاجة لنا في إبلك، فاذهب حيث شئت، فكتبوا إلى إخوانهم الذين بفدك وخيبر: أنّا: قد أصبنا الموضع فهلمّوا إلينا، فكتبوا إليهم: إنّا قد استقرّ[٣] بنا الدار واتّخذنا الأموال وما أقربنا،[٤] فإذا كان ذلك فما أسرعنا إليكم، فاتّخذوا بأرض المدينة الأموال، فلمّا كثرت أموالهم بلغ تُبّع فغزاهم، فتحصّنوا منه فحاصرهم، وكانوا يرقّون لضعفاء أصحاب تُبّع فيلقون إليهم[٥] التمر والشعير، فبلغ ذلك تُبّع، فرقّ لهم وآمنهم، فنزلوا إليه، فقال لهم: إنّي قد استطبت بلادكم، ولا أراني إلّا مقيماً فيكم، فقالوا[٦]: إنّه ليس ذلك، إنّ مهاجر نبيّ[٧] وذلك لأحد حتى يكون، فقال لهم: إنّي مخلّف فيكم مِن أُسرتي مَن إذا كان ذلك يساعده وينصره،[٨] فخلّف فيهم حيَّين: الأوس والخزرج، فلمّا كثروا كانوا يتناولون أموالهم[٩] اليهود، وكانت اليهود تقول: أما لو قد بُعث محمّد ليخرجنّكم من ديارنا وأموالنا، فلمّا بعث الله

١. في *الكافي*: «فآذنّا بهما فلمّا»
٢. كتب المصنف ـ طاب ثراه ـ على: مما توسط بهم (كذا).
٣. في *الكافي*: «استقرّت»
٤. في *الكافي*: + «منكم»
٥. في *الكافي*: + «بالليل»
٦. في *الكافي*: + «له»
٧. في *الكافي*: + «ذاك لك إنّها مهاجر نبيّ وليس»
٨. في *الكافي*: + «ساعده ونصره»
٩. في *الكافي*: «أموال»

عزّو جلّ محمّداً ـ صلّى الله عليه و آله وسلّم ـ آمنت به الأنصار وكفرت به اليهود، وهو قول الله ـ عزّ وجلّ ـ: ﴿وَكَانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ ٱللهِ عَلَى ٱلْكَافِرِينَ﴾.[١]

قوله سبحانه: ﴿بِمَا أَنْزَلَ ٱللهُ بَغْياً أَنْ يُنَزِّلَ ٱللهُ﴾

في *تفسير العيّاشي*: عن الباقر ـ عليه السلام ـ: «إنّ الآية نزلت هكذا: بما أنزل الله في عليّ بغياً».[٢]

أقول: وهذا من المعنى دون النزول، أو هو من الجري على بُعد.

*

١. *الكافي* ٨: ٣٠٨ ـ ٣٠٩، الحديث: ٤٨١؛ تفسير *العياشي* ١: ٤٩ ـ ٥٠، الحديث: ٦٩.

٢. تفسير *العياشي* ١: ٥٠، الحديث: ٧٠.

[وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ ٱلطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ
وَٱسْمَعُوا قَالُوا سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَأُشْرِبُوا فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ قُلْ
بِئْسَمَا يَأْمُرُكُمْ بِهِ إِيمَانُكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿٩٣﴾ قُلْ إِنْ كَانَتْ لَكُمُ ٱلدَّارُ
ٱلْآخِرَةُ عِنْدَ ٱللهِ خَالِصَةً مِنْ دُونِ ٱلنَّاسِ فَتَمَنَّوُا ٱلْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ
صَادِقِينَ ﴿٩٤﴾ وَلَنْ يَتَمَنَّوْهُ أَبَداً بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ وَٱللهُ عَلِيمٌ
بِالظَّالِمِينَ ﴿٩٥﴾ وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ ٱلنَّاسِ عَلَىٰ حَيَاةٍ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا
يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِ مِنَ ٱلْعَذَابِ أَنْ يُعَمَّرَ
وَٱللهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾ قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوّاً لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَىٰ
قَلْبِكَ بِإِذْنِ ٱللهِ مُصَدِّقاً لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدىً وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٩٧﴾ مَنْ
كَانَ عَدُوّاً لِلّٰهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ فَإِنَّ ٱللهَ عَدُوٌّ
لِلْكَافِرِينَ ﴿٩٨﴾ وَلَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ وَمَا يَكْفُرُ بِهَا إِلَّا
ٱلْفَاسِقُونَ ﴿٩٩﴾ أَوَكُلَّمَا عَاهَدُوا عَهْداً نَبَذَهُ فَرِيقٌ مِنْهُمْ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا
يُؤْمِنُونَ ﴿١٠٠﴾ وَلَمَّا جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِنْ عِنْدِ ٱللهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ

مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا ٱلْكِتَابَ كِتَابَ ٱللهِ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٠١﴾]

قوله سبحانه: ﴿وَأُشْرِبُوا فِي قُلُوبِهِمُ ٱلْعِجْلَ ...﴾

معناه: أنّه وقع ونفذ في قلوبهم حبّ العجل، ففيه مجازان، أو أنّ قلوبهم صارت عجلاً بالحبّ؛ بناءاً على ما مرّ في أوّل السورة من تصوّر الباطن.

وفي *تفسير العيّاشي* في قصّة العجل عن الباقر ـ عليه السلام ـ قال: «فعمد موسى فبرّد العجل من أنفه إلى طرف ذنبه، ثمّ أحرقه بالنار، فذرّه في اليمّ، فكان أحدهم ليقع في الماء، وما بهم[1] إليه من حاجة، فيتعرّض لذلك الرماد فيشربه، وهو قول الله ﴿وَأُشْرِبُوا فِي قُلُوبِهِمُ ٱلْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ﴾».[2]

أقول: وهو غير منافٍ لما ذكرنا.

قوله سبحانه: ﴿وَٱللهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾

البصير من أسمائه الحُسنى، ومعناه العالم بالمبصَرات، وأمّا كون العلم بحاسّة البصر المادّية فمن لوازم المصاديق المادّية.

قوله سبحانه: ﴿فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَىٰ قَلْبِكَ﴾

سيجيئ معناه في سورة الشعراء.

قوله سبحانه: ﴿وَمَا يَكْفُرُ بِهَا إِلَّا ٱلْفَاسِقُونَ﴾

ظاهر السياق كون اللام للعهد الذكري، فيكون إشارةً وتذكيراً لما مرّ في أوائل

---

١. في المصدر: «به»

٢. *تفسير العياشي* ١: ٥١، الحديث: ٧٣.

السورة: ﴿وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا ٱلْفَاسِقِينَ * ٱلَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ ٱللهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ﴾[١] الآية، إذ هذه الخطابات والعتابات ـ كما مرّ ـ تفريعات لما في مفتتح السورة.

*

١. البقرة (٢): ٢٦ ـ ٢٧.

[وَٱتَّبَعُوا مَا تَتْلُوا ٱلشَّيَاطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيمانَ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمانُ وَلٰكِنَّ ٱلشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ ٱلنَّاسَ ٱلسِّحْرَ وَمَا أُنْزِلَ عَلَى ٱلْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولَا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَزَوْجِهِ وَمَا هُمْ بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللهِ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ ٱشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي ٱلْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ (١٠٢) وَلَوْ أَنَّهُمْ آمَنُوا وَٱتَّقَوْا لَمَثُوبَةٌ مِنْ عِنْدِ ٱللهِ خَيْرٌ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ (١٠٣) يَا أَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقُولُوا رَاعِنَا وَقُولُوا ٱنْظُرْنَا وَٱسْمَعُوا وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ (١٠٤) مَا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَابِ وَلَا ٱلْمُشْرِكِينَ أَنْ يُنَزَّلَ عَلَيْكُمْ مِنْ خَيْرٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَٱللهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ وَٱللهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ (١٠٥)]

قوله سبحانه: ﴿وَٱتَّبَعُوا مَا تَتْلُوا ٱلشَّيَاطِينُ﴾

في تفسيرَي *القمّي والعيّاشي* عن الباقر ـ عليه السلام ـ في حديث: «فلمّا هلك

سليمان، وضع إبليس السّحر وكتبه في كتاب، ثمّ طواه وكتب على ظهره: (هذا ما وضع آصف بن برخيا للمَلِك سليمان بن داود من ذخائر كنوز العلم، من أراد كذا وكذا فليعمل كذا وكذا)، ثمّ دفنه تحت سريره، ثمّ استثاره[١] لهم فقرأه، فقال الكافرون: ما كان سليمان يغلبنا إلّا بهذا، وقال المؤمنون: بل هو عبدالله ونبيّه، فقال الله جلّ ذكره: ﴿وَٱتَّبَعُوا مَا تَتْلُوا ٱلشَّيَاطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَانَ ...﴾»[٢][٣] إلى آخر الآيات.

أقول: قوله سبحانه: ﴿تَتْلُوا ٱلشَّيَاطِينُ﴾ يقتضي كتاباً كانوا يتلونه أو يتلون منه، وقوله: ﴿وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَٰكِنَّ ٱلشَّيَاطِينَ كَفَرُوا﴾ أي: ما سَحَر سليمان؛ بقرينة المقام، وهذا ردٌّ يقتضي قولاً بأنّه مَلَك ما مَلَك بالسحر، فالرواية على طبق الآية.

قوله سبحانه: ﴿وَمَا أُنزِلَ عَلَى ٱلْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ ...﴾

و قرئ ﴿عَلَى ٱلْمَلِكَيْنِ﴾ بكسر اللام.

في *العيون* في حديث الرضا ـ عليه السلام ـ مع المأمون: «وأمّا هاروت وماروت فكانا مَلَكين، علّما الناس السِّحر ليحترزوا به[٤] عن سِحر السحَرة ويبطلوا[٥] كيدهم، وما علّما أحداً من ذلك شيئاً إلّا قالا له: ﴿إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ﴾ فكفر قوم باستعمالهم لما أُمروا بالاحتراز منه، وجعلوا يفرّقون بما

١. في *تفسير القمي*: «استثاره» وفي *تفسير العياشي*: «استشاره»
٢. في *تفسير القمّي*: ـ «أي السحر»
٣. *تفسير القمي* ١: ٥٥؛ *تفسير العياشي* ١: ٥٥، الحديث: ٧٤.
٤. في المصدر: ـ «به»
٥. في المصدر: + «به»

يعملونه[١] بين المرء وزوجه، قال الله تعالى: ﴿وَمَا هُمْ بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ يعني بعلمه».[٢]

قوله سبحانه: ﴿لَا تَقُولُوا رَاعِنَا وَقُولُوا ٱنْظُرْنَا﴾

روي: انّ المسلمين كانوا يخاطبون بذلك النبيّ ـ صلّى الله عليه وآله وسلّم ـ، إذا ألقى إليهم كلاماً يقولون: راعنا يا رسول الله! ـ صلّى الله عليه وآله وسلّم ـ يريدون أمهلنا وانظرنا حتّى نفهم ما تقول، وكانت اللفظة تفيد في لغة اليهود معنى الشتم، فاغتنم اليهود ذلك، فكانوا يخاطبون النبي ـ صلّى الله عليه وآله وسلّم ـ بذلك، يظهرون التأدّب معه وهم يريدون الشتم، و معناه عندهم: اسمَع لا أُسمِعت، فنزل: ﴿مِنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَٱسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ وَرَاعِنَا ...﴾.[٣] ونهى الله المؤمنين عن الكلمة، وأن يقولوا ما في معناه وهو انظُرنا، فقال: ﴿لَا تَقُولُوا رَاعِنَا وَقُولُوا ٱنْظُرْنَا﴾.[٤]

قوله: ﴿وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾

---

١. في المصدر: «تعلّمونه»

٢. عيون *أخبار الرضا* ـ عليه السلام ـ ١: ٢٧١، الحديث: ٢.

٣. النساء (٤): ٤٦.

٤. تفسير *الإمام* ـ عليه السلام ـ ٤٧٨، الحديث: ٣ ـ ٥؛ *التبيان* ١: ٣٧٧؛ مجمع *البيان* ١: ٣٣٦؛ تفسير *الصافي* ١: ١٧٨ ـ ١٧٩؛ تفسير *الأصفى* ١: ٥٩؛ *البرهان في تفسير القرآن* ١: ١٣٩، الحديث: ١؛ تفسير *نورالثقلين* ١: ١١٥؛ تفسير *كنز الدقائق* ١: ٣١١ ـ ٣١٢؛ بحار *الأنوار* ٩: ٣٣١، الحديث: ١٨؛ تفسير غريب *القرآن*، لفخرالدين الطريحي: ٣٢؛ جامع *البيان* ١: ٦٥٧ ـ ٦٥٩؛ *أحكام القرآن* للجصاص ١: ٧٠؛ *أسباب نزول الآيات* للواحدي النيسابوري: ٢٠؛ تفسير *القرطبي* ٢: ٥٧؛ تفسير *ابن كثير* ١: ١٥٣؛ *الدرّ المنثور* ١: ١٠٣ ـ ١٠٤؛ تفسير *الثعالبي* ١: ٣٠٣ ـ ٣٠٤.

يريد المتمرّدين من هذا النهي، وهذا أحد الموارد التي أُطلق فيها الكفر على ترك التكاليف الفرعيّة.

قوله سبحانه: ﴿وَٱللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ ...﴾

في *إرشاد الديلمي* عن الرضا، عن أبيه، عن جدّه ـ عليهم السلام ـ قال: «المختصّون[١] بالرحمة: نبيّ الله ووصيّه وعترتهما،[٢] إنّ الله خلق مائة رحمة، فتسع وتسعون رحمة عنده مذخورة[٣] لمحمّد وعليّ وعترتهما، ورحمة واحدة مذخورة لسائر الموجودين».[٤]

أقول: ومساقه بيان الفرد الكامل، ويشهد به آخر الرواية كما لا يخفى، ويمكن أن يفهم منها معنى الواسطة وذي الواسطة.

*

---

١. في المصدرين: «المختص»

٢. في المصدرين: ـ «عترتهما»

٣. في المصدرين: «مبسوطة على»

٤. لم توجد في *إرشاد القلوب* ولكن روى في *تأويل الآيات*: ٨١، عن الحسن بن أبي الحسن الديلمي؛ و في *بحار الأنوار* ٢٤: ٦١، الحديث: ٤٥، عن *كنز جامع الفوائد* و*تأويل الآيات الظاهرة*.

[مَا نَنْسَخ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنْسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا أَوْ مِثْلِهَا أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (١٠٦) أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ (١٠٧) أَمْ تُرِيدُونَ أَنْ تَسْأَلُوا رَسُولَكُمْ كَمَا سُئِلَ مُوسَىٰ مِنْ قَبْلُ وَمَنْ يَتَبَدَّلِ الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ (١٠٨)]

قوله سبحانه: ﴿مَا نَنْسَخ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنْسِهَا ...﴾

هذه آية النَّسْخ، ومن المعلوم أنّ النسخ بالمعنى المعروف عند الفقهاء ـ وهو الإبانة عن انتهاء أمد الحكم ـ اصطلاح متفرّع عليها، مأخوذ منها ومن الأفراد، فمعنى النسخ هو المعروف لغةً وهو الإزالة من نَسَخَت الشمسُ الظلَّ، إذا أزالته وذهبت به، ونسختُ الكتابَ إذا نقلته إلى آخر، كأنّك أذهبته وأبدلت مكانه؛ ولذلك بدّل لفظ النسخ بـ: التبديل في قوله سبحانه: ﴿وَإِذَا بَدَّلْنَا آيَةً مَكَانَ آيَةٍ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مُفْتَرٍ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾.[1]

---

١. النحل (١٦): ١٠١.

وكيف كان، فمن المعلوم أنّ النسخ لا يوجب زوال نفس الآية عن الوجود وبطلان تحقّقها، بل الحكم حيث علّق بالوصف، ـ وهو الآية والعلامة، مع ما يلحق بها من التعليل ـ، أفاد أنّ النسخ المراد هو إذهاب أثر الآية من تكليف أو غيره، وهو الذي يستفاد من اقتران قوله تعالى: ﴿نُنْسِهَا﴾ بقوله: ﴿نَنْسَخْ﴾ وجمعهما في سلك واحد.

والإنساء هو الإذهاب عن العلم، فيذهب أثره.

وكون الشيئ آية مختلف باختلاف الأشياء والحيثيّات والجهات: فالبعض من القرآن آية له سبحانه باعتبار عجز البشر عن إتيان مثله، والأحكام والتكاليف آيات له تعالى باعتبار حصول التقوى والقرب بها منه سبحانه، والموجودات التكوينيّة آيات له تعالى باعتبار كشفها بوجودها عن وجود صانعها، وبخصوصيّات وجودها عن أسمائه وصفاته سبحانه، وأولياؤه من عباده آيات له تعالى باعتبار دعوتهم إليه قولاً وفعلاً ... وهكذا؛ ولذلك كانت الآية تقبل الشدّة والضعف، قال تعالى: ﴿لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ ٱلْكُبْرَىٰ﴾.[١]

ومن جهة أُخرى: فالآية ربّما كانت ـ في أنّها آية ـ ذات جهة واحدة، وربّما كانت ذات جهات كثيرة، ونسخها وإزالتها كما يتصوّر بجهتها الواحدة كإهلاكها وإفنائها، كذلك يتصوّر ببعض جهاتها دون بعض، إذا كانت كثيرة.

وهذا الذي ذكرناه من عموم معنى النسخ، هو الذي يفيده عموم التعليل بقوله سبحانه: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ * أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَهُ مُلْكُ ٱلسَّمَاوَاتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ وذلك أنّ الإنكار المتوهّم في المقام أو الإنكار الواقع

---

١ . النجم (٥٣): ١٨.

من اليهود ـ على ما روي بالنسبة إلى معنى النسخ ـ يتعلّق به من وجهين:

أحدهما: من جهة أنّ آيةً من آيات الله إذا ارتفعت وزالت، فلن يقوم مقامها شيء يستدرك به ما فات معها من فائدة الخلقة ومصلحة العباد.

وثانيهما: من جهة أنّ الآية إذا كانت من عندالله لم يمكن أن تتغيّر ويطلع كلّ يوم حكم ويظهر لون بعد لون، كما هو شأن العباد الغير المحيطين بجهات الصلاح في الأشياء: إذ كانت أحكامهم وأوضاعهم تتغيّر بتغيّر علومهم بالمصالح والمفاسد، زيادةً ونقيصةً، وحدوثاً وزوالاً.

فأشار سبحانه إلى الجواب عن الأوّل: بعموم القدرة؛ وأنّه سبحانه لا يعجز عن إقامة ما هو خير من الفائت أو مثله مقامه.

وأشار إلى الجواب عن الثاني؛ بأنّ ملك السماوات والأرض لله سبحانه؛ فله أن يتصرّف في ملكه كيف يشاء، وليس لغيره شيء من الملك؛ حتّى يقتضي انسدادَ باب من أبواب تصرّفه سبحانه، فحكمٌ من أحكامه إذا لاح منه الدوام يمكن أن يقطع سبحانه دوامه بإزالته وإقامة آخر مقامه، ولا يوجب اقتضاؤه الدوام ـ مثلاً ـ تحديدَ ملكه تعالى أن لا يتصرّف فيه، وهذا الذي ذكرناه هو مقتضي الحصر في قوله: ﴿**أَنَّ ٱللَّهَ لَهُ مُلْكُ ...**﴾ الآية؛ أي هو المالك لا مالك غيره، فافهم ذلك.

فقد ظهر ممّا مرّ: أنّ النسخ لا يختصّ بالأحكام التشريعيّة، بل يعمّ التكوينيّات أيضاً، وأنّ النسخ لا يتحقّق من غير طرفين: ناسخ ومنسوخ، وأنّ الناسخ يشتمل على ما يشتمل عليه المنسوخ من الكمال أو المصلحة.

فإن قلت: فعلى ما مرّ من عموم معنى النسخ، يكون العامّ مع الخاصّ، والمجمل مع المبيّن، والمطلق مع المقيّد، من قبيل الناسخ والمنسوخ.

قلت: إنّ النسبة بين العامّ والخاصّ وكذا بين المطلق والمقيّد، ليست نسبة المزيل والمزال، وإنّما هي نسبة التفسير على ما حقّق في محلّه، وكذلك المجمل والمبيّن، على أنّ الآية ـ من حيث هي آية ـ لا تكون مجملة، وهو ظاهر.

وظهر بما ذكرنا أيضاً معنى عدّة من الروايات المشتملة عليه:

منها: ما في *تفسير النعماني* عن أمير المؤمنين ـ عليه السلام ـ بعد عدّ آيات من الناسخ والمنسوخ، قال ـ عليه السلام ـ: «ونسخ قوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾[1] قوله ـ عزّ وجلّ ـ: ﴿وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ * إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ وَلِذٰلِكَ خَلَقَهُمْ﴾[2] أي للرحمة خلقهم ...»،[3] الحديث.

فالآية الثانية تثبت حقيقةً توجب تحديد الحقيقة التي توجبها الآيةُ الأُولى؛ أعني أنّ العبادة التي هي غاية الخلقة لا تتخلّف عن المغيّى بها، وهي غير العبادة التشريعيّة التي يوجب تركها الغضب والمقت والنقمة؛ أي أنّ هناك رحمة غير التي توجبها العبادة التشريعيّة، هي أشمل منها وأعمّ، كما قال: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾[4] وليست الآيتان من قبيل العامّ والخاصّ؛ إذ حكم التخصيص لا يشمل الحقائق وإنّما هو مقصور على التشريعيّات.

ومنها: أيضاً ما في *تفسير النعماني* عنه ـ عليه السلام ـ قال: «ونسخ قوله تعالى: ﴿وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْماً مَقْضِيّاً﴾[5] قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا ٱلْحُسْنَىٰ أُولٰئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ * لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا وَهُمْ فِي مَا ٱشْتَهَتْ

---

١. الذاريات (٥١): ٥٦.

٢. هود (١١): ١١٨.

٣. *بحار الأنوار* ٩٠: ١٠.

٤. الأعراف (٧): ١٥٦.

٥. مريم (١٩): ٧١.

أَنفُسُهُمْ خَالِدُونَ * لَا يَحْزُنُهُمُ ٱلْفَزَعُ ٱلْأَكْبَرُ﴾...»[١][٢] الحديث.

وليس من قبيل العامّ والخاصّ لقوله: ﴿كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْماً مَقْضِيّاً﴾[٣] والقضاء المحتوم غير قابل الرفع ولا ممكن الإبطال.

ومنها: ما في رواية العيّاشي عن الباقر -عليه السلام- حيث عدّ -عليه السلام- من قبيل النسخ البداء المشتمل عليه قوله تعالى: ﴿يَمْحُو ٱللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ وَعِنْدَهُ أُمُّ ٱلْكِتَابِ﴾[٤] وقصّة نجاة قوم يونس.[٥]

ومنها: ما في بعض الأخبار من عدّ موت إمام وقيام آخر مقامه من النسخ ... إلى غير ذلك من الأخبار.

وأمّا قوله سبحانه في ذيل الآية: ﴿وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ ٱللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ فكلام مستأنف، وموعظة لهم أن يثقوا بربّهم، ويعلموا أنّه المتولّي لأمورهم الناصر لهم، فلايرضى أن يفوتهم شيء ممّا فيه صلاح حالهم في معاشهم ومعادهم، فليرضوا به ربّاً وليّاً ونصيراً، ولا يقترحوا على رسولهم ما اقترحته اليهود على رسولهم، وما رضيت بالله وليّاً ونصيراً، كما عقّب ذلك بقوله: ﴿أَمْ تُرِيدُونَ أَنْ تَسْأَلُوا رَسُولَكُمْ كَمَا سُئِلَ مُوسَىٰ مِنْ قَبْلُ وَمَنْ يَتَبَدَّلِ ٱلْكُفْرَ بِٱلْإِيمَانِ﴾ أي الاقتراح والاعتراض بالرضا والتسليم والثقة ﴿فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ ٱلسَّبِيلِ﴾.

والدليل على كون قوله: ﴿وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ ٱللَّهِ﴾ كلاماً مستأنفاً: الإتيان بلفظ الجلالة مظهراً من غير إضمار.

---

١. الأنبياء (٢١): ١٠١-١٠٢.

٢. بحار الأنوار ٨ : ٣٠٦، الحديث: ٦٦، عن تفسير القمّي.

٣. مريم (١٩): ٧١.

٤. الرعد (١٣): ٣٩.

٥. تفسير العياشي ١ : ٥٦، الحديث: ٧٧ (نقل بالمعنى).

[وَدَّ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُمْ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّاراً حَسَداً مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْحَقُّ فَاعْفُوا وَٱصْفَحُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ ٱللهُ بِأَمْرِهِ إِنَّ ٱللهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (١٠٩) وَأَقِيمُوا ٱلصَّلاةَ وَآتُوا ٱلزَّكَاةَ وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِنْدَ ٱللهِ إِنَّ ٱللهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (١١٠) وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ ٱلْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُوداً أَوْ نَصَارَىٰ تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (١١١) بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِنْدَ رَبِّهِ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (١١٢) وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ لَيْسَتِ ٱلنَّصَارَىٰ عَلَىٰ شَيْءٍ وَقَالَتِ ٱلنَّصَارَىٰ لَيْسَتِ ٱلْيَهُودُ عَلَىٰ شَيْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ ٱلْكِتَابَ كَذٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ فَاللهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ (١١٣) وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ مَنَعَ مَسَاجِدَ ٱللهِ أَنْ يُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُ وَسَعَىٰ فِي خَرَابِهَا أُولٰئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَنْ يَدْخُلُوهَا إِلَّا خَائِفِينَ لَهُمْ فِي ٱلدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي ٱلْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ (١١٤)]

قوله سبحانه: ﴿حَتَّىٰ يَأْتِيَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِ﴾

فيه إيماء إلى حكم سيشرّعه الله يكون فيه مجازاتهم، وهو حكم القتال كما فيما سيجيء من قوله: ﴿أُولَٰئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَنْ يَدْخُلُوهَا إِلَّا خَائِفِينَ﴾ مع قوله: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَٰذَا﴾.[١]

قوله سبحانه: ﴿وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ ٱلْجَنَّةَ﴾

شروع في إلحاق النصارى باليهود تصريحاً.

قوله سبحانه: ﴿بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ ...﴾

هذا كرّة ثالثة عليهم، في بيان أنّ السعادة لا تدور مدار الاسم، وإنّما الملاك حقيقة الإيمان والعبوديّة أُولاها: قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ آمَنُوا وَٱلَّذِينَ هَادُوا وَٱلنَّصَارَىٰ ...﴾.[٢]

وثانيتها قوله: ﴿بَلَىٰ مَنْ كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ﴾.[٣]

وثالثتها هذه الآية [وهي] في معنى الأُولى ومساقها، ويستفاد من ذلك تفسير الإيمان بـ: إسلام الموجه إلى الله، وتفسير الإحسان بـ: العمل الصالح.

*

١. التوبة (٩): ٢٨.

٢. البقرة (٢): ٦٢.

٣. البقرة (٢): ٨١.

[وَلِلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ وَاسِعٌ عَلِيمٌ (١١٥)]

قوله سبحانه: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ...﴾ المشرق والمغرب حيث كانا لله بحقيقة الملك ـ أي أنّ ذاتهما ملكه، لا كالملك الإعتباري القابل للنقل والتبديل بين العباد ـ فهما في ذاتهما ملك، والملك من حيث إنّه ملك لا يقوم إلّا بمالكه، وحيث إنّ ذاتهما هو الملك، فلا حيثيّة لهما غير حيثيّة الملك، فهو سبحانه قائم عليهما، محيط بهما، وهو معهما.

وهاتان الجهتان حيث كانتا إضافيّتين اشتملتا سائر الجهات، ولذلك لم يقيّد إطلاق ﴿أَيْنَمَا﴾ بهما، بأن يقال: أينما تولّوا منهما.

وعلّل ذلك بقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ وهذه توسعة في القبلة التي يتوجّه إليها المصلّي، دون المكان الذي يصلّي فيه، وإن كانت الآية السابقة متعرّضة لحال المكان؛ على ما قيل: إنّها نزلت في منع كفّار قريش المسلمين عن الصلاة في المسجد الحرام والمساجد التي اتّخذوها بفناء الكعبة.

والدليل على ما قلنا قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ﴾ حيث أخذ

الجهة دون المكان، وبذلك تفسير الروايات:

ففي *التهذيب* عن محمّد بن الحصين، قال: «كتب إلى عبد صالح: الرجل يصلّي في يوم غيم في فلاة من الأرض ولا يعرف القبلة، فيصلّي، حتى إذا فرغ من صلاته بدت له الشمس، فإذا هو قد، صلّى لغير القبلة، يعتدّ بصلاته أم يعيدها؟ فكتب ـعليه السلام ـ: يعيدها ما لم يفت[١] الوقت، أَو لم يعلم أنّ الله يقول ـوقوله الحقّ ـ: ﴿فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ﴾».[٢]

وفي *تفسير العيّاشي*: عن الباقر ـعليه السلام ـ قال: «أنزل الله هذه الآية في التطوّع خاصّة ﴿فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ أَنَّ اللهَ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ وصلّى رسول الله إيماءاً على راحلته أينما توجهت به حين خرج إلى خيبر، وحين رجع من مكّة وجعل الكعبة خلف ظهره».[٣]

أقول: روى قريباً من ذلك عن زرارة عن الصادق ـعليه السلام ـ،[٤] والقمّي[٥] والشيخ[٦] أيضاً عن أبي الحسن، والصدوق عن الصادق ـعليه السلام ـ.[٧]

واعلم: أنّك إذا تتبّعت أخبار أهل البيت وتصفّحتها حقّ التصفّح ـفي موارد العامّ والخاصّ والمطلق والمقيّد من القرآن ـ وجدتها تستفيد من العامّ وحده حكماً، ومن العامّ[٨] أعني العامّ مع المخصّص ـ حكماً آخر، فمن العامّ ـ مثلاً ـ

---

١. في المصدر: «ما لم يفته»

٢. تهذيب الاحكام ٢: ٤٩، الحديث:٢٨.

٣. تفسير *العيّاشي* ١: ٥٦، الحديث:٨٠.

٤. تفسير *العيّاشي* ١: ٥٦، الحديث:٨١.

٥. تفسير *القمّي* ١: ٥٨.

٦. تهذيب *الأحكام* ٥: ٤٥٣، الحديث:٢٢٩.

٧. *علل الشرائع* ٢: ٣٥٨ ـ ٣٥٩، الحديث:١.

٨. الصحيح: «الخاص»

الاستحباب كما هوالغالب، ومن الخاصّ الوجوب، وكذلك الحال في الكراهة والحرمة.

وهذا أحد أُصول مفاتيح التفسير في أخبار أئمّة أهل البيت وعليه مدار جمّ غفير من أحاديثهم، ومن هنا يمكنك أن تستنتج منها في المعارف القرآنيّة نتيجتين:

إحداهما: أنّ كلّ جملة وحدها ـ وهي مع كلّ قيد من قيودها ـ تحكي عن حقيقة ثابتة أوحكم من الأحكام ثابت، كقوله سبحانه: ﴿قُلِ ٱللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِى خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ﴾[1] ففيه أربعة معان.

والثانية: أنّ القصّتين أوالمطلبين إذا اشتركا في جملة فرجوعهما إلى مرجع واحد بنحوٍ.

وهذان سرّان تحتهما أسرار، والله الهادي.

*

١. الأنعام (٦): ٩١.

[وَقَالُوا ٱتَّخَذَ ٱللهُ وَلَداً سُبْحَانَهُ بَلْ لَهُ مَا فِى ٱلسَّمَاوَاتِ وَٱلْأَرْضِ كُلٌّ لَهُ قَانِتُونَ (١١٦) بَدِيعُ ٱلسَّمَاوَاتِ وَٱلْأَرْضِ وَإِذَا قَضَىٰ أَمْراً فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ (١١٧) وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ لَوْلَا يُكَلِّمُنَا ٱللهُ أَو تَأْتِينَا آيَةٌ كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِثْلَ قَوْلِهِمْ تَشَابَهَتْ قُلُوبُهُمْ قَدْ بَيَّنَّا ٱلآيَاتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ (١١٨) إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيراً وَنَذِيراً وَلَا تُسْأَلُ عَنْ أَصْحَابِ ٱلْجَحِيمِ (١١٩) وَلَنْ تَرْضَىٰ عَنْكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَارَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ قُلْ إِنَّ هُدَىٰ ٱللهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ ٱلَّذِى جَاءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ ٱللهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ (١٢٠) ٱلَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ ٱلْكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ أُولَٰئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ ٱلْخَاسِرُونَ (١٢١) يَا بَنِى إِسْرَائِيلَ ٱذْكُرُوا نِعْمَتِيَ ٱلَّتِى أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّى فَضَّلْتُكُمْ عَلَى ٱلْعَالَمِينَ (١٢٢) وَٱتَّقُوا يَوْماً لَا تَجْزِى نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئاً وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا تَنْفَعُهَا شَفَاعَةٌ وَلَا هُمْ يُنْصَرُونَ (١٢٣)]

قوله سبحانه: ﴿وَقَالُوا ٱتَّخَذَ ٱللهُ وَلَداً سُبْحَانَهُ...﴾

يعطي السياق أنّ القائلين هم اليهود والنصارى ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللهِ

﴿وَقَالَتِ ٱلنَّصَارَىٰ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِ﴾،[١] فإنّ وجه الكلام إليهم، وإن كانت الكفّار أو بعضهم قالوا: إنّ الملائكة بنات الله،[٢] وإنّما قالوا هذه الكلمة ـ أوّل ما قالوا ـ تشريفاً لأنبيائهم، كما قالوا: ﴿نَحْنُ أَبْنَاءُ ٱللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ﴾[٣] ثمّ تلبّس لباس الجدّ والحقيقة.

فردّ الله سبحانه عليهم في هاتين الآيتين: أنّ ولد الشيء إنّما هو بأن يجزّىء الشيء بعضَ أجزاء وجوده ويفصله، فيُربّيه فرداً من جنسه على مثاله، وهو سبحانه منزّه عن الأجزاء، وكلّ شيء سواه مملوك له في ذاته، فقير إليه في وجوده، قانت خاضع له خضوعاً ذاتياً، فلا يجانسه شيء ﴿سُبْحَانَهُ بَلْ لَهُ مَا فِى ٱلسَّمَاوَاتِ وَٱلْأَرْضِ كُلٌّ لَهُ قَانِتُونَ﴾.

وأيضاً: هو سبحانه إذا أراد أمراً وقضى شيئاً لم يتوصّل إليه توصّلاً تدريجيّاً كالتربية ونحوها، بل شأنه الإيجاد ابتداءاً ودفعة، فلا يوجد له ولد ﴿بَدِيعُ ٱلسَّمَاوَاتِ وَٱلْأَرْضِ وَإِذَا قَضَىٰ أَمْراً فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾.

ففي الآيتين برهانان، وإن أمكن تقريبه أزيد من برهانين، وهو ظاهر.

ويستفاد من الآيتين:

أوّلاً: شمول حكم العبادة والقنوت لجميع المخلوقات.

وثانياً: أنّ فعله سبحانه غير تدريجيّ، فكلّ موجود تدريجيّ فله وجه غير تدريجيّ به يصدر عنه سبحانه، كما قال: ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئاً أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ

---

١. التوبة (٢): ٣٠.

٢. راجع: *الاحتجاج* ٢: ٤٣١؛ *تفسير الفرات*: ٦١٧، ٧٧٣؛ *تفسير القمّي* ١: ١٥٢، ٣٨٥؛ ٢: ٢٠، ٣٠، ٢٢٦، ٢٨١، ٢٨٢، ٣٣٢؛ *عيون الأخبار الرضا* ـ عليه السلام ـ ١: ٢٠٢، الحديث: ١.

٣. المائدة (٥): ١٨.

فَيَكُونُ﴾[1] وقال سبحانه: ﴿وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ﴾.[2]

وقد روى في *الكافي* و*البصائر* عن سدير الصيرفي، قال: «سمعت حمران بن أعين يسأل أبا جعفر ـ عليه السلام ـ عن قول الله: ﴿بَدِيعُ ٱلسَّمَاوَاتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ فقال أبو جعفر ـ عليه السلام ـ: إنّ الله ـ عزّ وجلّ ـ ابتدع الأشياء كلّها بعلمه على غير مثال كان قبله، فابتدع السماوات والأرضين ولم يكن قبلهنّ سماوات ولا أرضون، أما تسمع لقوله: ﴿وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى ٱلْمَاءِ﴾ ؟!»[3].[4]

قوله سبحانه: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ لَوْلَا يُكَلِّمُنَا ٱللهُ أَوْ تَأْتِينَا آيَةٌ...﴾

القائلون من أهل الكتاب، ولمّا لم يعتبروا في قولهم هذا أوّلاً[5] أنّ الكرامة الإلٰهيّة ـ كالتكليم وإيتاء الآية ـ لا تكون من غير صلاحيّة واستحقاق، والظالم لنفسه الفاسق في عمله لا يصلح ولا يستحقّ لها، له، وأنّ الهداية لا تنحصر في أحد الأمرين، فلم يعتمدوا في قولهم على أساس صحيح، فلذلك لم يصفهم بأهل الكتاب، ولم يسمّهم به، بل سمّاهم بالذين لا يعلمون، ثمّ في الآية الثانية بأصحاب الجحيم، ثمّ وصفهم في الآية الثالثة بأنّ ملّتهم الأهواء وما لهم من الله من وليّ ولا نصير، ثمّ في الآية الرابعة بالخاسرين، وبذلك يظهر ما بين هذه الأوصاف من الربط والاتّحاد، فافهم.

وأشار إلى الجواب عن قولهم، بقوله: ﴿قَدْ بَيَّنَّا ٱلْآيَاتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾

---

١. يس (٣٦): ٨٢.

٢. القمر (٥٤): ٥٠.

٣. هود (١١): ٧.

٤. *الكافي* ١: ٢٥٦، الحديث: ٢؛ *بصائر الدرجات*: ١١٣، الحديث: ١.

٥. لا يوجد في العبارة عدل ظاهر لها.

وقوله: ﴿ٱلَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ ٱلْكِتَابَ...﴾، فبيّن أنّ المقصود بالإرسال والإنزال والهداية بيان الآيات، وقد بيّن لقوم يوقنون، وليس بالمبتذل ذلك الابتذال حتّى يناله كلّ متهوّس مجازف، وليس كلّ من تسمّى بأهل الكتاب أهلاً للكتاب، بل أهل الكتاب هم التالون له المؤمنون به، وأمّا الكافرون به فهم الأهل لأن يسمّوا بالخاسرين، لا بأهل الكتاب، هذا.

وفي *الإرشاد* للديلمي عن الصادق -عليه السلام- في قوله: ﴿ٱلَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ ٱلْكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ﴾ قال: «يرتّلون آياته، ويتفقّهون به ويعملون بأحكامه، ويرجون وعده، ويخافون وعيده، ويعتبرون بقصصه، ويأتمرون بأوامره، وينتهون بنواهيه، ما هو -والله- حفظ آياته، ودرس حروفه، وتلاوة سُوَره، ودرس أعشاره وأخماسه، حفظوا حروفه وأضاعوا حدوده، وإنّما هو تدبّر آياته والعمل بأحكامه؛ قال الله تعالى: ﴿كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ﴾»[١].[٢]

وفي *تفسير العيّاشي* عن الصادق -عليه السلام- في قول الله: ﴿يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ﴾ قال: «الوقوف عند الجنّة والنار».[٣]

وفيه وفي *الكافي* عنه -عليه السلام- في الآية، قال: هم «الأئمّة».[٤]

أقول: أصل الآية في مورد اليهود والنصارى، لكنّها شاملة لكلّ من أُوتي كتاباً وقام به حقّ القيام على مراتبه، فما في الأخبار من باب الجري.

*

---

١. ص (٣٨): ٢٩.
٢. *إرشاد القلوب* ١: ٢٧٨.
٣. تفسير *العيّاشي* ١: ٥٧، الحديث: ٨٤.
٤. تفسير *العيّاشي* ١: ٥٧، الحديث: ٨٣؛ *الكافي* ١: ٢١٥، الحديث: ٤.

[وَإِذِ ٱبْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَاماً قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي ٱلظَّالِمِينَ ﴿١٢٤﴾]

قوله سبحانه: **﴿وَإِذِ ٱبْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ...﴾**

الابتلاء والبلاء بمعنى واحد؛ وهو الاختبار والامتحان، تقول: ابتليته وبلوته بكذا: إذا قدّمت إليه أمراً أوأوقعته في حدث فأختبرته، ولا يكون الاختبار إلّا لوصف، كما سيجيء بيانه.

ولا يكون الابتلاء ـ مع ذلك ـ إلّا في العمل دون القول فقط، بخلاف الاختبار، قال سبحانه: **﴿إِنَّ هٰذَا لَهُوَ ٱلْبَلَاءُ ٱلْمُبِينُ﴾**[1] وقال: **﴿إِنَّا بَلَوْنَاهُمْ كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ ٱلْجَنَّةِ﴾**[2] فتعلّق الابتلاء هاهنا بالكلمات ـ لوكان المراد بها الكلمات المؤلّفة من الأصوات ـ لعلّه بملاحظة كونها حاكية عن المعنى والعمل كقوله سبحانه: **﴿وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْناً﴾**[3] أي عاملوهم معاملة حسنة.

---

١. الصافّات (٣٧): ١٠٦.

٢. القلم (٦٨): ١٧.

٣. البقرة (٢): ٨٣.

غير أنّه سبحانه ربّما أطلق في كلامه الكلمة ـ بل القول ـ على غير اللفظ من الأعيان الخارجيّة، كقوله: ﴿بِكَلِمَةٍ مِنْهُ ٱسْمُهُ ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ﴾[١] وقوله: ﴿وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ ٱلتَّقْوَىٰ﴾.[٢]

ومن هذا الباب قوله: ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئاً أَن يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾[٣] حيث بيّن بوجه عامّ أنّ أمره إذا أراد شيئاً ـ وهو خالق كلّ شيء ـ هو قول: ﴿كُنْ﴾ أي إفاضة الموجود؛ أي وجود نفس الشيء.

فيشبه أن يكون المراد بالكلمات هاهنا ما هو من قبيل الأعيان الخارجيّة والأُمور الوجوديّة، كما يفيده تعلّق الابتلاء بها، وسيجيء له زيادة توضيح.

على أنّ قوله سبحانه: ﴿فَأَتَمَّهُنَّ﴾ أيضاً يشهد بذلك.

توضيحه: أنّ الإمتحان ـ كما سمعت ـ إنّما يكون لوصف؛ بمعنى أنّ المجهول أو المخفيّ ـ الذي يُراد بالامتحان العلم به أو ظهوره ـ إنّما يكون وصفاً من أوصاف الممتحَن بصيغة المفعول، لا مجرّد الفعل الصادر منه؛ إذ الفعل الصادر ـ من حيث يُجهل هل يصدر أو لا؟ ـ لا يكون مخفيّاً، بل موجوداً أو معدوماً، وإنّما يتعلّق العلم والجهل أو الصدور والخفاء في أمر ثابت يتوارد عليه الحالات.

ولذلك أيضاً لا يتّصف هذا المعنى بالزيادة والنقصان، بل بالوجود والعدم، وكذلك نفس ما به الإمتحان، وخاصّة في الإبتلاء الذي إنّما يكون عمليّاً كما سمعت، وأمراً مرتبطاً بالمبتلي والمبتلى معاً.

فتفسير الإتمام في المقام بالعمل والإتيان في غير محلّه، ولو صحّ فإنّما يصحّ

---

١. آل عمران (٣): ٤٥.

٢. الفتح (٤٨): ٢٦.

٣. يس (٣٦): ٨٢.

في موارد يصحّ أن يتّصف الفعل بالزيادة والنقيصة، وأمّا نحو الأوصاف التي يراد بالابتلاء الاستعلام، أو إظهار وجودها وعدمها ـ ونحو الامتحانات العمليّة، مثل المرض والفقر والقتل ونحوها، المرتبطة بالمبتلي والمبتلى معاً ـ فلا يتمّ إلّا إذا وقع هناك قدر زائد على نفس الابتلاء يتمّها المبتلى بصيغة المفعول، غير مربوط بالابتلاء، أو قدر زائد على الوصف يتّمها المبتلى بصيغة المفعول، زيادةً على ما أُريد منه، كمن يُبتلى ليُعلم هل يَقوى على حمل مَنٍّ فبدا قويّاً على حمل عشرة.

ومن هنا يظهر: أنّ الكلمات المذكورة أُمور خارجيّة، لها ارتباط بإبراهيم ـ عليه السلام ـ نحواً من ارتباط الوصف بموصوفه، وأنّ المبتلى به والمبتلى لأجله هاهنا شيء واحد.

هذا إذا كان ضمير ﴿فَأَتَمَّهُنَّ﴾ راجعاً إلى إبراهيم ـ عليه السلام ـ وأمّا إذا كان راجعاً إليه سبحانه فالإتمام بمعنى الإيجاد.

توضيح ذلك: أنّ الكلمة ـ كما عرفت ـ ربّما استعملت في الأُمور العينيّة من غير نوع اللفظ، وهو استعمال شائع في الإرادة البتّية، تقول: «لأفعلنّ كذا وكذا»، لقولٍ قلتَه وكلمةٍ قدَّمتها، ولم تقل قولاً ولا قدّمت كلمةً، وإنّما عزمت عزيمةً لا ترجع عنها، وأبرمت إبراماً لا تنقضه بشفاعة شفيع أو وهْن إرادةٍ البتة.

على أنّ الكلمة حيثما ما نسبت إليه سبحانه في القرآن أُريد بها غير اللفظ؛ كقوله سبحانه: ﴿وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ ٱللهِ﴾،[1] وقوله: ﴿لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ ٱللهِ﴾،[2] وقوله: ﴿وَيُحِقُّ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ﴾،[3] وقوله: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ صِدْقاً وَعَدْلاً لَا مُبَدِّلَ

---

١. الأنعام (٦): ٣٤.
٢. يونس (١٠): ٦٤.
٣. الشورى (٤٢): ٢٤.

لِكَلِمَاتِهِ﴾،[١] وقوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾،[٢] وقوله: ﴿وَلَٰكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ عَلَى ٱلْكَافِرِينَ﴾،[٣] وقوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ أَصْحَابُ ٱلنَّارِ﴾،[٤] وقوله: ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ﴾،[٥] وقوله: ﴿بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ ٱسْمُهُ ٱلْمَسِيحُ﴾،[٦] وقوله: ﴿وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِيَ ٱلْعُلْيَا﴾،[٧] وقوله أيضاً: ﴿قَالَ فَٱلْحَقُّ وَٱلْحَقَّ أَقُولُ﴾.[٨]... إلى غير ذلك من الآيات.

وظاهر الجميع: أنّ كلمته سبحانه لا تقبل التغيير بوجه، وقد قال سبحانه: ﴿يَمْحُوا ٱللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ وَعِندَهُ أُمُّ ٱلْكِتَابِ﴾[٩] فكلمته هي المحفوظة في أُمّ الكتاب واللوح المحفوظ، وقد قال أيضاً: ﴿وَإِذَا قَضَىٰ أَمْراً فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾،[١٠] فبيّن أنّ قضاءه قوله، فكلمته قضاؤه، ومن المعلوم أن لا لفظ في مرحلة الإيجاد غير ما في الخارج من وجود ما قُضي، والشيء إذا وقع لم يتغيّر، فكلمته هي الوجود الخارجي، وهو المراد.

لكن ليعلم: أنّ الوجود الخارجيّ، ربّما اشتمل على نقص وعيب، لا يليق أن

---

١. الأنعام (٦): ١١٥.
٢. يونس (١٠): ٩٦.
٣. الزمر (٣٩): ٧١.
٤. غافر (٤٠): ٦.
٥. الشورى (٤٢): ١٤.
٦. آل عمران (٣): ٤٥.
٧. التوبة (٩): ٤٠.
٨. ص (٣٨): ٨٤.
٩. الرعد (١٣): ٣٩.
١٠. البقرة (٢): ١١٧.

يُنسب إلى جناب العزّة وعتبة القدس، كما نسب الحسنات إلى نفسه والسيّئات إلى غيره، فقال تعالى: ﴿مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ ٱللهِ وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنْ نَفْسِكَ﴾،[١] وقال: ﴿ٱلَّذِى أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ خَلَقَهُ﴾،[٢] وقال: ﴿ٱللهُ خَالِقُ كُلِّ شَىْءٍ﴾[٣] وقد أفاد بهذه الآيات الثلاث أنّ السيّئات أمور عدميّة ونسَب إضافات، كما سنوضّحها في محلّها إن شاء الله تعالى.

وبالجملة: لا يُنسب إليه شيء ممّا يشتمل على منقصة وشَين، سبحانه عن ذلك؛ فلذلك لم يطلق لفظ الكلمة على شيء من ذلك، على أنّه نصّ سبحانه على أنّ كلمته حقّ وصدق وعدل، فلا يشوبه باطل وكذب وظلم، فلا يكون إلّا وجوداً طاهرّاً مطهَّراً.

وقال أيضاً: ﴿وَأَورَثْنَا ٱلْقَوْمَ ٱلَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضْعَفُونَ مَشَارِقَ ٱلْأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا ٱلَّتِى بَارَكْنَا فِيهَا وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ ٱلْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِى إِسْرَائِيلَ بِمَا صَبَرُوا﴾،[٤] فعدّ «إيراثهم الأرض» كلمته الحسنى عليهم.

ويستفاد منها: أنّ تمام تلك الكلمة وقوعها بعد قضائها، وإنّما الفرق بين الكلمة وتمامها بالاعتبار واختلاف النسبة، حيث تنسب الكلمة إليه سبحانه، والتمام إلى الكلمة، فهما الإيجاد والوجود، ومرتبتا «كن ويكون» في قوله: ﴿أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾.[٥]

---

١. النساء (٤): ٧٩.
٢. السجدة (٣٢): ٧.
٣. الزمر (٣٩): ٦٢.
٤. الأعراف (٧): ١٣٧.
٥. يس (٣٦): ٨٢.

ومثل الآية السابقة قوله: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾[١] وقوله سبحانه: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى أَنْزَلَ إِلَيْكُمُ ٱلْكِتَابَ مُفَصَّلاً وَٱلَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ ٱلْكِتَابَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ مُنَزَّلٌ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ * وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ صِدْقاً وَعَدْلاً لَامُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ﴾[٢] والآية كما ترى تجعل النبيّ وبعثته من كلمات الله، وهو كذلك؛ فإنّ القرآن ينصّ على كون وجود النبيّ طاهراً مطهّراً، كما مرّ وسيجيء، وقد عرفت أنّ الوجود ـ الذي هو كذلك ـ كلمة من كلمات الله تعالى.

ومن جميع ما مرّ بان: أنّ الأنسب رجوع الضمير في ﴿أَتَمَّهُنَّ﴾ إليه سبحانه، ولو رجع إلى إبراهيم ـ عليه السلام ـ فبعناية لا تنافي ما ذكرنا.

وبالجملة: فهذه الكلمات التي ابتلي بها إبراهيم ـ عليه السلام ـ أُمور وجوديّة مربوطة به ـ عليه السلام ـ هو صاحبها، وهي وجودات طاهرة مطهَّرة من أمر الله سبحانه من الملكوت، كما يشير إليه قوله: ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئاً أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ * فَسُبْحَانَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ﴾[٣] فإبراهيم كان صاحباً لأُمور ملكوتيّة، إذ المقام لبيان جمعه مقدّمات الإمامة، هذا.

وقوله سبحانه: ﴿قَالَ إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَاماً﴾

لو كانت حقيقة الإمامة هي مجرّد بيان معارف المبدأ والمعاد ومسائل الحلال والحرام، وبيان ما يضرّ الناس وما ينفعهم في الدنيا والآخرة، كان كلّ رسول إماماً، وقد قال سبحانه: ﴿وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَاغُ﴾[٤] وقال: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ

---

١. هود (١١): ١١٩.
٢. الأنعام (٦): ١١٤ ـ ١١٥.
٣. يس (٣٦): ٨٢ ـ ٨٣.
٤. النور (٢٤): ٥٤.

رَسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ ٱللهِ﴾[١] بل كلّ مؤمن متفقّه إماماً، كما قال: ﴿فَلَوْلَا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ لِيَتَفَقَّهُوا فِي ٱلدِّينِ وَلِيُنْذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾[٢] وسيجيء أنّ إبراهيم ـ عليه السلام ـ كان نبيّاً ورسولاً وخليلاً ومن أُولي العزم صاحب كتاب وشريعة قبل أن يكون إماماً.

فمن الواضح حينئذٍ انّ حقيقة الإمامة غير حقيقة النبوّة والرسالة، وغير الهداية العامّة ببيان المعارف والمسائل، لكنّا نجده سبحانه كلّما تعرّض لمعنى الإمامة، تعرّض للهداية تعرّض التفسير، قال سبحانه: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ﴾ أي لإبراهيم ـ عليه السلام ـ ﴿إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً وَكُلًّا جَعَلْنَا صَالِحِينَ * وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا﴾[٣] وقال سبحانه: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ﴾[٤] فوصفها بالهداية وقيّدها بالأمر، وقد عرفت معنى أمره، والإمام هو الذي يقتدى به.

فالإمام يهدي بأمر ملكوتيّ يصاحبه، فالإمامة نحو ولاية للناس في أعمالهم وهدايته أيصاله إيّاهم إلى المطلوب، دون مجرّد إراءة الطريق الذي هوشأن النبيّ والرسول، وكلّ مؤمن يهدي إلى الله سبحانه.

ثمّ إنّه سبحانه بيّن سبب إفاضة الإمامة بقوله: ﴿لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ﴾[٥] فأبان أنّ الملاك في ذلك صبرهم وكونهم قبل ذلك موقنين، وذكر سبحانه في قصصِ إبراهيم ـ عليه السلام ـ فقال: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ

---

١. النساء (٤): ٦٤.

٢. التوبة (٩): ١٢٢.

٣. الأنبياء (٢١): ٧٢ ـ ٧٣.

٤. السجدة (٣٢): ٢٤.

٥. السجدة (٣٢): ٢٤.

﴿ٱلسَّمَاوَاتِ وَٱلْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلْمُوقِنِينَ﴾[١] والآية ـ كما ترى ـ تعطي بظاهرها أنّ اراءة الملكوت له ـ عليه السلام ـ، كانت مقدّمة لإفاضة اليقين عليه، ويتبيّن به أنّ اليقين يوجب مشاهدة الملكوت، كما يظهر من قوله سبحانه أيضاً: ﴿كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ ٱلْيَقِينِ * لَتَرَوُنَّ ٱلْجَحِيمَ﴾،[٢] وقوله: ﴿كَلَّا إِنَّ كِتَابَ ٱلْأَبْرَارِ لَفِى عِلِّيِّينَ * وَمَا أَدْرَاكَ مَا عِلِّيُّونَ * كِتَابٌ مَّرْقُومٌ * يَشْهَدُهُ ٱلْمُقَرَّبُونَ﴾[٣] فالإمام يجب أن يكون رجلاً ذا يقين مكشوفاً له عالم الملكوت، متحقّقاً بكلمات من الله سبحانه.

وقد ظهر من قوله سبحانه: ﴿ٱللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾[٤] وقوله: ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئاً أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾[٥] أنّ هذه الموجودات التدريجيّة الوجود ـ التي عندنا ـ لوجودِ كلٍّ واحد منها وجْهان: وجه أمريّ غير تدريجيّ ووجه خَلْقيّ تدريجيّ، وله الخلق والأمر، والإمام هادٍ بأمره سبحانه، فكلّ ما يتعلّق به أمر الهداية، فللإمام وجهه الأمريّ وباطنه وحقيقته، فللإمام أمر الهداية، فافهم.

ووجها «الأمر والخلق» وإن كانا وجهين مختلفين حقيقةً، إلّا أنّ الشيء ليس له إلّا وجود واحد في الخارج، فهذا الوجود الواحد ذو وجهين، وأحد وجهيه ـ وهو الخلق ـ تابع لوجهه الآخر؛ وهو الأمر الذي لله سبحانه.

والأعمال كسائر الأشياء في وجهيها، فالإمام هو الذي يلحق به ويحضر عنده أعمال العباد خيرها وشرّها، وهو المهيمن على السبيلين جميعاً: سبيل

---

١. الأنعام (٦): ٧٥.
٢. التكاثر (١٠٢): ٥ ـ ٦.
٣. المطففين (٨٣): ١٨ ـ ٢١.
٤. الرعد (١٣): ١٦.
٥. يس (٣٦): ٨٢.

السعادة وسبيل الشقاوة، وقال تعالى أيضاً: ﴿يَوْمَ نَدْعُوا كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَامِهِمْ﴾[١]: وسيجيء تفسيره بالإمام الحقّ، دون كتاب الأعمال، فالإمام هوالذي يسوق الناس إلى الله تعالى في ظاهر هذه الدنيا وباطنها ويوم تبلى السرائر.

والآية تفيد ـ مع ذلك ـ أنّ الإمام الحقّ لا يخلوعنه عصر من الأعصار وزمان من الأزمنة، حيث عبّر «بأُناس» وأضاف الإمام إليهم، هذا.

ثمّ إنّ هذا المعنى ـ على عظمته وشرافته لا يقوم إلّا بمن كان سعيد الذات بنفسه إذ الذي ربّما تلبّس ذاته بالظلم والشقاء، فإنّما سعادته بهداية من غيره، وقد قال سبحانه: ﴿أَفَمَنْ يَهْدِي إِلَى ٱلْحَقِّ أَحَقُّ أَنْ يُتَّبَعَ أَمْ مَنْ لَا يَهِدِّي إِلَّا أَنْ يُهْدَىٰ﴾[٢] والآية تقابل بين الهادي إلى الحقّ وغير المهتدي إلّا بغيره، فالهادي إلى الحقّ يجب أن يكون مهتدياً بذاته، والمهتدي بغيره لا يكون هادياً إلى الحقّ البتّة، فافهم.

ومن هنا يتّضح أنّ المراد بالظالمين في قوله: ﴿قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي ٱلظَّالِمِينَ﴾ مطلق من صدر عنه ظلمٌ ما ـ من شرك أو معصية ـ وإن كان في برهة من عمره ثمّ تاب وصلح.

وقد سئل بعض أساتيذنا ـ رضي الله عنه ـ عن تقريب دلالة الآية على عصمة الإمام، فقال: إنّ الناس ـ بحسب القسمة العقليّة ـ أربعة أقسام: من كان ظالماً في جميع عمره، ومن ليس بظالم في جميع عمره، ومن هو ظالم في أوّل عمره دون آخره، وبالعكس؛ وإبراهيم ـ عليه السلام ـ أجلّ شأناً من أن يسأل الإمامة لمن كان من ذريّته من القسم الأوّل أوالثالث، فبقي قسمان، وقد نفى الله سبحانه

---

١. الإسراء (١٧): ٧١.
٢. يونس (١٠): ٣٥.

أحدهما، فبقي الآخر وهو الذي ليس بظالم في جميع عمره، انتهى.

وقد ظهر مما قدّمناه معنى الإمامة.

وتبيّن من مطاوي الكلام:

أنّ الإمام يجب أن يكون معصوماً.

وأنّ الأرض ـ وفيها الناس ـ لا تخلو عن إمام حقّ.

وأنّ الإمام يجب أن يكون مؤيَّداً من عند الله سبحانه.

وأنّ أعمال العباد غير محجوبة عن علم الإمام ـ عليه السلام ـ.

وأنّ نسبته إليهم كنسبة النفس إلى البدن، على نحو يليق بجنابه.

وأنّ الصالحين من كلّ أُمّة وأعمالهم الصالحة، ملحقة به.

وأنّه يجب أن يكون عالماً بجميع ما يحتاج إليه الناس؛ من مصالح معاشهم ومعادهم.

وأنّه يستحيل أن يكون فيهم من يفوقه في فضائل النفس.

وأنّ صراط السعادة كما يقتضي الإمام، كذلك يقتضيه صراط الشقاوة.

وأنّ إمامين لا يجتمعان في زمان واحد بالنسبة إلى أشخاص بعينهم. ولو كان فأحدهما صامت.

فهذه عشرة مسائل، هي أُمّهات مسائل الإمامة، والله الهادي.

وإلى ما ذكرنا يرجع معنى ما ورد من الروايات في المقام:

ففي *المعاني* عن المفضّل بن عمر عن الصادق ـ عليه السلام ـ، قال: «سألته عن قول الله عزّ وجلّ: ﴿وَإِذِ ٱبْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ﴾ ما هذه الكلمات؟ قال: هي الكلمات التي تلقّاها آدم من ربّه، فتاب عليه، وهو أنّه قال: أسألك بحقّ محمد وعليّ وفاطمة والحسن والحسين إلّا تبت عليّ، فتاب الله

عليه، إنّه هو التوّاب الرحيم.

فقلت له: يابن رسول الله! فما يعني بقوله: ﴿فَأَتَمَّهُنَّ﴾؟ قال: يعني أتمّهن إلى القائم إثنى عشر إماماً، تسعة من ولد الحسين.

قال المفضّل: فقلت له: يابن رسول الله! فأخبرني عن قول الله عزّ وجلّ ﴿وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِى عَقِبِهِ﴾،[1] قال: يعني بذلك الإمامة، جعلها في عقب الحسين إلى يوم القيامة.

قال: فقلت له: فكيف صارت الإمامة في ولد الحسين دون ولد الحسن، وهما جميعاً ولدا رسول الله، وسبطا رسول الله، وسيّدا شباب أهل الجنّة؟ فقال: إنّ موسى وهارون كانا نبيّين مرسلين أخوين، فجعل الله النبوّة في صلب هارون دون صلب موسى، ولم يكن لأحد أن يقول: لِمَ فعل الله ذلك وإنّ الإمامة خلافة الله ـعزّ وجلّـ، ليس لأحد أن يقول: لِمَ جعلها في صلب الحسين دون صلب الحسن؛ لأنّ الله هو الحكيم في أفعاله، لا يسأل عما يفعل وهم يسألون...»[2] الحديث.

وفي *تفسير العيّاشي* بأسانيد عن صفوان الجمّال، قال: «كنّا بمكّة، فجرى الحديث في قول الله: ﴿وَإِذِ ٱبْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ﴾ قال: أتمّهنّ بمحمّد وعليّ والأئمّة من ولد عليّ، في قول الله: ﴿ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾...»،[3] الحديث.[4]

---

١. الزخرف (٤٣): ٢٨.

٢. *معاني الأخبار*: ١٢٦ ـ ١٢٧، الحديث: ١.

٣. آل عمران (٣): ٣٤.

٤. *تفسير العيّاشي* ١: ٥٧، الحديث: ٨٨.

أقول: قوله في الحديث: «هي الكلمات التي تلقّاها آدم...» إلى آخره، قد مرّ من البيان في قوله سبحانه: ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ ٱلْأَسْمَاءَ كُلَّهَا...﴾،[1] ما يتّضح به هذا الكلام، فالكلمات التي ابتلي بها إبراهيم ـ عليه السلام ـ إن كانت صفات طاهرة وأخلاقاً فاضلة، فإنّما وجود هذه الكلمات من كلمات تامّة أُخرى في خزائن الغيب عند الله هي المبتلى بها حقيقةً، وإن كانت نفس تلك الكلمات فهي ذلك أيضاً.

غير أنّ التقدير الأوّل أوفق برواية العيّاشي، فيعود المعنى إلى أنّه عليه السلام ابتلي بصفات فاضلة إلٰهيّة، فأتمّهنّ بمفاتيح تلك الصفات من الغيب.

والتقدير الثاني أوفق برواية الصدوق، فيعود المعنى إلى أنّه عليه السلام ابتلى ببعض مفاتيح الغيب فأتمّه ببعض آخر، والوجهان ـ مع ذلك ـ مآلهما واحد، على ما يعطيه التأمّل التامّ.

وقوله: «قلت: فأخبرني عن قول الله: ﴿وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِى عَقِبِهِ﴾[2]» الآية في حقّ إبراهيم ـ عليه السلام ـ، وما قبلها: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِى بَرَاءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ * إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ * وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِى عَقِبِهِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾[3] الآيات؛ والضمير في قوله: ﴿وَجَعَلَهَا﴾ راجع إلى الهداية التي يتضمنها قوله: ﴿سَيَهْدِينِ﴾ دون البراءة التي يتضمّنها قوله: ﴿إِنَّنِى بَرَاءٌ﴾ ويشهد به قوله: ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ على ما سيأتي من البيان، وقوله: ﴿سَيَهْدِينِ﴾ سياقه مشعر بأنّ هذه الهداية غير ما يشتمل عليه قوله: ﴿إِنَّنِى بَرَاءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ * إِلَّا

---

١. البقرة (٢): ٣١.

٢. الزخرف (٤٣): ٢٨.

٣. الزخرف (٤٣): ٢٦ ـ ٢٨.

﴿ٱلَّذِي فَطَرَنِي﴾ وهذا اهتداء ذاتيّ غير متعلّق بهادٍ غير الله سبحانه.

وقد عرفت سابقاً من قوله: ﴿أَفَمَنْ يَهْدِي إِلَى ٱلْحَقِّ أَحَقُّ أَنْ يُتَّبَعَ أَمْ مَنْ لَا يَهِدِّي إِلَّا أَنْ يُهْدَىٰ﴾،[١] أنّ المقابلة فيها تعطي: أنّ غيرَ الهادي إلى الحقّ غير مهتدٍ بنفسه، بل مهديّ بغيره، فمن لم يكن مهديّاً بالغير ـ بل مهتدياً بالذات ـ فهو هادٍ إلى الحقّ، فهذه الهداية هي التي نسمّيها بالإمامة، وهي الهداية بأمر الله، وهي التي يشرّف بها عدّة من أنبيائه، إذ يقول سبحانه وتعالى: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ كُلّاً هَدَيْنَا وَنُوحاً هَدَيْنَا مِن قَبْلُ وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِ دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَارُونَ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي ٱلْمُحْسِنِينَ * وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِلْيَاسَ كُلٌّ مِنَ ٱلصَّالِحِينَ * وَإِسْمَاعِيلَ وَٱلْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطاً وَكُلّاً فَضَّلْنَا عَلَى ٱلْعَالَمِينَ * وَمِنْ آبَائِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَإِخْوَانِهِمْ وَٱجْتَبَيْنَاهُمْ وَهَدَيْنَاهُمْ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ * ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحَبِطَ عَنْهُم مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ * أُولَٰئِكَ ٱلَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ ٱلْكِتَابَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ فَإِن يَكْفُرْ بِهَا هَٰؤُلَاءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْماً لَيْسُوا بِهَا بِكَافِرِينَ * أُولَٰئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ ٱقْتَدِهْ﴾[٢] الآيات، فسياقها ـ كما ترى ـ يعطي أنّ هذه الهداية معنىً ليس من شأنه أن يتغيّر ويتخلّف، وأنّ هذه الهداية بعد رسول الله لن ترتفع عن أُمّته، بل عن ذرّيّة إبراهيم منهم خاصّة، كما قال: ﴿وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ﴾.[٣]

فإن قلت: قد ذكر سبحانه فيهم موسى وهارون، وهما أهل عصر واحد، ولا معنى لإمامين مقتدَيين في عصر واحد، وكذلك زكريّا ويحيى وعيسى، وكذلك

---

١. يونس (١٠): ٣٥.
٢. الأنعام (٦): ٨٤ ـ ٩٠.
٣. الزخرف (٤٣): ٢٨.

داود وسليمان، وقد مرّ أنّ العصر الواحد لا يكون فيه إلّا إمام واحد.

قلت: إنّما يلغو ذلك إذا كانت الجهة واحدة، وأمّا مع اختلافها ـ كأن يكون كلّ من الإمامين إماماً لأُمّة على حدة، أو يكون هنالك جهتان يسوق كلّ منهما إلى جهة خاصّة ـ فلا محذور، كما يستفاد من دعاء موسى، على ما يحكيه تعالى إذ يقول: ﴿وَٱجْعَلْ لِى وَزِيراً مِنْ أَهْلِى * هَارُونَ أَخِى * ٱشْدُدْ بِهِ أَزْرِى * وَأَشْرِكْهُ فِى أَمْرِى﴾[١] ويقول: ﴿إِنِّى أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ * وَيَضِيقُ صَدْرِى وَلَا يَنطَلِقُ لِسَانِى فَأَرْسِلْ إِلَىٰ هَارُونَ﴾[٢] والكلام في غيرهما قريب ممّا فيهما.

فإن قلت: لو كان كما ذكرت كان رسول الله ـ صلّى الله عليه وآله وسلّم ـ مقتدياً بمن سبقه من الأئمّة، وهم أئمّته؛ إذ يقول تعالى: ﴿فَبِهُدَاهُمُ ٱقْتَدِهْ﴾.[٣]

قلت: إنّه تعالى لم يقل: فبهم اقتده، وإنّما قال: ﴿فَبِهُدَاهُمُ ٱقْتَدِهْ﴾ وقد قال قبله: ﴿ذَٰلِكَ هُدَىٰ ٱللهِ﴾.[٤]

فإن قلت: هب، أنّ الهداية الذاتيّة ثبتت بهذه الآيات، لكنّ الإمامة ـ على ما مرّت ـ هي حقيقة الهداية، وسوق الناس بحسب الحقيقة إلى الله سبحانه، دون الهداية الظاهريّة فقط، فكيف يمكن إثباتها؟

قلت: الاهتداء الذاتي الظاهري لو تمّ بغير الحقيقة ـ بالمعنى الذي عرفت ـ كان المتّصف به مسوقاً بسوق غيره، فكان مقتدياً بحسب الحقيقة، فلا ينفعه اهتداؤه الذاتي، فهو خلف، وقد مرّ ما ينفع في هذا المقام في قوله: ﴿ٱهْدِنَا

---

١. طه (٢٠): ٢٩ ـ ٣٢.
٢. الشعراء (٢٦): ١٢ ـ ١٣.
٣. الأنعام (٦): ٩٠.
٤. الأنعام (٦): ٩٠.

﴿ٱلصِّرَاطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾.[١]

فإن قلت: الهداية من الله، وقد أثبت وقرّر في كلامه، هدايته لجميع المهتدين؛ أعمّ ممّا سمّيته هداية بالذات أو بالغير، فمجرّد نسبة هدايته لجمع من عباده ـ كعدّة من الأنبياء كما في الآيات المزبورة ـ لا يستلزم ثبوت الإمامة.

قلت: نعم، ولكنّه سبحانه ـ مع ذلك ـ نسب هداية بعضٍ ممّن هداه إلى بعض آخر من عباده، كقوله: ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا﴾[٢] وقوله: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾[٣] وهناك بعض آخر لم ينسب هدايتهم إلّا إلى نفسه سبحانه، كبعض الأنبياء ـ عليهم السلام ـ، فعلمنا بذلك أنّ بين الهدايتين فرقاً، وكذا بين الطائفتين من المهتدين، على أنّه تعالى أضاف إلى ذلك أوصافاً أوجبت تميّز الهدايتين، مثل عدم التغيّر والتخلّف والعصمة وغير ذلك، كما يعطيه سياق الآيات، وفيها قوله: ﴿أُولَٰئِكَ ٱلَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ ٱلْكِتَابَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ فَإِنْ يَكْفُرْ بِهَا هَٰؤُلَاءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْماً لَيْسُوا بِهَا بِكَافِرِينَ﴾[٤] فإنّ ظاهرها أنّ هدايتهم نوع خاصّ من الهداية لا ترتفع عن موردها، وهو تعالى حافظها أن تزول عمّا بين الناس، كما يشير إليه قوله: ﴿فَقَدْ وَكَّلْنَا﴾.

ولنرجع إلى بدء الكلام: فقوله تعالى: ﴿وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ﴾[٥] يدلّ على بقاء الإمامة ـ التي هي الهداية ـ في عقب إبراهيم ـ عليه السلام ـ، فقوله عليه السلام في الرواية: «يعني بذلك الإمامة جعلها في عقب الحسين إلى يوم

---

١. الفاتحة (١): ٦.
٢. الأنبياء (٢١): ٧٣.
٣. الشورى (٤٢): ٥٢.
٤. الأنعام (٦): ٨٩.
٥. الزخرف (٤٣): ٢٨.

القيامة»[١] معناه: أنّه تعالى يعني بالكلمة هذه الإمامة التي جعلها في عقب الحسين -عليه السلام-، وليس المراد به إرجاع ضمير «في عقبه» إلى الحسين -عليه السلام- من غير سبق كلاميّ أو مقاميّ، هذا.

وفي *الكافي* عن الصادق -عليه السلام-: إنّ الله -عزّ وجلّ- اتّخذ إبراهيم عبداً قبل أن يتّخذه نبياً، وإنّ الله اتّخذه نبيّاً قبل أن يتّخذه رسولا، وإنّ الله اتّخذه رسولاً قبل أن يتّخذه[٢] خليلاً، وإنّ الله اتّخذه خليلاً قبل أن يتّخذه إماماً، فلمّا جمع له الأشياء قال: ﴿إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَاماً﴾، قال: فمن عِظمها في عين إبراهيم -عليه السلام-: ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِى قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِى ٱلظَّالِمِينَ﴾ قال: لا يكون السفيه إمام التقيّ».[٣]

أقول: وروى هذا المعنى بطريق آخر عنه -عليه السلام- أيضاً[٤] وبطريق آخر عن الباقر[٥] -عليه السلام- ورواه المفيد أيضاً عن الصادق[٦] -عليه السلام-.

قوله: «إنّ الله اتّخذه عبداً قبل أن يتّخذه نبيّاً»، يستفاد ذلك من قوله تعالى في سورة الأنبياء: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ﴾ -إلى قوله:- ﴿مِنَ ٱلشَّاهِدِينَ﴾[٧] وهو اتّخاذ للعبوديّة.

وقوله: «اتّخذه نبيّاً قبل أن يتّخذه رسولاً» يستفاد ذلك من قوله في سورة

---

١. *معاني الأخبار*: ١٢٦ - ١٢٧، الحديث: ١.

٢. في المصدر: «أن يجعله»

٣. *الكافي* ١: ١٧٦، الحديث: ٢.

٤. *الكافي* ١: ١٧٥ - ١٧٦، الحديث: ١.

٥. *الكافي* ١: ١٧٦، الحديث: ٤.

٦. *الاختصاص*: ٢٢.

٧. الأنبياء (٢١): ٥٦.

طه: ﴿وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقاً نَّبِيّاً * إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَاأَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِى عَنكَ شَيْئاً﴾[١] وهو أوّل أمر إبراهيم لموضع قوله: ﴿إِذْ قَالَ﴾.

وقوله ـ عليه السلام ـ: «اتّخذه رسولاً قبل أن يتّخذه خليلاً»، يستفاد ذلك من آيات كثيرة، غير أن الرسالة لمّا كانت أخصّ من النبوّة ـ على ما سيجيء ـ كان إثبات نبوّته فقط ـ كما في الآيات السابقة ـ هوالمحتاج إليه بعد ظهور رسالته في كثير من موارد الآيات، كما لا يخفى.

وقوله ـ عليه السلام ـ: «اتّخذه خليلاً قبل أن يتّخذه إماماً»، يستفاد ذلك من قوله سبحانه: ﴿وَٱتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفاً وَٱتَّخَذَ ٱللهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلاً﴾،[٢] حيث إنّ الظاهر أنّ اتّخاذه ايّاه خليلاً بعد ما صار ذا ملّة حنيفيّة وبسببها، وإنّما صار كذلك بعد ما كان رسولاً إذ المقام مقام بيان شرف هذه الملّة الحنيفيّة التي تشرّف بسببها إبراهيم ـ عليه السلام ـ بالخلّة.

وقد وصف هذه الملّة بالحَنَف، وهو مَيل في القدم، لميلها عن الشرك إلى التوحيد على ما يعطيه قصص إبراهيم ـ عليه السلام ـ وسيجيء بيانه إن شاء الله تعالى.

والخليل من الخلّة؛ وهو: الفقر والحاجة، وبه سمّي الخليل ـ وهو الصديق ـ خليلاً، وأحد المتحابّين يسمّى صديقاً إذا صدق في معاشرته ومؤانسته، ثمّ يصير خليلاً لقَصْره حوائجه على صديقه وبالعكس، فهما خليلان.

ولإبراهيم ـ عليه السلام ـ منصب آخر بيّنه بقوله سبحانه: ﴿وَلَقَدِ ٱصْطَفَيْنَاهُ فِى

---

١. مريم (١٩): ٤١ ـ ٤٢.

٢. النساء (٤): ١٢٥.

ٱلدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِى ٱلْآخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّالِحِينَ * إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَالَمِينَ﴾(١) وقال تعالى فيه وفي إسحاق ويعقوب: ﴿وَإِنَّهُمْ عِندَنَا لَمِنَ ٱلْمُصْطَفَيْنَ ٱلْأَخْيَارِ﴾(٢) فهو مصطفى بإسلامه، ويشعر به أيضاً قوله: ﴿وَوَصَّىٰ بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَا بَنِيَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنْتُم مُسْلِمُونَ﴾(٣) فالمصطفى هو الدين، وإبراهيم ـ عليه السلام ـ صار مصطفى بتحقّقه التامّ بالدين، فمقام الاصطفاء هو مقام التحقّق التامّ بالدين، وإنّ الدين عند الله الإسلام.

وإذا عرفت هذا علمت أنّ مدلول قوله: ﴿وَٱتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفاً وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلاً﴾(٤) أنّ الخلّة مقام متأخّر عن مقام الاصطفاء، حيث جعله وصفاً له متفرّعاً على الملّة والحَنَف جميعاً، فافهم ذلك.

فمقام الخلّة متأخّر عن الدين والاصطفاء، المتفرعين على النبوّة والرسالة جميعاً، وقد عرفت أنّ الإمامة ـ وهي الاهتداء بالله، والهداية بأمر الله ـ أمر وراء هذه الأُمور جميعاً، ومَحْتِدها ومنشأها غير ما لتلك، وقد قال سبحانه: ﴿إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَاماً﴾ وهو وحي.

وأيضاً معظم الابتلاءات التي وقعت له ـ عليه السلام ـ كانت في زمان نبوّته ورسالته على ما يحكيه سبحانه في كلامه، فالإمامة آخر هذه المقامات المعدودة؛ أعني العبوديّة والنبوّة والرسالة والخلّة ثمّ الإمامة.

---

١. البقره (٢): ١٣٠.

٢. ص (٣٨): ٤٧.

٣. البقرة (٢): ١٣٢.

٤. النساء (٤): ١٢٥.

ولئن تدبّرت قصصه الواقعة في سورة الأنبياء، وجدت ترتّب هذه المقامات ظاهره، إذ يختتم بقوله سبحانه: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً وَكُلّاً جَعَلْنَا صَالِحِينَ * وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ ٱلْخَيْرَاتِ وَإِقَامَ ٱلصَّلَاةِ وَإِيتَاءَ ٱلزَّكَاةِ وَكَانُوا لَنَا عَابِدِينَ﴾[1] ومعظم آثار الإمامة مستفادة منها.

وروى المفيد عن درست وهشام عنهم ـ عليهم السلام ـ قال ـ عليه السلام ـ: «قد كان إبراهيم ـ عليه السلام ـ نبيّاً وليس بإمام؛ حتى قال الله تبارك وتعالى: ﴿إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَاماًقَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي﴾ فقال الله تبارك وتعالى: ﴿لَا يَنَالُ عَهْدِي ٱلظَّالِمِينَ﴾ من عبد صنماً أو وثناً أو مثالاً لا يكون إماماً».[2]

أقول: وقد ظهر معناه ممّا مرّ، وقد عرفت من مطاوي ما تقدّم أنّ الإمامة منصب إلٰهيّ موقوف على أهلها، وسيجيء أنّ النبوّة أيضاً كذلك، وليستا كسائر مقامات الولاية.

فهذا ملخّص الكلام في الإمامة، وسيجيء التعرّض لمتفرّقات أحكامها وما يتعلّق بها في ذيل الآيات المربوطة بها.

*

١. الأنبياء (٢١): ٧٢ ـ ٧٣.

٢. الاختصاص: ٢٢ ـ ٢٣.

[وَإِذْ جَعَلْنَا ٱلْبَيْتَ مَثَابَةً لِلنَّاسِ وَأَمْناً وَٱتَّخِذُوا مِنْ مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى وَعَهِدْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَنْ طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَٱلْعَاكِفِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ ﴿١٢٥﴾]

قوله سبحانه: ﴿وَإِذْ جَعَلْنَا ٱلْبَيْتَ مَثَابَةً لِلنَّاسِ...﴾

المثابة: هي المرجع، من ثاب: إذا رجع. يشير سبحانه إلى تشريع الحجّ.

وقوله: ﴿أَمْناً﴾

إشارة إلى تشريع الأمن، على ما دعا به إبراهيم ـ عليه السلام ـ في قوله: ﴿رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا بَلَداً آمِناً﴾[1] إلى آخره.

وقوله: ﴿وَٱتَّخِذُوا مِنْ مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى﴾

كأنّه عطف على صدر الآية بتقدير «واذكروا»، ولا حاجة إلى تقدير الفعل، حتّى يكون تقدير الكلام: «وقلنا: اتخذوا» إلى آخره. فالظاهر أنّ هذه الصلاة

---

١. البقرة (٢): ١٢٦.

المشرَّعة مخصوصة بهذه الأُمّة.

وكيف كان فتعقيب قوله: ﴿وَإِذْ جَعَلْنَا ٱلْبَيْتَ﴾ بقوله: ﴿وَٱتَّخِذُوا﴾ يومى إلى مناط التشريع، وهو جعل البيت مثابةً وأمناً؛ ولذلك لم يتعلّق الأمر بالصلاة في المقام، وإنّما تعلّق باتّخاذ المصلّى منه.

روي في *الكافي* عن الكناني قال: «سألت أبا عبد الله ـ عليه السلام ـ عن رجل نسي أن يصلّي الركعتين عند مقام إبراهيم ـ عليه السلام ـ في طواف الحجّ والعمرة، فقال ـ عليه السلام ـ: إن كان بالبلد صلّى الركعتين[1] عند مقام إبراهيم ـ عليه السلام ـ؛ فإنّ الله ـ عزّ وجلّ ـ يقول: ﴿وَٱتَّخِذُوا مِنْ مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى﴾ وإن كان قد ارتحل فلا آمره أن يرجع».[2]

أقول: وروى قريباً منه الشيخ في *التهذيب*[3] والعيّاشي في تفسيره[4] بعدّة أسانيد، وخصوصيّات الحكم ـ وهو الصلاة عند المقام أو خلفه، كما في بعض الروايات: «ليس لأحد أن يصلّي ركعتي طواف الفريضة إلّا خلف المقام»، مستفادة من لفظة ﴿مِنْ﴾ و﴿مُصَلًّى﴾ في قوله: ﴿وَٱتَّخِذُوا مِنْ مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى﴾.

قوله سبحانه: ﴿وَعَهِدْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ...﴾

روى القمّي في تفسيره عن الصادق ـ عليه السلام ـ: «يعني» نحِّ عنه[5] المشركين».[6]

---

١. في المصدر: «ركعتين»

٢. *الكافي* ٤: ٤٢٥، الحديث: ١.

٣. تهذيب *الأحكام* ٥: ١٣٩، الحديث: ١٣٠.

٤. تفسير *العياشي* ١: ٥٨، الحديث: ٩١.

٥. في المصدر: «نحي عن»

٦. تفسير *القمي* ١: ٥٩.

وفي *الكافي* عن الصادق ـ عليه السلام ـ قال: «إنّ الله يقول في كتابه: ﴿طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَٱلْعَاكِفِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ﴾ فينبغي للعبد أن لا يدخل مكّة إلّا وهو طاهر، قد غسل عَرَقه والأذى وتطهّر».[١]

أقول: وهذا المعنى مرويّ في عدّة روايات أُخر[٢] واستفادة طهارة الوارد من طهارة المورد ربّما تمّت من آيات أُخر، كقوله تعالى: ﴿وَٱلطَّيِّبَاتُ لِلطَّيِّبِينَ﴾[٣] ونحوها.

وفي *المجمع* عن ابن عبّاس قال: «لمّا أتى إبراهيم ـ عليه السلام ـ بإسماعيل ـ عليه السلام ـ وهاجر، فوضعهما بمكة، وأتت على ذلك مدّة ونزلها الجرهميّون، وتزوّج إسماعيل ـ عليه السلام ـ إمرأة منهم، وماتت هاجر، واستأذن إبراهيم ـ عليه السلام ـ سارة أن تأتي هاجر، فأذنت له وشرطت عليه أن لا ينزل.

فقدم إبراهيم ـ عليه السلام ـ، وقد ماتت هاجر، فذهب إلى بيت إسماعيل ـ عليه السلام ـ، فقال لامرأته: أين صاحبك؟ قالت: ليس هو هاهنا،[٤] ذهب يتصيّد، وكان إسماعيل ـ عليه السلام ـ يخرج من الحرم يتصيّد و[٥]يرجع، فقال لها إبراهيم ـ عليه السلام ـ: هل عندك ضيافة؟ قالت: ليس عندي شيء وما

---

١. *الكافي* ٤: ٤٠٠، الحديث:٣.

٢. *تهذيب الأحكام* ٥: ٩٨، الحديث:٦، ٥: ٢٥١، الحديث:١٢؛ *علل الشرائع* ٢: ٤١١، الحديث ١، الباب ١٥١؛ *تفسير العيّاشي* ١: ٥٩، الحديث:٩٥؛ *وسائل الشيعة* ١٣: ٢٠٠، الحديث: ١٧٥٦٤.

٣. النور (٢٤): ٢٦.

٤. في المصدر: «هنا»

٥. في المصدر: «فيصيدثم»

عندي أحد، فقال لها إبراهيم ـعليه السلام ـ: إذا جاء زوجك، فاقرئيه السلام وقولي له: فليغيّر عتبة بابِه، وذهب إبراهيم ـعليه السلام ـ.

فجاء إسماعيل ـعليه السلام ـ ووجد ريح أبيه، فقال لامرأته: هل جاءك أحد؟ قالت: جاءني شيخ صفته كذا وكذا، كالمستخفّة بشأنه، قال: فما قال لك؟ قالت: قال لي: إقرئي زوجك السلام وقولي له: فليغيّر عتبة بابه، فطلّقها وتزوّج أُخرى.

فلبث إبراهيم ما شاء الله أن يلبث، ثمّ استأذن سارة أن يزور إسماعيل، وأذنت[1] له واشترطت عليه أن لا ينزل، فجاء إبراهيم ـعليه السلام ـ حتى انتهى إلى باب إسماعيل، فقال لامرأته: أين صاحبك؟ قالت: يتصيّد وهو يجيء الآن إن شاء الله، فأنزِل يرحمك الله، قال لها: هل عندك ضيافة؟ قالت: نعم. فجاءت باللبن واللحم، فدعا لها بالبركة، فلو جاءت يومئذٍ بخبز أو برّ أو شعير أو تمر، لكان أكثر أرض الله برّاً وشعيراً وتمراً.

فقالت له: أُنزل حتّى أغسل رأسك، فلم ينزل، فجاءت بالمقام فوضعته على شقّه الأيمن، فوضع قدمه عليه، فبقي أثر قدمه عليه، فغسلت شقّ رأسه الأيمن، ثمّ حوّلت المقام إلى شقّ رأسه الأيسر،[2] فغسلت شق رأسه الأيسر، فبقي أثر قدمه عليه، فقال لها: إذا جاء زوجك فاقرئيه منّي السَّلام وقولي له: قد استقامت عتبة بابك.

فلمّا جاء إسماعيل ـعليه السلام ـ وجد ريح أبيه، فقال لامرأته: هل جاءك أحد؟ قالت: نعم، شيخ أحسن الناس وجهاً، وأطيبهم ريحاً، وقال لي كذا وكذا،

---

١. في المصدر: «فأذنت»
٢. في المصدر: «شقّه الأيسر»

وقلت له كذا، وكذا وغسلت رأسه، وهذا موضع قدميه على المقام، قال لها إسماعيل ـ عليه السلام ـ: ذاك إبراهيم ـ عليه السلام ـ». [١]

أقول: والرواية مرويّة من طريق الخاصة أيضاً، روى القمّي قريباً منها في تفسيره عن الصادق ـ عليه السلام ـ. [٢]

*

---

١. *مجمع البيان* ١: ٣٨١ ـ ٣٨٢.

٢. *تفسير القمي* ١: ٦٠ ـ ٦٢.

[وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هٰذَا بَلَداً آمِناً وَٱرْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ ٱلثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُمْ بِاللهِ وَٱلْيَومِ ٱلآخِرِ قَالَ وَمَنْ كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلاً ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَى عَذَابِ ٱلنَّارِ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ (١٢٦)]

قوله سبحانه: ﴿رَبِّ ٱجْعَلْ هَذَا بَلَداً آمِناً...﴾

وحكى سبحانه نظير هذا الدعاء عنه ـعليه السلام ـ في سورة إبراهيم بقوله: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هٰذَا ٱلْبَلَدَ آمِناً وَٱجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلأَصْنَامَ * رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيراً مِنَ ٱلنَّاسِ فَمَنْ تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ * رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ ٱلْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا ٱلصَّلاَةَ فَٱجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ ٱلنَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَٱرْزُقْهُم مِنَ ٱلثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ﴾.[1]

واختصاص الدعوة هناك بالذرّيّة لا يقضي بكونه دعاءاً آخر، فلعلّه من باب انتزاع الخاصّ من العامّ في الحكاية لشمول الدعوة، وقد وقع نظيره في سورة الحجّ في قوله: ﴿وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ﴾[2] وهو أمرٌ مأخوذ من قوله في الآية

---

١. إبراهيم (١٤): ٣٥ ـ ٣٧.

٢. الحج (٢٢): ٢٦.

السابقة: ﴿أَنْ طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ﴾[1] هذا.

وهو مع ذلك دعاء بعد صيرورة الأرض ـ أرض مكة ـ بلداً، لمكان قوله: ﴿هَٰذَا الْبَلَدَ﴾ ولقوله بعده: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ﴾.[2]

ولم يخصّ الدعاء هناك بالمؤمنين، دون ما ها هنا؛ لانّ الدعوة مخصوصة هناك بالذرّيّة، وقد دعا لهم بالإسلام في قوله: ﴿وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ الْأَصْنَامَ﴾.[3]

وكذلك المنقول في هذه الآية من الدعاء إنّما هو بعد بناء البلد، والشاهد عليه قوله تعالى: ﴿رَبِّ اجْعَلْ هَٰذَا بَلَدًا﴾ ولم يقل: اجعل ها هنا بلداً وهو ظاهر.

*

١. البقرة (٢): ١٢٥.
٢. إبراهيم (١٤): ٣٩.
٣. إبراهيم (١٤): ٣٥.

[﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ ١٢٧]

قوله سبحانه: ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ﴾

روى القمّي عن الصادق ـ عليه السلام ـ قال: «إنّ إبراهيم كان نازلاً في بادية الشام، فلمّا ولد له من هاجر إسماعيل، اغتمّت سارة من ذلك غمّاً شديداً؛ لأنّه لم يكن لها[1] ولد، وكانت تؤذي إبراهيم في هاجر وتغمّه، فشكا إبراهيم ذلك إلى الله ـ عزّ وجلّ ـ، فأوحى الله إليه: مَثَل المرأة مَثَل الضلع العوجاء إن تركتها استمتعت[2] بها، وإن أقمتها كسرتها.

ثمّ أمره أن يُخرج إسماعيل وأمّه، فقال: يا ربّ إلى أيّ مكان؟ فقال: إلى حَرَمي وأمني وأوّل بقعة خلقتها من الأرض وهي مكّة، فأنزل الله عليه جبرئيل بالبراق، فحمل هاجر وإسماعيل وإبراهيم، وكان إبراهيم لا يمرّ بموضع حسن فيه شجر وزرع ونخل إلّا وقال: يا جبرئيل إلى هاهنا إلى هاهنا؟ فيقول

---

١. في المصدر: «لم يكن له منها»

٢. في المصدر: «استمتعتها»

جبرئيل[١]: لا امض امض، حتّى وافى[٢] مكّة، فوضعه في موضع البيت.

وقد كان إبراهيم عاهد سارة أن لا ينزل حتّى يرجع إليها، فلمّا نزلوا في ذلك المكان كان فيه شجر، فألقت هاجر على ذلك الشجر كساءاً كان معها، فاستظلّوا تحته، فلمّا سرّحهم إبراهيم ووضعهم، أراد الانصراف عنهم[٣] إلى سارة، قالت له هاجر: يا إبراهيم، أتدعنا[٤] في موضع ليس فيه أنيس ولا ماء ولا زرع؟! فقال إبراهيم: الله الذي أمرني أن أضعكم في هذا المكان، هو يكفيكم.[٥]

ثمّ انصرف عنهم، فلمّا بلغ كداء ـ وهو جبل بذي طوى ـ التفت إبراهيم فقال: ﴿رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ﴾[٦] ثمّ مضى وبقيت هاجر.

فلمّا ارتفع النهار عطش إسماعيل، فقامت هاجر في موضع السّعي[٧] فصعدت على الصفا، ولمع لها السّراب في الوادي فظنّت أنّه ماء، فنزلت في بطن الوادي وسعت، فلمّا بلغت المروة غاب عنها إسماعيل، عادت حتى بلغت الصفا فنظرت... حتى فعلت ذلك سبع مرّات، فلمّا كان في الشوط السابع ـ وهي على المروة ـ نظرت إلى إسماعيل وقد ظهر الماء من تحت رجليه، فعادت حتّى

---

١. في المصدر: ـ «جبرئيل»
٢. في المصدر: «أتى»
٣. في المصدر: «منهم»
٤. في المصدر: «لم تدعنا»
٥. في المصدر: ـ «هو بكيفيكم»
٦. إبراهيم (١٤): ٣٧.
٧. في المصدر: «المسعى»

جمعت حوله رملاً، فإنّه كان سائلاً فزمَّته بما جعلته حوله؛ فلذلك سمّيت زمزم.

وكانت جرهم نازلة بذي المجاز وعرفات، فلمّا ظهر الماء بمكّة عكفت الطير والوحش على الماء، فنظرت جرهم إلى تعكّف الطير والوحش على ذلك المكان، فاتّبعتها[١] حتّى نظروا إلى إمرأة وصبيّ نازلين في ذلك الموضع، قد استظلّا[٢] بشجرة، وقد ظهر الماء لهما، فقالوا لهاجر: من أنت؟ وما شأنك وشأن هذا الصبيّ؟ فقالت: أنا أُمّ ولد إبراهيم خليل الرحمن، وهذا إبنه، أمره الله أن ينزلنا هاهنا.

فقالوا لها: أتأذنين[٣] لنا أن نكون بالقرب منكم[٤]؟ فقالت لهم: حتى يأتي إبراهيم، فلمّا زارهم إبراهيم اليوم الثالث قالت هاجر: يا خليل الله! إنّ هاهنا قوماً من جرهم، يسألونك أن تأذن لهم حتى يكونوا بالقرب منّا، أفتأذن لهم في ذلك؟ فقال إبراهيم: نعم. فأذنت هاجر لهم، فنزلوا بالقرب منهم وضربوا خيامهم، فأنست هاجر وإسماعيل بهم.

فلمّا زارهم إبراهيم في المرّة الثانية،[٥] نظر إلى كثرة الناس حولهم، فسُرّ بذلك سروراً شديداً، فلمّا تحرّك[٦] إسماعيل وكانت جرهم قد وهبوا لإسماعيل كلّ واحد منهم شاة وشاتين، فكانت هاجر وإسماعيل يعيشان بها.

فلمّا بلغ إسماعيل مبلغ الرجال أمر الله إبراهيم أن يبني البيت، فقال: يا ربّ في أيّ بقعة؟ قال: في البقعة التي أنزلت على آدم القبّة فأضاء لها الحرم، فلم تزل

---

١. في المصدر: «فاتبعوها»
٢. في المصدر: «استظلّوا»
٣. في المصدر: «أفتأذني»
٤. في المصدر: «منكما»
٥. في المصدر: «الثالثة»
٦. في المصدر: «ترعرع»

البقعة التي أنزلها الله على آدم قائمة، حتّى كانت أيّام الطوفان أيّام نوح، فلمّا غرقت الدنيا رفع الله تلك القبّة وغرقت الدنيا إلّا موضع البيت، فسمّي[١] البيت العتيق؛ لأنّه أُعتق من الغرق.

فلمّا امر الله -عزّ وجلّ- إبراهيم أن يبني البيت لم يدر في أيّ مكان يبنيه، فبعث الله جبرئيل وخطّ له موضع البيت، فأنزل الله عليه القواعد من الجنّة، وكان الحجر الذي أنزل الله على آدم أشدّ بياضاً من الثلج، فلمّا مسّته[٢] أيدي الكفّار اسودّ، فبنى إبراهيم البيت ونقل إسماعيل الحجر من ذي طوى فرفعه في[٣] السماء تسعة أذرع، ثمّ دلّه على موضع الحجر فاستخرجه إبراهيم ووضعه في موضعه الذي هوفيه الآن.[٤]

فلمّا بني[٥] جعل له بابين: باباً إلى المشرق وباباً إلى المغرب، والباب الذي إلى المغرب يسمّى المستجار، ثمّ ألقى عليه الشجر والإذخر، وألقت هاجر على بابه كساءاً كان معها وكانوا يكونون تحته.

فلمّا بنى[٦] وفرغ منه حجّ إبراهيم وإسماعيل ونزل عليهما جبرئيل -عليه السلام- يوم التروية لثمان من ذي الحجّة، فقال: يا إبراهيم قم وارتو من الماء؛ لأنّه لم يكن بمنى وعرفات ماء، فسمّيت التروية لذلك، ثم أخرجه إلى منى فبات بها، ففعل به ما فعل بآدم.

---

١. في المصدر: «فسميت»

٢. في المصدر: «لمسته»

٣. في المصدر: «الى»

٤. في المصدر: «الاوّل»

٥. في المصدر: «فلما بنى»

٦. في المصدر: «بناه»

فقال إبراهيم لمّا فرغ من بناء البيت: ﴿رَبِّ ٱجْعَلْ هٰذَا بَلَداً آمِناً وَٱرْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ ٱلثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُمْ بِاللهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلآخِرِ﴾.[١] قال ـعليه السلام ـ: من ثمرات القلوب أي حبّبهم إلى الناس ليستأنسوا بهم،[٢] ويعودوا إليهم».[٣]

وفي *الكافي* عن أحدهما ـ عليهما السلام ـ قال: «إنّ الله ـعزّ وجلّ ـ أمر إبراهيم ببناء الكعبة، وأن يرفع قواعدها، ويري الناس مناسكهم، فبنى إبراهيم وإسماعيل البيت كلّ يوم سافاً؛ حتى انتهى إلى موضع الحجر الأسود، قال أبو جعفر ـعليه السلام ـ: فنادى أبو قبيس: إنّ لك عندي وديعة، فأعطاه الحجر، فوضعه موضعه...»[٤] الحديث.

أقول: وقريب من هذه المعاني مرويّ عن طرق العامّة[٥] أيضاً.

قوله ـعليه السلام ـ في الحديث الأوّل: «فالتفت إبراهيم، فقال: ﴿رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنتُ...﴾» إلى آخره، لا ينافي ما استظهرنا من دعائه المحكي في سورة إبراهيم: أنّ ذلك صادر واقع بعد ذلك الزمان بكثير؛ لاحتمال الورود مرّتين.

قوله ـعليه السلام ـ: «في البقعة التي أنزلتُ على آدم القبّة...» إلى آخره، الأخبار في نزول البيت لآدم وحجّه وتقرّبه بزيارته كثيرة مستفيضة، وإن لم تبلغ حدّ التواتر، ولا برهان على استحالة ذلك، على أنّه سبحانه خصّ أنبياءه بكثير من هذه الكرامات الخارقة، والقرآن يثبت موارد كثيرة منها، ورواها

---

١. البقرة (٢): ١٢٦.

٢. في المصدر: «ليثتابوا إليهم»

٣. تفسير *القمي* ١: ٦٠ ـ ٦٢.

٤. *الكافي* ٤: ٢٠٥ الحديث: ٢؛ من لا يحضره *الفقيه* ٢: ٢٣٢، الحديث: ٢: ٢٢٨ (اختصاراً)؛ *وسائل الشيعة* ١٣: ٢١٢، الحديث: ١٧٥٣٨.

٥. *تاريخ ابن خلدون*، المقدمة، ٢: ٣٣١ ـ ٣٣٢؛ *الحد الفاصل*: ٣٩٦.

الفريقان في أحاديث متفرّقة في الأبواب.

قوله ـ عليه السلام ـ: «فأنزل الله عليه القواعد من الجنّة ...» إلى آخره، نزول القواعد ـ وهي أحجار أرضيّة وأجسام طبيعية مادّيّة ـ من الجنّة له نظائر كثيرة واردة فيها.

وقد روى العيّاشي عن الثوري عن أبي جعفر ـ عليه السلام ـ قال: «سألته عن الحجر، فقال: نزلت ثلاثة أحجار من الجنّة: الحجر الأسود استودعه إبراهيم، ومقام إبراهيم، وحجر بني إسرائيل. قال أبو جعفر ـ عليه السلام ـ: إنّ الله استودع إبراهيم الحجر وكان أشد بياضاً من القراطيس، فاسودّ من خطايا بني آدم.[1] ...» الخبر.

بل على المقابلة ورد في بعض الأشياء: أنّه من جهنّم ومن فورة الجحيم، من الأغذية والنبات والإنسان، وطينة المؤمن والكافر، وبعض المياه والأنهار، ومن هذا الباب ما ورد: أنّ جنّة الدنيا في بعض الأماكن ونارها في آخر،[2] وأنّ القبر إمّا روضة من رياض الجنّة أو حفرة من حفر النار،[3] هذا.

وقد ورد في القرآن نزول جميع الأشياء من عنده تعالى؛ حيث قال: ﴿وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ﴾[4] وورد بالخصوص في الأنعام، قال: ﴿مِنَ الْأَنْعَامِ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ﴾[5] وفي الحديد قال سبحانه: ﴿وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ﴾[6]

---

١. تفسير *العيّاشي* ١: ٥٩، الحديث: ٩٣؛ بحار *الأنوار* ٩٦: ٢٢٧، الحديث: ٢٧، الباب: ٤٠.

٢. *الكافي* ٣: ٢٤٦، باب جنّة الدنيا؛ *تفسير القمي* ١: ٣٣٧؛ بحار *الأنوار* ١: ٢٨٢، الباب: ٩.

٣. *الكافي* ٣: ٢٤٢، الحديث: ٢؛ *الاختصاص*: ٣٤٧ و ٣٥٩؛ *إرشاد القلوب* ١: ٧٤؛ *الأمالي* للطوسي: ٢٧، الحديث: ٣١؛ *الأمالي* للمفيد: ٢٦٥، الحديث: ١؛ تفسير *القمي* ٢: ٩٤.

٤. الحجر (١٥): ٢١.

٥. الزمر (٣٩): ٦.

٦. الحديد (٥٧): ٢٥.

وإذ كان كلّ شيء نازلاً من عنده سبحانه ـ وقد بيّن أنّ كلّ شيء يعود إلى ما بدأ منه، على ما سيجيء توضيحه إن شاء الله، وأنّ الشيء بين بدئه وعوده يجري على ما يستدعيه بدؤه، ﴿قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِ﴾،[1] ﴿وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا﴾[2] ـ انكشف من هنا: أنّ بعض الأشياء القرينة في هذه الدار بالقرب والرحمة والنعمة وتقريب العباد من الله سبحانه، أنّها نزلت من مقام القرب والرحمة وهي الجنّة، والبعض الكائن بالعكس من هذه المعاني نازل من مقام البعد والنقمة وموطن الغضب وهي جهنّم، فعلى هذا جرت لسان الأخبار.

قوله ـ عليه السلام ـ قال: «من ثمرات القلوب» هذا يؤيّد ما ذكرناه آنفاً: أنّ دعاءه الوارد في سورة إبراهيم دعاء خاصّ بالذرّيّة، مأخوذ في النقل من هذا الدعاء العامّ الشامل لهم ولغيرهم عن أهل مكّة، حيث وضع هناك بدل قوله تعالى: ﴿وَٱرْزُقْهُم مِنَ ٱلثَّمَرَاتِ﴾[3] قوله: ﴿فَٱجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ ٱلنَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَٱرْزُقْهُم مِنَ ٱلثَّمَرَاتِ﴾[4]!

وكيف كان فتفسير الثمرات بثمرات القلوب من قبيل عدّ المصداق دون التخصيص به، ويشهد عليه ما في *المجمع* عن الباقر ـ عليه السلام ـ: «إنّ المراد بذلك أنّ الثمرات تحمل إليهم من الآفاق»[5] الحديث، وكما في قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ نُمَكِّن لَهُمْ حَرَماً آمِناً يُجْبَىٰ إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ﴾.[6]

---

١. الإسراء (١٧): ٨٤.
٢. البقرة (٢): ١٤٨.
٣. إبراهيم (١٤): ٣٧.
٤. إبراهيم (١٤): ٣٧.
٥. *مجمع البيان* ١: ٣٨٥؛ *بحار الأنوار* ١٢: ٨٦، الباب: ٥.
٦. القصص (٢٨): ٥٧.

وفي *تفسير العيّاشي* قال الحلبي: «سئل أبو عبد الله ـ عليه السلام ـ عن البيت، أكان يُحجّ قبل أن يُبعث النبي ـ صلّى الله عليه وآله وسلّم ـ؟ قال: نعم، وتصديقه في القرآن قول شعيب حين قال لموسى حيث تزوّج: ﴿عَلَىٰٓ أَن تَأۡجُرَنِي ثَمَٰنِيَ حِجَجٖ﴾[١] ولم يقل: ثماني سنين، وإنّ آدم ونوحاً حجّا وسليمان بن داود قد حجّ البيت بالجنّ والإنس والطير والريح، وحجّ موسى على جمل أحمر يقول: لبّيك لبّيك، وإنّه كما قال الله: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيۡتٖ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكٗا وَهُدٗى لِّلۡعَٰلَمِينَ﴾[٢] وقال: ﴿وَإِذۡ يَرۡفَعُ إِبۡرَٰهِـۧمُ ٱلۡقَوَاعِدَ مِنَ ٱلۡبَيۡتِ وَإِسۡمَٰعِيلُ﴾ وقال: ﴿أَن طَهِّرَا بَيۡتِيَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلۡعَٰكِفِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ﴾[٣] وأنّ الله أنزل الحجر لآدم وكان البيت».[٤]

أقول: تمسّكه بالآيات يقضي بأنّه ـ عليه السلام ـ فهم من قوله تعالى في الآية الأولى ﴿وُضِعَ لِلنَّاسِ﴾ غير الوضع للعبادة والنسك، بل مطلق الوضع وبناء البيت، وهو كذلك؛ للإطلاق من غير موجب للتقييد.

ومن قوله تعالى: ﴿ٱلۡقَوَاعِدَ مِنَ ٱلۡبَيۡتِ﴾ أنّ كلمة «من» نشويّة غير بيانيّة؛ إذ البيت غير القواعد، والنسبة بينهما نسبة الكلّ والجزء، والبيان بهذا النحو خلاف الظاهر، والجدار من البيت يرفع، والبيت يرفع بالبناء، وأمّا السافات وقاعدة البيت ـ وهي أساسه ـ فلا يصدق فيها الرفع إلّا برفع الأجزاء من الأرض، ووضعها موضعها إذا خربت العمارة وانهدمت وبقي أثرها، وقد احتمل هذا

١. القصص (٢٨): ٢٧.
٢. آل عمران (٣): ٩٦.
٣. البقرة (٢): ١٢٥.
٤. *تفسير العيّاشي* ١: ٦٠، الحديث: ٩٩؛ *بحار الأنوار* ٩٦: ٦٤، الحديث: ٤١، الباب: ٥.

المعنى الزمخشري في *الكشّاف*.[١]

وإلى هذا المعنى يشير ما في *تفسير العيّاشي* عن الصادق ـ عليه السلام ـ: «إنّ الله أنزل الحجر الأسود من الجنّة لآدم، وكان في البيت درّة بيضاء، فرفعه الله إلى السماء وبقي أساسه، فهو حيال هذا البيت، وقال ـ عليه السلام ـ: يدخله كلّ يوم سبعون ألف ملك لا يرجعون إليه أبداً، فأمر الله إبراهيم وإسماعيل أن يبنيا البيت على القواعد»[٢] الخبر.

ولا ينافيه ما مرّ في بعض الأخبار: أنّ جبرئيل خطّ لهما ـ عليهما السلام ـ موضع البيت،[٣] وهو ظاهر.

ومن قوله: ﴿أَنْ طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ﴾[٤] التطهير بإزالة الأرجاس والأنجاس الظاهرة والباطنة وبنائه وتعميره، ويوضّحه كون التطهير للطائفين، فظاهره أنّ البيت كان موجوداً ولوبالأثر والأساس ولمّا يحم حوله الطائفون والعاكفون ولمّا يناد إبراهيم ـ عليه السلام ـ بالحجّ، وهو ـ عليه السلام ـ بعد ما فرغ عن بنائه على الأساس أذّن في الناس بالحجّ، فالبيت قد كان بوجود أساسه وأثره قبل بناء إبراهيم ـ عليه السلام ـ، فافهم.

*

١. *الكشاف* ١: ٩٤.
٢. تفسير *العيّاشي* ١: ٦٠، الحديث: ٩٨؛ بحار *الأنوار* ١٢: ٨٦، الباب: ٥.
٣. تفسير *القمي* ١: ٦٣.
٤. البقرة (٢): ١٢٥.

[رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٢٨﴾ رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَابَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٢٩﴾]

قوله سبحانه: ﴿رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا...﴾

في *تفسير العيّاشي* عن الزبيري عن أبي عبدالله ـ عليه السلام ـ قال: «قلت له: أخبرني عن أُمّة محمّد ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ من هم؟ قال: أُمّة محمّد ـ صلّى الله عليه وآله وسلّم ـ بنوهاشم خاصّة. قلت: فما الحجّة في أُمّة محمد ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ أنّهم أهل بيته الذين ذكرت، دون غيرهم؟ قال: قول الله ـ عزّ وجلّ ـ: ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ * رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾.[1]

---

١. البقرة (٢): ١٢٧ ـ ١٢٨.

فلمّا أجاب الله إبراهيم وإسماعيل، وجعل من ذرّيّتهما أُمّة مسلمة، وبعث فيها رسولاً منهم[1] يعني من تلك الأمّة ـ يتلو عليهم آياته ويزكّيهم ويعلّمهم الكتاب والحكمة، وردف دعوته الأولى بدعوته الأُخرى، فسأل لهم تطهيراً من الشرك ومن عبادة الأصنام، ليصحّ أمره فيهم ولا يتّبعوا غيرهم، فقال: ﴿وَٱجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ * رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيراً مِّنَ ٱلنَّاسِ فَمَن تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.[2]

فهذه دلالة على أنّه لا يكون الأئمّة والأُمّة المسلمة التي بعث فيها محمداً ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ إلّا من ذرّيّة إبراهيم؛ لقوله: ﴿وَٱجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ﴾.[3]

أقول: استدلاله ـ عليه السلام ـ في غاية الظهور، وقوله ـ عليه السلام ـ: «إنّ الأئمّة أيضاً كالأُمّة المسلمة لا تكون إلّا من ذريّة إبراهيم»، إنّما استفاده من التعليل في دعوة إبراهيم ـ عليه السلام ـ: ﴿رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ﴾ فعلّل سؤاله عصمة أبنائه من عبادة الأصنام بعموم الضلال في عبادتها، فهو المحذور، وقد مرّ في سورة الفاتحة أنّ كلّ ضلال شرك، كما ذكره أيضاً في أثناء كلامه ـ عليه السلام ـ أنّه سأل لهم تطهيراً من الشرك ومن عبادة الأصنام، فخصّ الشرك بالذكر قبال عبادة الأصنام، وهذه هي العصمة إذا كان من الله سبحانه كما سأله.

ثمّ قوله: ﴿فَمَن تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي﴾ كلام متفرّع على سؤال العصمة من الشرك والضلال، وهذه هي الإمامة، وهو قوله: «ليصحّ أمره فيهم ولا يتّبعوا غيرهم...»

---

١. في المصدر: «منهما»

٢. إبراهيم (١٤): ٣٥ ـ ٣٦.

٣. تفسير *العيّاشي* ١: ٦٠، الحديث: ١٠١؛ بحار *الأنوار* ٢٤: ١٥٤، الحديث: ٧، الباب: ٤٦.

إلى آخره؛ أي لا يتّبع الناس غير إبراهيم وذرّيّته ويكونوا أئمّة للناس، وهذه العصمة هي التي أشار إليها سبحانه بقوله: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ ٱلْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ وَفِي هَٰذَا لِيَكُونَ ٱلرَّسُولُ شَهِيداً عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾[١] وسيجيء أنّ الأجتباء هي العصمة، كما يشهد به إردافه بقوله: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾.[٢]

فإن قلت: لوكان المراد بالأُمّة في هذه الآيات وأمثالها عدّة قليلة من الأُمّة دون الباقين، كان لازم ذلك التعمية في الكلام، ولا يليق ذلك به سبحانه، على أنّ من المعلوم أنّ توجيه خطاباته تعالى إلى عموم الناس.

قلت: نفس هذه الخطابات تستدعي أن يكون المقصود منها الموجّه إليه بالحقيقة بعض الناس دون الجميع، بمثل ما مرّ من البيان، ووزانها وزان قوله تعالى في بني إسرائيل: ﴿وَلَقَدِ ٱخْتَرْنَاهُمْ عَلَىٰ عِلْمٍ عَلَى ٱلْعَالَمِينَ﴾[٣] وقوله: ﴿وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى ٱلْعَالَمِينَ﴾[٤] وفيهم مثل قارون ومن هوّد اليهود ونصّر النصارى، بل هذه أحكام جارية على المجموع لاشتماله على بعض الأفراد القائم بها المتلبّس بحقيقتها، وهو شائع في الكلام.

قوله سبحانه: ﴿رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِنْهُمْ...﴾

قد عرفت أنّه رسول الله محمّد ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ ولم يعهد من ذرّيّة

---

١. الحج (٢٢): ٧٨.
٢. الحج (٢٢): ٧٨.
٣. الدخان (٤٤): ٣٢.
٤. الجاثية (٤٥): ١٦.

إبراهيم وإسماعيل معاً نبيّ غير رسول الله ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ، وقد روى الفريقان عنه ـ صلّى الله عليه وآله وسلّم ـ أنّه قال: «أنا دعوة أبي إبراهيم».[1]

*

١. *الأمالي* للطوسي: ٣٧٨، الحديث: ٨١١، المجلس الثالث عشر؛ *تفسير القمي* ١: ٦٢؛ *دعائم الإسلام* ١: ٣٤؛ *مكارم الأخلاق*: ٤٤٢، الفصل الثالث؛ *التبيان في تفسير القران* ١: ٤٦٦؛ *مجمع البيان* ١: ٣٩٣؛ *جوامع الجامع* ١: ١٥١؛ *تفسير الصافي* ١: ١٩٠؛ *تفسير الأصفى* ١: ٦٦؛ *تفسير نور الثقلين* ١: ١٣٠، الحديث: ٣٨١ و ٢: ٥٤٨، الحديث: ٩٨؛ *المستدرك* للحاكم النيسابوري ٢: ٤١٨؛ *مسند الشامين* ٢: ٣٤١؛ *كنز العمال* ١٢: ٤٢٣، الحديث: ٣٥٤٧٩؛ *شواهد التنزيل* ١: ٤١١ و ٤١٢؛ *تفسير القرطبي* ٢: ١٣١؛ *الدر المنثور* ٥: ٢٠٧؛ *تفسير الثعالبي* ١: ٣١٨؛ *بحار الأنوار* ١٢: ٩٢، الباب: ٥.

[وَمَنْ يَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ وَلَقَدِ ٱصْطَفَيْنَاهُ فِى ٱلدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِى ٱلْآخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّالِحِينَ (١٣٠) إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَالَمِينَ (١٣١) وَوَصَّىٰ بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَا بَنِيَّ إِنَّ ٱللهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ (١٣٢)]

قوله سبحانه: ﴿وَمَنْ يَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ﴾

يدلّ على أنّ العصيان ـ وهو الرغبة عن الملّة ـ سفاهة نفسيّة، ومنه يستفاد معنى ما ورد عنهم ـ عليهم السلام ـ: «العقل ما عُبد به الرحمن».[١]

قوله سبحانه: ﴿وَلَقَدِ ٱصْطَفَيْنَاهُ فِى ٱلدُّنْيَا﴾

قد مرّ معنى الاصطفاء في ذيل قوله تعالى: ﴿وَإِذِ ٱبْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ﴾،[٢] أنّه مقام التحقّق بالدين، ويشهد به قوله سبحانه: ﴿إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ

---

١. *الكافي* ١: ١١، الحديث: ٣؛ *المحاسن* ١: ١٩٥، الحديث: ١٥؛ *معاني الأخبار*: ٢٣٩، الحديث: ١؛ *بحارالأنوار* ١: ١١٦، الحديث: ٨، الباب: ٤.

٢. البقرة (٢): ١٢٤.

أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَالَمِينَ﴾، فالظرف متعلّق بقوله: ﴿ٱصْطَفَيْنَاهُ﴾ وإذا ضمّ إليه قوله في الآية التالية: ﴿إِنَّ ٱللهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ﴾ أفاد أنّ المصطفى هو الدين، واصطفاء الإنسان بإسلامه ودينه، فالمصطفى هو المتحقّق بالدين.

والإصطفاء هو الاجتباء، وإنّما الفرق بينهما معنىً: أنّ الاجتباء يقتضي حركةً وطلباً من المجتبي بصيغة الفاعل بخلاف الإصطفاء؛ إذ الاجتباء من قولنا: جبى الخراج جباية: إذا جمعها، فيحتاج إلى حركة وطلب، والاصطفاء من الصفاء بمعنى الخلوص، فلا يحتاج إلى طلب وحركة.

وبهذه النسبة فالاصطفاء بمعنى خلوص الإنسان للدين وهومقام، والاجتباء بمعنى تخصيص الله ـ سبحانه ـ عبداً من بين العباد بنفسه بالعصمة كما عرفت، قال الله تعالى: ﴿هُوَ ٱجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾[1] وقال: ﴿وَٱجْتَبَيْنَاهُمْ وَهَدَيْنَاهُمْ﴾[2] وقال: ﴿ثُمَّ ٱجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ﴾[3] وقال: ﴿وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَٱجْتَبَيْنَا﴾[4] إلى غير ذلك من الآيات.

وأمّا الإسلام فهو والتسليم والاستسلام بمعنىً: من السلم، والشيء إذا كان بالنسبة إلى آخر بحالٍ لا يعصيه ولا يدفعه فقد أسلم وسلّم واستسلم له: قال سبحانه: ﴿بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلهِ﴾[5] وقال: ﴿وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِى فَطَرَ ٱلسَّمَاوَاتِ وَٱلْأَرْضَ حَنِيفاً﴾[6] ووجه الشيء: ما يواجهك به، وهوبالنسبة إليه تعالى تمام وجود

---

١. الحج (٢٢): ٧٨.
٢. الأنعام (٦): ٨٧.
٣. طه (٢٠): ١٢٢.
٤. مريم (١٩): ٥٨.
٥. البقرة (٢): ١١٢.
٦. الأنعام (٦): ٧٩.

الشيء، فالإسلام له تعالى هو معنى القبول والتهيّؤ من الإنسان لما يرد عليه منه سبحانه من تكليف أو أمر إلهيّ، ومن هنا كان له مراتب بحسب ترتّب الواردات بمراتبها:

فأوّل المراتب: القبول لظواهر أوامره ونواهيه، بتلقّي الشهادتين لساناً. قال تعالى: ﴿قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ آمَنَّا قُل لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَٰكِن قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ﴾[١] ويتعقّبه الإذعان القلبي، وهو الإيمان بالأُصول إجمالاً، ويتبعه عمدة الفروع العمليّة، وهو أيضاً أوّل مراتب الإيمان.

وفي حديث سماعة عن الصادق -عليه السلام-: «الإيمان من الإسلام مثل الكعبة الحرام من الحرم، قد يكون [رجل] في الحرم ولا يكون في الكعبة، ولا يكون في الكعبة حتى يكون في الحرم».[٢]

وروى سماعة أيضاً عن الصادق -عليه السلام-، قال: «الإسلام: شهادة أن لا إله إلّا الله والتصديق برسول الله، به حقنت الدماء وعليه جرت المناكح والمواريث، وعلى ظاهره جماعة الناس، والإيمان: الهدى، وما يثبت في القلوب من صفة الإسلام».[٣]

وثانيها: ما يلي الإيمان المذكور من التهيّؤ والتسليم لجلّ الاعتقادات الحقّة التفصيليّة وما يتبعها من الأعمال الصالحة، وإن أمكن التخطّي في بعض الموارد، قال تعالى في وصف المتقّين: ﴿ٱلَّذِينَ آمَنُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا مُسْلِمِينَ﴾[٤] وقال: ﴿يَا

---

١. الحجرات (٤٩): ١٤.

٢. *معاني الأخبار*: ١٨٦، الحديث:١؛ *بحار الأنوار* ٦٥: ٢٧١ - ٢٧٢؛ *وسائل الشيعة* ١٣: ٢٩١، الحديث:١٧٧٧٣.

٣. *الكافي* ٢: ٢٥، الحديث:١؛ *بحار الأنوار* ٦٥: ٢٤٨، الحديث:٨؛ *الفصول المهمة في أصول الأئمة* ١: ٤٣٠، الحديث:٥٩٠؛ *تفسير نور الثقلين* ٥: ١٠٢، الحديث:١٠٦.

٤. الزخرف (٤٣): ٦٩.

أَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا ٱدْخُلُوا فِى ٱلسِّلْمِ كَافَّةً﴾.[١]

فمن الإسلام ما يتأخّر تحقّقاً عن الإيمان، ويتبعه الإيمان التفصيلي بالحقائق. قال سبحانه: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ آمَنُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللهِ أُولٰئِكَ هُمُ ٱلصَّادِقُونَ﴾[٢] وقال أيضاً: ﴿يَا أَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَارَةٍ تُنجِيكُم مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ * تُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ﴾[٣] ففيها إرشاد المؤمنين إلى الإيمان، فالإيمان غير الإيمان.

وثالثها: ما يلي الإيمان بالمرتبة الثانية، فالنفس إذا أنست بالإيمان المذكور وتخلّقت بأخلاقه تمكّن فيها، وانقادت له سائر القوى البهيميّة والسبعيّة، وبالجملة، القوى المائلة إلى هوسات الدنيا وزخارفها الغارّة، فصار الإنسان يعبد الله كأنّه يراه، فإن لم يكن يراه فإنّه يراه، فلم يجد في سرّه ما لا ينقاد إلى أمر الله ونهيه وقضائه وقدره، قال سبحانه: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِى أَنْفُسِهِمْ حَرَجاً مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيماً﴾[٤] والإيمان بالمرتبة الثالثة يتعقّبه. قال سبحانه: ﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾،[٥] إلى أن قال: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنِ ٱللَّغْوِ مُعْرِضُونَ﴾.[٦]

روى البرقي عن عليّ ـ عليه السلام ـ قال: «الإسلام هو التسليم والتسليم

---

١. البقرة (٢): ٢٠٨.
٢. الحجرات (٤٩): ١٥.
٣. الصف (٦١): ١٠ ـ ١١.
٤. النساء (٤): ٦٥.
٥. المؤمنون (٢٣): ١.
٦. المؤمنون (٢٣): ٣.

هو اليقين».[١]

وفي حديث الكاهلي عن الصادق -عليه السلام- قال: «لو أنّ قوماً عبدوا الله وحده لا شريك له، وأقاموا الصلاة، وآتوا الزكاة، وحجّوا البيت الحرام، وصاموا شهر رمضان، ثمّ قالوا لشيء صنعه الله أو صنعه رسول الله -صلى الله عليه وآله وسلم-: ألا صنع بخلاف الذي صنع؟! أو وجدوا ذلك في قلوبهم، لكانوا بذلك مشركين...» الحديث.[٢]

وفي حديث ابن رئاب عنه -عليه السلام- قال: «إنّا لا نعدّ الرجل مؤمناً حتى يكون لجميع أمرنا متّبعاً مريداً...»[٣] الحديث.

وربّما عدّت المرتبة الثانية والثالثة مرتبة واحدة، والأخلاق الفاضلة - من الرضا والتسليم والحسبة والصبر وتمام الزهد والورع والحبّ والبغض في الله - من لوازم هذه المرتبة، ومنه قوله سبحانه: ﴿إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَالَمِينَ﴾ وقوله: ﴿إِنَّ ٱللهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُم مُسْلِمُونَ﴾ وقد مرّ بيانه آنفاً.

ورابعها: ما يلي المرتبة السابقة من الإيمان؛ فإنّ حال الإنسان - وهو في المرتبة السابقة - مع ربّه حال العبد منّا مع مولاه، إذا كان قائماً بوظائف عبوديّته حقّاً من التسليم الصِّرف لمولاه ومالكه، والأمر في ملك ربّ العالمين وعبوديّة الإنسان وسائر الخلق له تعالى أعظم من ذلك، فهو حقيقة الملك الذي لا استقلال

---

١. *المحاسن* ١: ٢٢٢، الحديث: ١٣٥؛ *بحار الانوار* ٦٥: ٣١١، الحديث: ٤، الباب: ٢٥.

٢. *الكافي* ١: ٣٩٠، الحديث: ٢؛ و ٢: ٣٩٨، الحديث: ٦؛ *تفسير العيّاشي* ١: ٢٥٥، الحديث: ١٨٤؛ *المحاسن* ١: ٢٧١، الحديث: ٣٦٥، *بحار الأنوار* ٢: ٢٠٥، الحديث: ٩٠.

٣. *الكافي* ٢: ٧٨، الحديث: ١٣؛ *وسائل الشيعة* ١٥: ٢٤٣، الحديث: ٢٠٣٩١؛ *بحار الأنوار* ٧٢: ٢٣٥.

دونه لشيء ممّا سواه، لا ذاتاً ولا وصفاً ولا فعلاً، بل هوالقائم على الكلّ على ما يليق بكبريائه جلّ جلاله.

فالإنسان ـ وهو في المرتبة السابقة ـ ربّما أخذته العناية الإلٰهيّة وهيّأته للإيمان بأنّ الملك لله، لا يملك شيء لنفسه شيئاً إلّا به، لا ربّ سواه، وهذا معنى وهبيّ اختصاصيّ لا تأثير لاختيار الإنسان فيه، وهو قوله سبحانه حكايةً عن إبراهيم ـ عليه السلام ـ: ﴿رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا﴾[١] فإنّ إبراهيم ـ عليه السلام ـ كان مسلماً وقد أمره ربّه بالإسلام، فأجابه به ووصّى بها بنيه، وهو ـ مع ذلك ـ يسأله ذلك، فالإسلام غير الإسلام، وليس معناه: أدمنا على الإسلام لك بالتوفيق، إذ لا وجه للعدول عن حاقّ المعنى إلى غيره، بل هومعنى خارج عن عهدته وإختياره يسأل به ربّه.

ويتعقّبه الإيمان بهذه المرتبة وهو فعليّة ما يستدعيه هذا التهيؤ، قال تعالى: ﴿أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ * ٱلَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ﴾.[٢]

ويمكن أن يكون الاصطفاء والاجتباء اسمين لهذين؛ أعني الإسلام والإيمان بهذا المعنى.

ومن مختصّات هذه المرتبة: أنّ المتحقّق بها لا يشتغل إلّا بربّه، ولا يلي أمره إلّا ربّه سبحانه، فلا يريد ولا يترك ولا يحبّ ولا يبغض ولا يلتذّ ولا يتألّم إلّا به وله سبحانه وتعالى.

وفي *البحار* عن *إرشاد* الديلمي ـ وذكر سندين لهذا الحديث، وهومن أحاديث المعراج ـ وفيه: «قال الله سبحانه: يا أحمد! هل تدري أيّ عيش أهنى وأيّ

١. البقرة (٢): ١٢٨.

٢. يونس (١٠): ٦٢ ـ ٦٣.

حياة أبقى؟ قال اللّهمّ لا، قال:

أمّا العيش الهنيء: فهو الذي لا يفتر صاحبه عن ذكري ولا ينسى نعمتي ولا يجهل حقّي، يطلب رضائي في ليله ونهاره.

وأمّا الحياة الباقية: فهي التي يعمل لنفسه حتى تهون عليه الدنيا وتصغّر في عينيه،[١] وتعظم الآخرة عنده، ويؤثِر هواي على هواه، ويبتغي مرضاتي، ويعظّم حقّ نعمتي، ويذكر عملي[٢] به، ويراقبني بالليل والنهار عند كلّ سيّئة أو معصية، وينّقي قلبه عن كلّ ما أكره، ويبغض الشيطان ووساوسه، ولا يجعل لإبليس على قلبه سلطاناً وسبيلاً.

فإذا فعل ذلك أسكنت قلبه حبّاً، حتى أجعل قلبه وفراغه واشتغاله وهمّه وحديثه من النعمة التي أنعمت بها على أهل محبّتي من خلقي، وأفتح عين قلبه وسمعه؛ حتى يسمع بقلبه، وينظر بقلبه إلى جلالي وعظمتي، وأُضيِّق عليه الدنيا، وأُبغّض إليه ما فيها من اللذّات، وأُحذّره من الدنيا وما فيها كما يحذر الراعي على غنمه مراتع الهلكة، فإذا كان هكذا يفرّ من الناس فراراً، وينقل من دار الفناء إلى دار البقاء، ومن دار الشيطان إلى دار الرحمن.

يا أحمد! ولأُزيّننّه بالهيبة والعظمة، فهذا هوالعيش الهنيء والحياة الباقية، وهذا مقام الراضين، فمن عمل برضائي أُلزمه ثلاث خصال: أُعرّفه شكراً لا يخالطه الجهل، وذكراً لا يخالطه النسيان، ومحبّةً لا يؤثِر على محبّتي محبّة المخلوقين، فإذا أحبّني أحببته، وأفتح عين قلبه إلى جلالي، ولا أُخفى عليه خاصّة خلقي، وأُناجيه في ظُلَم الليل ونور النهار حتى ينقطع حديثه مع

---

١. في المصدرين: «عظمتي»

٢. في المصدرين: «علمي»

المخلوقين ومجالسته معهم، وأُسمعه كلامي وكلام ملائكتي، وأُعرّفه السرّ الذي سترته عن خلقي، وأُلبسه الحياء، حتى يستحيي منه الخلق كلّهم، ويمشي على الأرض مغفوراً له، وأجعل قلبه واعياً وبصيراً، ولا أُخفي عليه شيئاً[١] من جنّة ولا نار، وأُعرّفه ما يمرّ على الناس في القيامة من الهول والشدّة، وما أُحاسب به الأغنياء والفقراء والجهّال والعلماء، وأُنوّره في قبره، وأُنزّل عليه منكراً ونكيراً حتى يسألاه، ولا يرى غمّ الموت وظلمة القبر واللحد وهول المطّلع، ثمّ أنصب له ميزانه وأنشر ديوانه، ثمّ أضع كتابه في يمينه، فيقرأه منشوراً، ثمّ لا أجعل بيني وبينه ترجماناً، فهذه صفات المحبّين.

يا أحمد! اجعل همّك همّاً واحداً، واجعل لسانك لساناً واحداً، واجعل بدنك حيّاً لا يغفل أبداً، من يغفل[٢] عنّي لم أُبال في أيّ[٣] وادٍ هلك».[٤]

وفي *البحار* عن *الكافي* و*المعاني* و*نوادر الراوندي* بأسانيد مختلفة عن الصادق والكاظم ـ عليهما السلام ـ واللفظ المنقول هاهنا لما في *الكافي* ـ قال: «استقبل رسول الله ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ حارثة بن مالك بن النعمان الأنصاري، فقال له: كيف أنت يا حارثة بن مالك النعماني[٥]؟ فقال: يا رسول الله! مؤمن حقّاً، فقال له رسول الله ـ صلّى الله عليه وآله وسلّم ـ: لكلّ شيء حقيقة، فما حقيقة قولك؟ فقال: يا رسول الله! عزفت نفسي عن الدنيا فأسهرت ليلي، وأظمأت هواجري، وكأنّي أنظر إلى عرش ربّي وقد وضع للحساب، وكأنّي

---

١. في المصدر: «شيء»

٢. في المصدر: «غفل»

٣. في المصدر: «لا أُبال بأيّ»

٤. *ارشاد القلوب* ١: ٢٠٤ ـ ٢٠٥؛ *بحارالأنوار* ٧٤: ٢٨ ـ ٢٩.

٥. هذه الكلمة ليست في المصدر، بل في *بحار الأنوار*.

أنظر إلى أهل الجنّة يتزاورون في الجنّة، وكأنّي أسمع عواء أهل النار في النار، فقال رسول الله ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ: عبد نوّر الله قلبه، أبصرت فاثبت».[١]

أقول: وخصوصيّات مضامين الروايتين مؤيَّدة بروايات أُخرى متفرّقة سيمرّ بك بعضها إن شاء الله، ومستفادة من الآيات، غير أنّ كثرتها منعت عن إيرادها هاهنا، وسنتعرّض إن شاء الله لكلٍّ في محلّه.

قوله سبحانه: ﴿وَإِنَّهُ فِى ٱلْآخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّالِحِينَ﴾

الصلاح ـ وهو اللياقة بوجه ـ ربّما نُسب في كلامه تعالى إلى عمل الإنسان، وربّما نُسب إلى ذاته ونفسه؛ قال سبحانه: ﴿فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحاً﴾[٢] وقال: ﴿وَأَنكِحُوا ٱلْأَيَامَىٰ مِنكُمْ وَٱلصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَائِكُمْ﴾.[٣]

وصلاح العمل وإن لم يرد به تفسير من نفس كلامه سبحانه، لكن نسب إليه من الأثر:

أنّه صالحٌ لوجه الله، قال سبحانه: ﴿صَبَرُوا ٱبْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ﴾[٤] وقال: ﴿وَمَا تُنْفِقُونَ إِلَّا ٱبْتِغَاءَ وَجْهِ ٱللَّهِ﴾.[٥] وقال: ﴿وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحاً تَرْضَاهُ﴾.[٦]

وأنّه صالح لأن يثاب عليه، قال سبحانه: ﴿ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِـمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ

---

١. *الكافي* ٢: ٥٤، الحديث:٣؛ *بحار الأنوار* ٢٢: ١٢٦، الحديث:٩٨؛ ٦٤: ٢٨٧، الحديث:٩؛ ٦٧: ١٧٤، الحديث:٢٩؛ *المحاسن* ١: ٢٤٦؛ *معاني الأخبار*: ١٨٧، الحديث:٥، *نوادر للراوندي*: ٢٠.

٢. الكهف (١٨): ١١٠.

٣. النور (٢٤): ٣٢.

٤. الرعد (١٣): ٢٢.

٥. البقرة (٢): ٢٧٢.

٦. النمل (٢٧): ١٩.

صَالِحاً﴾[١] والآيات في هذا المعنى كثيرة جدّاً.

وأنّه صالحٌ ليرفع الكلم الطيّب فيصعد إلى الله، قال سبحانه: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّالِحُ يَرْفَعُهُ﴾[٢] ويمكن أن يرجع إليه قوله تعالى: ﴿فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحاً وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَداً﴾.[٣]

فيستفاد من هذه الآثار المنسوبة إلى العمل الصالح: أنّ الصلاح في العمل بمعنى تهيّئه ولياقته لأن يؤجر عليه وإمداده لصعود الكلم الطيّب إلى الله ولصلوحه إلى لقاء الله سبحانه، قال تعالى: ﴿وَلٰكِن يَنَالُهُ ٱلتَّقْوَىٰ مِنكُمْ﴾[٤] وقال تعالى: ﴿كُلّاً نُّمِدُّ هٰؤُلَاءِ وَهٰؤُلَاءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ﴾[٥] فعطاؤه بمنزلة الصورة، وصلاح العمل بمنزلة المادّة، هذا.

وأمّا الصلاح الذاتي ـ وهو المراد بصلاح الصالحين ـ فلم يرد فيه ما يلوح تفسيره منه غير ما في قوله سبحانه: ﴿فَأُولٰئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللهُ عَلَيْهِم مِنَ ٱلنَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَاءِ وَٱلصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولٰئِكَ رَفِيقاً﴾[٦] وقوله: ﴿وَأَدْخَلْنَاهُمْ فِى رَحْمَتِنَا إِنَّهُمْ مِنَ ٱلصَّالِحِينَ﴾[٧] وقوله حكايةً عن سليمان: ﴿وَأَدْخِلْنِى بِرَحْمَتِكَ فِى عِبَادِكَ ٱلصَّالِحِينَ﴾[٨] وقوله: ﴿وَلُوطاً آتَيْنَاهُ حُكْماً وَعِلْماً﴾[٩] إلى قوله: ﴿وَأَدْخَلْنَاهُ

---

١. القصص (٢٨): ٨٠.
٢. فاطر (٣٥): ١٠.
٣. الكهف (١٨): ١١٠.
٤. الحج (٢٢): ٣٧.
٥. الاسراء (١٧): ٢٠.
٦. النساء (٤): ٦٩.
٧. الانبياء (٢١): ٨٤.
٨. النمل (٢٧): ١٩.
٩. الانبياء (٢١): ٨٤.

﴿فِى رَحْمَتِنَا إِنَّهُۥ مِنَ ٱلصَّالِحِينَ﴾.[١]

وليس المراد به الصلاح لمطلق الرحمة الإلهيّة العامّة لكلّ شيء، ولا المختصّة بالمؤمنين فحسب على ما يفيده قوله: ﴿وَرَحْمَتِى وَسِعَتْ كُلَّ شَىْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ﴾[٢] إذ الصالحون طائفة خاصّة من المؤمنين، ومن الرحمة ما يختصّ بالبعض دون البعض، قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ﴾.[٣]

وليس أيضاً مطلق كرامة الولاية، وهي تولّيه سبحانه أُمر عبده، فإنّ الصالحين وإن شرّفوا بذلك على ما بيّنا في ذيل قوله: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾[٤] من سورة الفاتحة، فإنّ هذه صفة مشتركة بينهم وبين النبيّين والصدّيقين والشهداء كما مرّ بيانه، فلا يستقيم إذاً عدّهم طائفةً في قبالهم.

وليس الصلاح أيضاً إيتاء الحكم والعلم والاصطفاء، على ما هو ظاهر من الآيات المشتملة عليه.

نعم، يبقى له من الأثر الخاصّ: الإدخال في الرحمة وهو الأمن التامّ من العذاب، كما ورد المعنيان معاً في الجنّة: قال سبحانه: ﴿فَيُدْخِلُهُمْ رَبُّهُمْ فِى رَحْمَتِهِۦ﴾[٥] أي في الجنّة، وقال: [﴿يَدْعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَٰكِهَةٍ ءَامِنِينَ﴾][٦] أيّ في الجنّة.

وأنت إذا تدبّرت معنى الصلاح وهو اللياقة، وقوله: ﴿وَأَدْخَلْنَٰهُ فِى رَحْمَتِنَآ﴾،

---

١. الانبياء (٢١): ٧٥.
٢. الأعراف (٧): ١٥٦.
٣. البقرة (٢): ١٠٥.
٤. الفاتحة (١): ٦.
٥. الجاثية (٤٥): ٣٠.
٦. الدخان (٤٤): ٥٥.

ولم يقل: ودخل، وقوله: ﴿وَكُلًّا جَعَلْنَا صَالِحِينَ﴾[١] وأنّه سبحانه قصر في كلامه الأجر والشكر على العمل والسعي، قضيتَ بأنّ الصلاح الذاتي كرامة ليست بحذاء العمل والإرادة، ويتبيّن حينئذٍ معنى قوله تعالى: ﴿لَهُمْ مَا يَشَاؤُونَ عِندَ رَبِّهِمْ﴾[٢] وهو ما بالعمل، ﴿وَلَدَيْنَا مزيدٌ﴾[٣] وهو أمر غير ما بالعمل، وليس من شأنه أن يتعلّق به المشيئة، فهوأمر غير محدود، إذ كلّ خير محدود يتعلّق به المشيئة، فافهم.

وفي *تفسير القمّي* في قوله تعالى: ﴿وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ﴾[٤] قال ـعليه السلام ـ: «النظر إلى رحمة الله».[٥]

وفي *المجمع* عن النبيّ ـصلى الله عليه وآله وسلّم ـ يقول الله: أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت، ولا أُذن سمعت ولا خطر على قلب بشر...»[٦] الحديث.

ثمّ إنّك إذا تأمّلت حال إبراهيم ـعليه السلام ـ وأنّه نبيٌّ مرسل، وأحد أُولي العزم وأشرفهم وسيّدهم وأشرف الأنبياء جميعاً بعد محمد ـصلى الله عليه وآله وسلم ـ، على ما يعطيه القرآن، وأنّه مقتدى مَن بعده من الأنبياء والمرسلين، وأنّه من الصالحين بنصّ قوله: ﴿وَكُلًّا جَعَلْنَا صَالِحِينَ﴾[٧] الظاهر في الصلاح

---

١. الانبياء (٢١): ٧٢.
٢. الشورى (٤٢): ٢٢ ؛الزمر (٣٩): ٣٤.
٣. ق (٥٠): ٣٥.
٤. ق (٥٠): ٣٥ .
٥. *تفسير القمي* ٢: ٣٢٧.
٦. *بحار الانوار* ٨: ٩٢؛ *مجمع البيان* ٨: ١٠٨.
٧. الانبياء (٢١): ٧٢.

المعجّل، على أنّ من هو دونه في الفضل، مكرم بالصلاح المعجّل، وهو ـ عليه السلام ـ مع ذلك يسأل الصلاح بمثل قوله: ﴿وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ﴾[١] الظاهر في أنّ هناك قوماً من الصالحين سبقوه، وهو يسأل اللحوق بهم فيما سبقوه إليه، وأُجيب بذلك في الآخرة، كما يحكيه تعالى في ثلاثة مواضع من كلامه:

قال تعالى: ﴿وَلَقَدِ ٱصْطَفَيْنَاهُ فِى ٱلدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِى ٱلْآخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّالِحِينَ﴾ وقال: ﴿وَ لَقَدْ آتَيْنَاهُ أَجْرَهُ فِى ٱلدُّنْيَا وَهُوَ فِى ٱلْآخِرَةِ مِنَ ٱلصَّالِحِينَ﴾[٢] وقال: ﴿وَآتَيْنَاهُ فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَإِنَّهُ فِى ٱلْآخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّالِحِينَ﴾.[٣]

فإذا تأمّلت ذلك كلّه حقّ التأمّل، قضيت بأنّ الصلاح ذو مراتب ولم تستبعد ـ لوقرع سمعك ـ، أنه سأل اللحوق بمحمد والطاهرين من آله فأُجيب بذلك في الآخرة لا في الدنيا، ومحمّد ـ صلّى الله عليه وآله وسلّم ـ يدّعيه لنفسه بقوله سبحانه: ﴿إِنَّ وَلِيِّىَ ٱللهُ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْكِتَابَ وَهُوَيَتَوَلَّى ٱلصَّالِحِينَ﴾[٤][٥] والأخبار في ذلك كثيرة.

*

١. يوسف (١٢): ١٠١؛ الشعراء (٢٦): ٨٣.
٢. النحل (١٦): ١٢٢.
٣. النحل (١٦): ١٢٢.
٤. الأعراف (٧): ١٩٦.
٥. وإنّما مورد الاستشهاد قوله: «الذي نزّل الكتاب» [منه ـ رحمه الله ـ].

[أَمْ كُنتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ ٱلْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِن بَعْدِى قَالُوا نَعْبُدُ إِلٰهَكَ وَإِلٰهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلٰهاً وَاحِداً وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴿١٣٣﴾ تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْئَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴿١٣٤﴾]

قوله سبحانه: ﴿قَالُوا نَعْبُدُ إِلٰهَكَ...﴾

روى العيّاشي عن الباقر ـ عليه السلام ـ «أنّها جرت في القائم ـ عليه السلام ـ».[1]

أقول: قال في الصافي: لعلّ مراده أنّها [جارية] في قائم آل محمد ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ، فكلّ قائم منهم يقول ذلك حين موته[2] لبنيه، ويجيبونه بما أجابوا به.[3]

قوله سبحانه: ﴿وَإِلٰهَ آبَائِكَ﴾

في إطلاق لفظ الآباء على الجدّ والعمّ والوالد ـ من غير مصحّح للتغليب ـ حجّة فيما سيجيء من خطاب إبراهيم لآزر بالأب.

---

١. تفسير *العيّاشي* ١: ٦١ الحديث: ١٠٢.

٢. في المصدر: «الموت ذلك»

٣. *الميزان في تفسير القرآن* ١: ٣٠٩؛ *تفسير الصافي* ١: ١٩٢.

[وَقَالُوا كُونُوا هُوداً أَوْ نَصَارَىٰ تَهْتَدُوا قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفاً وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٣٥﴾]

قوله سبحانه: ﴿بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفاً﴾

روى العيّاشي عن الصادق ـ عليه السلام ـ قال: «إنّ الحنيفيّة هي الإسلام».[1]

أقول: وتصديقه قوله تعالى: ﴿حَنِيفاً مُسْلِماً﴾،[2] وقوله: ﴿دِيناً قِيَماً مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفاً﴾[3] وقوله: ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِنْدَ ٱللهِ ٱلْإِسْلَامُ﴾[4]

وعن الباقر ـ عليه السلام ـ: «ما أبقت الحنيفيّة شيئاً حتى أنّ منها قصّ الشارب وقلم الأظفار[5] والختان».[6]

وفي *تفسير القمّي*: «أنزل الله على إبراهيم[7] الحنيفيّة، وهي الطهارة وهي

---

١. تفسير *العيّاشي* ١: ٦١، الحديث: ١٠٣.
٢. آل عمران (٣): ٦٧.
٣. الانعام (٦): ١٦١.
٤. آل عمران (٣): ١٩.
٥. في المصدر: «قص الأظفار وأخذ الشارب»
٦. تفسير *العيّاشي* ١: ٣٨٨، الحديث: ١٤٣.
٧. في المصدر: «أنزل عليه»

عشرة أشياء خمسة في الرأس وخمسة في البدن؛ فأمّا التي في الرأس: فأخذ الشارب وإعفاء اللّحى وطمّ الشعر[١] والسواك والخلال، وأمّا التي في البدن: فأخذ[٢] الشعر من البدن والختان وقلم الأظفار والغسل من الجنابة والطهور بالماء، وهي[٣] الحنيفيّة الطاهرة[٤] التي جاء بها إبراهيم، فلم تنسخ ولا تنسخ[٥] إلى يوم القيامة».[٦]

أقول: وقد روته العامّة أيضاً.

*

١. طمّ الشعر: جزّه، [منه ـ رحمه الله ـ].

٢. في المصدر: «فحلق»

٣. في المصدر: «وهو»

٤. في المصدر: «الطهارة»

٥. في المصدر: «ولا تنسخ»

٦. تفسير *القمي* ١: ٥٨؛ *بحار الأنوار* ٧٣: ٦٨، الحديث: ٣، الباب: ٢.

[قُولُوا آمَنَّا بِاللهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٦﴾ فَإِنْ آمَنُوا بِمِثْلِ مَا آمَنتُم بِهِ فَقَدِ اهْتَدَوا وَّإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللهُ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿١٣٧﴾]

قوله سبحانه: ﴿قُولُوا آمَنَّا بِاللهِ...﴾

في *الكافي* و*تفسير العيّاشي* عن الباقر ـ عليه السلام ـ: «إنّما عنى بذلك عليّاً وفاطمة والحسن والحسين، وجرت بعدهم في الأئمّة...»[1] الحديث.

أقول: ورواه في *المجمع*[2] عن الصادق ـ عليه السلام ـ.

ويستفاد ذلك من وقوع الخطاب في ذيل دعوة إبراهيم ـ عليه السلام ـ: ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ﴾[3] ولا ينافي ذلك توجيه الخطاب لعامّة المسلمين

---

١. *الكافي* ١: ٤١٥، الحديث: ١٩؛ تفسير *العيّاشي* ١: ٦٢، الحديث: ١٠٧.

٢. راجع: مجمع *البيان* ١: ٤٠٤.

٣. البقرة (٢): ١٢٨.

على ما مرّ من البيان، على أنّ في هذا الأمر تصديقاً لقيامهم بالإسلام والإيمان حقيقةً، ومن البيّن أنّ جميع المسلمين حوله ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ ما كانوا على هذا الوصف، بل بعضهم.

وبما مرّ يتّضح أيضاً أنّه لا يرد عليه: أنّ الحسن والحسين ـ عليهما السلام ـ حين نزول السورة وهي سورة البقرة، أوّل سورة نزلت بالمدينة ـ لم يكونا مولودين بعدُ ولا مكلّفين حتماً.

قوله سبحانه: ﴿وَٱلْأَسْبَاطِ﴾

ظاهره: أنّهم حَفَدة يعقوب وأنّهم من الأنبياء، وهو صريح قوله في سورة النساء: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَعِيسَىٰ﴾.[١]

وأمّا ما في *الكافي* و*تفسير العيّاشي* عن سدير عن الباقر ـ عليه السلام ـ قال: «قلت كان ولد يعقوب أنبياء؟ قال: لا، ولكنّهم كانوا أسباطاً أولاد أنبياء، ولم يكونوا فارقوا الدنيا إلّا سعداء تابوا وتذكّروا ما صنعوا...»[٢] الحديث؛ فليس فيه تعرّض بأنّهم هم المرادون بقوله: ﴿ٱلْأَسْبَاطِ﴾ في الآية، بل هم إخوة يوسف على ما يلوح من الرواية.

*

١. النساء (٤): ١٦٣.

٢. تفسير *العيّاشي* ١: ٦٢، الحديث: ١٠٦؛ *الكافي* ٨: ٢٤٨، الحديث: ٣٤٣.

[صِبْغَةَ ٱللهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللهِ صِبْغَةً وَنَحْنُ لَهُ عَابِدُونَ ﴿١٣٨﴾ قُلْ أَتُحَاجُّونَنَا فِى ٱللهِ وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ وَلَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُخْلِصُونَ ﴿١٣٩﴾ أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطَ كَانُوا هُوداً أَونَصَارَىٰ قُلْ ءَأَنْتُمْ أَعْلَمُ أَمِ ٱللهُ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَتَمَ شَهَادَةً عِندَهُ مِنَ ٱللهِ وَمَا ٱللهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٤٠﴾ تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْئَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٤١﴾]

قوله سبحانه: ﴿صِبْغَةَ ٱللهِ﴾

في *تفسير القمّي* عن أحدهما ـ عليهما السلام ـ وفي *المعاني* عن الصادق ـ عليه السلام ـ، قال: «الصبغة هي الإسلام».[1]

أقول: وهو الظاهر من سَوق الآيات.

وفي *الكافي* و*المعاني*، عن الصادق ـ عليه السلام ـ قال: صبغ المؤمنين بالولاية في الميثاق».[2]

---

١. *تفسير القمي* ١: ٦٢؛ *معاني الأخبار*: ١٨٨.

٢. *الكافي* ١: ٤٢٢، الحديث: ٥٢.

أقـول: وهو المستفاد من كون «الصبغة» بـناء النـوع مـن الصـبغ المـصدر، وإضافته تفيد التحقّق على ما صرّح به عبدالقاهر الجرجاني في *دلائل الإعجاز*، فكأنّ المعنى: أنّ هذا الإيمان والإسلام نوع صبغنا الله، به وإنّـما صـبغهم فـي الميثاق، وأمّا في هذه الدنيا فالاختيار يضيف ذلك إلى أنفسهم، فيرجع الميثاق قبل الدنيا، فافهم.

وسيجيء تمام الكلام في معنى الولاية وفي ميثاق الذرّ.

فإن قلت: أيّ مانع من إسناد صبغة الإيمان والإسلام إلى الله تعالى؛ من حيث استناده إلى توفيقه، وإن كان ذلك فعلاً إختياريّاً لنا، أواستناداً إلى قوله تعالى: ﴿مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ ٱللهِ﴾[1]؟

قلت: مرجع الوجهين واحد، ومرجعه إلى القول بالذرّ، وسيجيء بيانه.

*

١. النساء (٤): ٧٩.

[سَيَقُولُ ٱلسُّفَهَاءُ مِنَ ٱلنَّاسِ مَا وَلَّاهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ ٱلَّتِى كَانُوا عَلَيْهَا قُل لِّلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ يَهْدِى مَن يَشَاءُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ (١٤٢)]

قوله سبحانه: ﴿سَيَقُولُ ٱلسُّفَهَاءُ مِنَ ٱلنَّاسِ مَا وَلَّاهُمْ...﴾

تمهيدٌ ثانياً لما سيأمر [به] سبحانه من اتّخاذ الكعبة قبلةً، وتعليمٌ لما يجاب به عن المعترضين بالتحوّل من بيت المقدس إلى الكعبة، بعد ما مهّد أوّلاً من قضايا إبراهيم وإسماعيل وبناء الكعبة، وتطهيرها.

وروي في *المجمع* عن القمّي عن الصادق ـ عليه السلام ـ قال: «تحوّلت القبلة إلى الكعبة بعد ما صلّى النبيّ بمكّة ثلاث عشرة سنة إلى بيت المقدس، وبعد مهاجرته إلى المدينة صلّى إلى بيت المقدس سبعة أشهر، قال: ثمّ وجّهه الله إلى الكعبة وذلك أنّ اليهود كانوا يعيّرون على رسول الله، يقولون: أنت تابع لنا تصلّي إلى قبلتنا، فاغتمّ رسول الله من ذلك غمّاً شديداً، وخرج في جوف الليل ينظر إلى آفاق السماء، ينتظر من الله في ذلك أمراً.

فلمّا أصبح وحضر وقت صلاة الظهر كان في مسجد بني سالم، وقد صلّى من الظهر ركعتين، فنزل جبرئيل فأخذ بعضديه وحوّله إلى الكعبة، وأنزل عليه:

﴿قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِى ٱلسَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾[١] وكان قد صلّى ركعتين إلى بيت المقدس وركعتين إلى الكعبة، فقالت اليهود والسفهاء: ﴿مَا وَلَّاهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ ٱلَّتِى كَانُوا عَلَيْهَا﴾[٢]؟!

*

١. البقرة (٢): ١٤٤.

٢. مجمع البيان ١: ٤١٤.

[وَكَذٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطاً لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيداً وَمَا جَعَلْنَا ٱلْقِبْلَةَ ٱلَّتِي كُنْتَ عَلَيْهَا إِلاَّ لِنَعْلَمَ مَنْ يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ مِمَّنْ يَنْقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ وَإِنْ كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى ٱلَّذِينَ هَدَىٰ ٱللهُ وَمَا كَانَ ٱللهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ إِنَّ اللهَ بِالنَّاسِ لَرَؤُوفٌ رَحِيمٌ (١٤٣)]

قوله سبحانه: ﴿وَكَذٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطاً...﴾

أي: مثل الهداية إلى صراط مستقيم جعلناكم... إلى آخره. وقيل: ومثل هذا الجعل العجيب جعلناكم امة وسطاً وهو كما ترى.

وقد استفاضت الروايات عن أئمّة أهل البيت[1] أنّهم هم المخاطبون به، المكرَمون بالشّهادة، والرسول شهيد عليهم، فهو ـ صلّى الله عليه وآله ـ شهيد الشهداء ويشهد به: تفريع الشهادة على كونهم وسطاً، وظاهره الوساطة والحيلولة بين شيئين.

وروت العامّة أنّ الأُمم يوم القيامة يجحدون تبليغ الأنبياء، فيطالب الله

---

١. *الكافي* ١: ١٩٠ الحديث:٢؛ *تأويل الآيات*: ٨٦؛ *إرشاد القلوب* ٢: ٢٩٧؛ *تفسير القمي* ١: ٦٢؛ *بصائر الدرجات*: ٦٣.

الأنبياء بالبيّنة على أنّهم قد بلّغوا ـ وهو أعلم ـ فيؤتى بأُمّة محمّد فيشهدون، فتقول الأُمم: من أين عرفتم؟ فيقولون: عرفنا ذلك بإخبار الله تعالى في كتابه الناطق على لسان نبيّه الصادق، فيؤتى بمحمّد ويسأل عن حال أُمّته، فيُزكّيهم ويشهد بعدالتهم، وذلك قوله تعالى: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هٰؤُلَاءِ شَهِيداً﴾[١].[٢]

أقول: وما يشتمل عليه هذا الخبر ـ من تزكية رسول الله وتعديله للأُمّة ـ لعلّه يراد به بعض الأُمّة، على ما فيه من التعديل للشهادة النظريّة، وإلّا فهو مدفوع بالضرورة الثابتة من الكتاب والسنّة، وكيف يصحّح أو يصوّب هذه الفجائع التي لا تكاد توجد أمثالها بين أُمّة من الأُمم الماضية؟! وكيف يعدّل ويزكّي فراعنة هذه الأُمّة ونماردتها وطواغيتها؟! فهل هو إلّا طعن في الدين، ولعب بحقائق هذه الملّة البيضاء.

وفي هذا المعنى ما في *المناقب* عن الباقر ـ عليه السلام ـ قال: «ولا يكون شهداء على الناس إلّا الأئمّة والرسل، وأمّا الأُمّة فغير[٣] جائز أن يستشهدها الله وفيهم من لا تجوز شهادته على حزمة بقل».[٤]

وما روى العيّاشي عن الصادق ـ عليه السلام ـ في الآية: فإن ظننت أنّ الله عنى بهذه الآية جميع أهل القبلة من الموحّدين، أفترى أنّ من لا تجوّز شهادته في الدنيا على صاع من تمر، يطلب الله شهادته يوم القيامة ويقبلها منه بحضرة

---

١. النساء (٤): ٤١.
٢. راجع: *الميزان في تفسير القرآن* ١: ٣٣١.
٣. في المصدر: «فانه غير»
٤. *المناقب* ٤: ١٧٩.

جميع الأمم الماضية؟! كلّا، لم يعْنِ الله مثل هذا من خلقه، يعني الأُمّة التي وجبت لها دعوة إبراهيم: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾،[1] وهم الأُمّة الوسطى، وهم خير أُمّة أُخرجت للناس».[2]

أقول: وأمّا ما رواه في *قرب الإسناد* عن الصادق ـعليه السلام ـ عن آبائه، عن النبيّ ـصلى الله عليه وآله وسلم ـ قال: «ممّا أعطى الله أُمّتي وفضّلهم على سائر الأُمم، أُعطاهم ثلاث خصال لم يعطها إلّا نبيّ، ـإلى أن قال ـ: وكان إذا بعث نبيّاً جعله شهيداً على قومه، وإنّ الله تبارك وتعالى جعل أُمّتى شهيداً على الخلق؛ حيث يقول: ﴿لِيَكُونَ ٱلرَّسُولُ شَهِيداً عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ ...»[3] الحديث.[4]

فهم الأُمّة التي سأل إبراهيم عصمتهم من الشرك، فإنّما الحديث وارد في قوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ ٱلْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ وَفِى هٰذَا لِيَكُونَ ٱلرَّسُولُ شَهِيداً عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾،[5] وقد مرّ معنى الأُمّة في الآية في دعوة إبراهيم ـعليه السلام ـ.

على أنّا نقول: إنّ الشهادة على الناس مطلقة في الآية، وقد تكرّر ذكرها في كلامه سبحانه، قال: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هٰؤُلَاءِ شَهِيداً﴾[6] وقال: ﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيداً ثُمَّ لَا يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا وَلَا هُمْ

---

١. آل عمران (٣): ١١٠.
٢. *تفسير العيّاشي* ١: ٦٣، الحديث: ١١٤.
٣. الحج (٢٢): ٧٨.
٤. *قرب الاسناد*: ٤١.
٥. الحج (٢٢): ٧٨.
٦. النساء (٤): ٤١.

يُسْتَعْتَبُونَ﴾[١] وقال: ﴿وَوُضِعَ ٱلْكِتَابُ وَجِيءَ بِالنَّبِيِّينَ وَٱلشُّهَدَاءِ﴾.[٢]

وظاهر الجميع ـ على إطلاقها ـ هو الشهادة على الأعمال وعلى تبليغ الرُّسل أيضاً، كما يعطيه قوله تعالى: ﴿فَلَنَسْئَلَنَّ ٱلَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْئَلَنَّ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾[٣] والشهادة وإن كانت في الآخرة لكنّ تحمّلها في الدنيا، على ما يعطيه قوله حكاية عن عيسى ـ عليه السلام ـ: ﴿وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيداً مَا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِى كُنْتَ أَنْتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ﴾[٤] وقال: ﴿وَيَوْمَ ٱلْقِيَامَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيداً﴾.[٥]

ومن الواضح أنّ الإحساس الموجود العادي فينا لا يتحمّل إلّا الصورة فقط، وذلك من شيء موجود حاضر عند الحسّ، وأمّا حقائق الأعمال والمعاني النفسانيّة من الكفر والإيمان والفوز والخسران ـ وبالجملة: كلّ خفيّ عن الظاهر ومستبطن عند الإنسان، وهي التي كسبت القلوب، وعليها يدور حساب ربّ العالمين يوم تبلى السرائر، كما قال: ﴿وَلٰكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ﴾[٦] ـ فهي ممّا ليس في وسع الإنسان الإحاطة بها وإحصاؤها وتشخيصها من الحاضرين فضلاً عن الغائبين، إلّا رجل يتولّى الله أمره من أوليائه، ويكشف له ذلك بيده، وأنّى لهؤلاء الأجلاف الجافية والفراعنة الطاغية من الأُمّة ذلك؟! وقد عرفت في سورة الفاتحة أنّ أقلّ وصف يتّصف به الشهداء أنّهم تحت ولاية الله ونعمته وأصحاب الصراط المستقيم، فارجع.

---

١. النحل (١٦): ٨٤.
٢. الزمر (٣٩): ٦٩.
٣. الأعراف (٧): ٦.
٤. المائدة (٥): ١١٧.
٥. النساء (٤): ١٥٩.
٦. البقرة (٢): ٢٢٥.

فإن قلت: قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ آمَنُوا بِاللهِ وَرُسُلِهِ أُولَٰئِكَ هُمُ ٱلصِّدِّيقُونَ وَٱلشُّهَدَاءُ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾[١] يدلّ على كون عامّة المؤمنين من الشهداء.

قلت: قوله: ﴿عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ يدلّ على الإلحاق وأنّه سيلحقهم بهم يوم القيامة، ولم ينالوه في الدنيا، وسيجيء نظير ذلك إن شاء الله في قوله تعالى: ﴿لِيَمِيزَ ٱللهُ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ وَيَجْعَلَ ٱلْخَبِيثَ بَعْضَهُ عَلَىٰ بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُ جَمِيعاً فَيَجْعَلَهُ فِي جَهَنَّمَ﴾[٢] وقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ آمَنُوا وَٱتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَا أَلَتْنَاهُمْ مِنْ عَمَلِهِمْ مِنْ شَيْءٍ﴾.[٣]

على أنّ الكلام يوم القيامة غير مأذون فيه إلّا لآحاد من الناس يرضى الله لهم ذلك، قال تعالى: ﴿لَا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَقَالَ صَوَاباً﴾[٤] وسيجيء الكلام فيه أيضاً.

فقد تحصّل من جميع ما مرّ: أنّ الشّهادة غير مبذولة لجميع الأُمّة.

وروى الصفّار عن الباقر ـ عليه السلام ـ قال: «نحن الأُمّة الوسط، ونحن شهداء الله على خلقه».[٥]

أقول: والأخبار بهذا اللسان كثيرة، رواها الكليني والعيّاشي والقمّي والصفّار وغيرهم من رواة الخاصّة.[٦]

---

١. الحديد (٥٧): ١٩.

٢. الأنفال (٨): ٣٧.

٣. الطور (٥٣): ٢١.

٤. النبأ(٧٨): ٣٨.

٥. *بصائر الدرجات*: ٨٢، الحديث:٣.

٦. *الكافي* ١: ١٩١، الحديث:٤؛ *تفسير العيّاشي* ١: ٦٢، الحديث:١١٠؛ *تفسير القمّي* ١: ٦٢؛ *بصائر الدرجات*: ٦٣، الحديث:١١.

وروى العيّاشي عن أميرالمؤمنين ـعليه السلام ـ في حديث يصف فيه يوم القيامة، قال ـعليه السلام ـ: «يجتمعون في موطن يستنطق فيه جميع الخلق، فلا يتكلّم أحد إلّا من أذن له الرحمن وقال صواباً، فيقام [الرسول] فيُسأل، فذلك قوله لمحمّد ـ صلّى الله عليه وآله وسلّم ـ: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هٰؤُلَاءِ شَهِيداً﴾[1] وهو ـصلّى الله عليه وآله ـ الشهيد على الشهداء، والشهداء هم الرسل».[2]

واعلم: أنّ الشهادة على الأعمال ـ على ما يفيده كلامه تعالى ـ لا تختصّ بالشهداء من الناس، بل كلّ ما له تعلّقٌ ما بالعمل في هذه الدنيا ـ مَن ملك وزمان ومكان ودين وكتاب وجوارح وحواسّ وقلب، فله فيه الشهادة.

ويستفاد من الجميع: أنّ الذي يحضر منها يوم القيامة هو الذي في هذه النشأة الدنيويّة، وأنّ لها نحواً من الحياة الشاعرة، بها تتحمّل خصوصيّات الأعمال وترتسم هي فيها، وهي بواطنها، وليس من اللازم أن تكون نسبة الحياة إلى الحيّ في كلّ شيء هي النسبة التي بين حياة نوع الحيوان وجسده؛ حتّى يدفع بالضرورة، فلا دليل على انحصار أنحاء الحياة في نحو واحد، وهو ظاهر. وأمّا تفصيل القول في كلّ واحد واحد منها فموكول إلى محلّه.

قوله سبحانه: ﴿وَمَا جَعَلْنَا ٱلْقِبْلَةَ ٱلَّتِي كُنْتَ عَلَيْهَا...﴾

روي في *التهذيب* عن أبي بصير عن أحدهما ـعليهما السلام ـ، قال: «فقلت له: أمره أن يصلّي إلى بيت المقدس؟ قال: نعم، ألا ترى أنّ الله تبارك وتعالى يقول:

---

١. النساء (٤): ٤١.

٢. تفسير *العيّاشي* ١: ٢٤٢، الحديث: ١٣٢.

﴿وَمَا جَعَلْنَا ٱلْقِبْلَةَ ٱلَّتِي كُنْتَ عَلَيْهَا إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ مِمَّنْ يَنْقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ﴾ »؟!.[١]

أقول: مقتضى الحديث أن يكون قوله: ﴿كُنْتَ عَلَيْهَا﴾ وصفاً للقبلة، والمراد بيت المقدس، وأنّها كانت قبلة مجعولة قبل الكعبة، وهو الذي يؤيّده سياق الآيات، فانّ التصريح بنسخ القبلة وجعلها الكعبة يتكفّلهما الآية اللاحقة: ﴿قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِى ٱلسَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾[٢] وهو ظاهر.

ومن هنا يتأيّد ما ورد في بعض الأخبار عن العسكري ـ عليه السلام ـ: «إنّ هوى أهل مكّة كان في الكعبة، فأراد الله أن يبيّن متّبع محمد ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ من مخالفه؛ باتّباع القبلة التي كرهها ومحمّد ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ يأمر بها، ولمّا كان هوى أهل المدينة في بيت المقدس أمرهم بمخالفتها والتوجّه إلى الكعبة، ليبيّن مَن يتّبع[٣] محمّداً ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ فيما يكرهه فهو مصدقه وموافقه...»،[٤] الحديث.

وبه يتّضح فساد ما قيل: إنّ قوله: ﴿ٱلَّتِي كُنْتَ عَلَيْهَا﴾ مفعول ثان لـ: ﴿جعلنا﴾ والمراد: وما جعلنا القبلة الكعبة التي كنت عليها قبل بيت المقدس، واستدلّ عليه بقوله: ﴿إلاّ لِنَعْلَمَ مِنْ يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ﴾ ووجه الفساد ظاهر.

وروى العيّاشي عن الزبيري عن أبى عبدالله ـ عليه السلام ـ، قال: «قلت له:

---

١. تهذيب الأحكام ٢ : ٤٣، الحديث: ٦.
٢. البقرة (٢): ١٤٤.
٣. في المصدر: «يوافق».
٤. تفسير الإمام العسكرى: ٤٩٥؛ الاحتجاج ١: ٤٢.

ألا تخبرني عن الإيمان: أقول هو وعمل، أم قولٌ بلا عمل؟ فقال ـعليه السلام ـ: الإيمان عمل كلّه، والقول بعض ذلك العمل، مفروض من الله، مبيّن في كتابه، واضح نوره، ثابت[١] حجّته، يشهد له بها الكتاب ويدعو إليه.

ولمّا أن صرف[٢] الله نبيّه إلى الكعبة عن بيت المقدس، قال المسلمون للنبيّ ـصلى الله عليه وآله وسلم ـ: أرأيت صلاتنا التي كنّا نصلّي إلى بيت المقدس، ما حالنا فيها، وما حال من مضى من أمواتنا وهم كانوا[٣] يصلّون الى بيت المقدس؟! فأنزل الله: ﴿**وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ إِنَّ اللهَ بِالنَّاسِ لَرَؤُوفٌ رَحِيمٌ**﴾، فسمّى الصلاة إيماناً، فمن اتّقى الله حافظاً لجوارحه ـ موفّياً كلّ جارحة من جوارحه بما فرض الله عليه ـ لقى الله مستكملاً لإيمانه من أهل الجنّة، ومن خان في شيء منها، أو تعدّى ما أمر الله فيها، لقي الله ناقص الإيمان».[٤]

أقول: ورواه الكليني ملخّصاً.[٥]

*

---

١. في المصدر: «ثابتة»

٢. في المصدر: «أصرف»

٣. في المصدر: ـ«كانوا»

٤. تفسير *العيّاشي* ١: ٦٣، الحديث: ١١٥.

٥. *الكافي* ٢: ٣٤، الحديث: ١ (اختصاراً).

[قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي ٱلسَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا ٱلْكِتَابَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ وَمَا ٱللهُ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١٤٤﴾ وَلَئِنْ أَتَيْتَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا ٱلْكِتَابَ بِكُلِّ آيَةٍ مَا تَبِعُوا قِبْلَتَكَ وَمَا أَنْتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ وَمَا بَعْضُهُمْ بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ إِنَّكَ إِذاً لَمِنَ ٱلظَّالِمِينَ ﴿١٤٥﴾]

قوله سبحانه: ﴿قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ...﴾

في *الفقيه*: «إنّ النبي صلّى[1] إلى بيت المقدس بعد النبوّة ثلاثة عشر[2] سنة بمكّة، وتسعة عشر شهراً بالمدينة، ثمّ عيّره[3] اليهود، فقالوا: إنّك تابع لقبلتنا، فاغتمّ لذلك غمّاً شديداً، فلمّا كان في بعض الليل خرج ـصلى الله عليه وآله وسلم ـ

١. في المصدر: «صلّى رسول الله»
٢. في المصدر: « ثلاث عشرة »
٣. في المصدر: «عيّرته»

يقلّب وجهه في آفاق السماء.

فلمّا أصبح صلّى الغداة، فلمّا صلّى من الظهر ركعتين، جاء جبرئيل ـعليه السلام ـ، فقال له: ﴿قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِى ٱلسَّماءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ...﴾، ثمّ أخذ بيد النبيّ ـصلى الله عليه وآله وسلم ـ فحوّل وجهه إلى الكعبة، وحوّل من خلفه وجوههم حتّى قام الرجال مقام النساء والنساء مقام الرجال، فكان أوّل صلاته إلى بيت المقدس وآخرها إلى الكعبة.

وبلغ الخبر مسجداً بالمدينة ـوقد صلّى أهله من العصر ركعتين ـفحوّلوا نحو القبلة، فكان[1] أوّل صلاتهم إلى بيت المقدس وآخرها إلى الكعبة، فسمّى ذلك المسجد مسجد القبلتين».[2]

أقول: وروى القمّي نحواً من ذلك،[3] وأنّ النبيّ كان في مسجد بني سالم، وفي تفسيره: أنّ هذه الآية مقدّمة على آية ﴿سَيَقُولُ ٱلسُّفَهَاءُ...﴾[4] إلى آخره.

أقول: لوكان المراد أنّ الآية السابقة متأخّرة زماناً من حيث المخبَر به، فهو كذلك، وإلّا فظاهر الآية يدفعه كما مرّ توضيحه.

قوله سبحانه: ﴿فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ...﴾

روى العيّاشي في تفسيره عن الباقر ـعليه السلام ـ قال: «استقبل القبلة، ولا تقلب

---

١. في المصدر: «الكعبة فكانت»

٢. من لا يحضره *الفقيه* ١: ٢٧٤، الحديث: ٨٤٥.

٣. تفسير *القمي* ١: ٦٣.

٤. البقرة (٢): ١٤٢.

وجهك عن القبلة فتفسد صلاتك؛ فإنّ الله يقول لنبيّه في الفريضة: ﴿فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ﴾». [١]

أقول: والأخبار في نزول الآية في الفريضة كثيرة. [٢]

*

١. تفسير *العيّاشي* ١: ٦٤، الحديث: ١١٦.

٢. *الكافي* ٣: ٣٠٠، الحديث: ٦؛ *تهذيب الأحكام* ٢: ٤٢؛ *من لا يحضره الفقيه* ١: ٢٧٥.

[ٱلَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ ٱلْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ وَإِنَّ فَرِيقاً مِنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٤٦﴾ ٱلْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلاَ تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿١٤٧﴾]

قوله سبحانه: ﴿ٱلَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ ٱلْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ﴾

في *تفسير القمّي* عن الصادق ـ عليه السلام ـ قال: «هذه الآية نزلت في اليهود والنصارى، يقول الله تبارك وتعالى: ﴿ٱلَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ ٱلْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ﴾، يعني: يعرفون رسول الله ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ، ﴿كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ﴾ لأنّ الله ـ عزّ وجلّ ـ قد أنزل عليهم في التوراة والزبور والإنجيل صفة محمّد ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ وصفة أصحابه ومهاجرته،[1] وهو قوله تعالى: ﴿مُحَمَّدٌ رَسُولُ ٱللهِ وَٱلَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعاً سُجَّداً يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِنَ ٱللهِ وَرِضْوَاناً سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ ذٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِي ٱلتَّوْرَاةِ وَمَثَلُهُمْ فِي ٱلْإِنْجِيلِ﴾،[2] وهذه صفة رسول الله في التوراة وصفة

١. في المصدر: «ومبعثه وهجرته»
٢. الفتح (٤٨): ٢٩.

أصحابه،[١] فلمّا بعثه الله ـ عزّ وجلّ ـ عرفه أهل الكتاب، كما قال جلّ جلاله: ﴿فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ﴾»[٢]. [٣]

أقول: وروى نحواً منه في *الكافي* عن عليّ ـ عليه السلام[٤] ـ.

ورجوع الضمير إلى رسول الله ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ يوجب الالتفات من الخطاب إلى الغيبة، وهو ـ في الحقيقة ـ رجوع عن خطاب رسول الله ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ إلى خطاب الأُمّة؛ إشعاراً بوضوح أمره عند أهل الكتاب، ثمّ عدل إلى خطاب رسول الله ـ صلّى الله عليه وآله وسلّم ـ ثانياً بقوله: ﴿ٱلْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ﴾.[٥]

ويؤيّد رجوع ضمير قوله: ﴿يَعْرِفُونَهُ﴾ إلى رسول الله: التشبيه بقوله: ﴿كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ﴾ فإنّ ذلك لا يناسب ـ كثير مناسبة ـ رجوع الضمير إلى الكتاب، على أنّ معناه أيضاً لا يناسب المقام.

وبالجملة: مثل هذا النظم كمثل كلام من يكلّم جمعاً ويختصّ واحداً منهم بتوجيه الخطاب تشريفاً، فيخاطبه وحده ويسمع الجماعة، فإذا انتهى إلى ما يخصّ به من الفضل والكرامة عدل عنه إلى مخاطبة الجماعة، ثمّ بعد الفراغ عن ذكر فضله عدل إلى ما كان فيه من توجيه الخطاب، وبه يظهر نكتة الالتفات.

*

---

١. في المصدر: «رسول الله ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ وأصحابه في *التوراة والإنجيل*»

٢. البقرة (٢): ٨٩.

٣. *تفسير القمي* ١: ٣٣.

٤. *الكافي* ٢: ٢٨٣.

٥. البقرة (٢): ١٤٧.

[وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا فَاسْتَبِقُوا ٱلْخَيْرَاتِ أَيْنَ مَا تَكُونُوا يَأْتِ بِكُمُ ٱللهُ جَمِيعاً إِنَّ ٱللهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٤٨﴾ وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَإِنَّهُ لَلْحَقُّ مِن رَبِّكَ وَمَا ٱللهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٤٩﴾ وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَٱخْشَوْنِي وَلِأُتِمَّ نِعْمَتِي عَلَيْكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥٠﴾ كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولاً مِنْكُمْ يَتْلُوا عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱلْكِتَابَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ ﴿١٥١﴾]

قوله سبحانه: ﴿وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَمُوَلِّيهَا...﴾

الوجهة: ما يتوجّه إليه كالقبلة، والضمير يمكن رجوعه إلى الكلّ أو إليه سبحانه.

والآية قابلة الانطباقِ على بيان حال الأقوام من حالٍ صالحة أو طالحة والإنطباقِ على تشريع قبلة لكلّ قوم بما يناسب حالهم، وقابلة الانطباق على

التكوين، نظير قوله: ﴿قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِ﴾.(١)

ولحن الآية في سياقها أنسب مع الأخير سيّما قوله: ﴿أَيْنَ مَا تَكُونُوا يَأْتِ بِكُمُ اللَّهُ جَمِيعاً﴾ من غير أن يبدّل بمثل قوله تعالى: ﴿إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعاً﴾(٢) فيؤول المعنى إلى: أنّا جعلنا لكلّ إنسان غاية وقبلة، هومتوجّه إليها سائر نحوها قاصد إيّاها، وأينما تكونوا وتنتهوا في سيركم فالله يجمعكم ويأت بكم جميعاً لا تفوتون عنه، فاستبقوا الخيرات حتّى يتعيّن غايتكم بالخير، هذا.

فإن قلت: فيكون صدر الآية قاضياً بأنّ سعادة الإنسان وشقاوته ذاتيّة مثبتة، فغايته ـ خيراً أو شرّاً ـ متعيّنة ثابتة لا يتخلف ولا يتخلّف مقتضاها حتماً مقضيّاً، فلا يلائمه حينئذٍ قوله: ﴿فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ﴾ إذ هو تكليف عامّ للسعيد والشقيّ؛ إذ هوبالنسبة إلى السعيد طلب الموجود الحاصل، وهومحال، وبالنسبة إلى الشقيّ طلب المحال.

قلت: هذا هوالذي أوجب إنكار القدر على ما ذهب إليه جمع، أوإثباته وتأويل آيات القضاء والقدر بالعلم من غير تأثير، أوتخصيص ذلك بما دون أفعال الإنسان من الأمور التكوينيّة، والأمر على خلاف ذلك كلّه.

والذي يتحصّل من كلامه سبحانه: أنّ لهذه الموجودات الماديّة التي في هذه النشأة الطبيعيّة ـ مع كون نسبة كلّ موضوع إلى أحكامها وآثارها وعدمها متساوية بإمكان الوقوع واللاوقوع وقبول الطرفين ـ أعمّ من الأفعال الاختياريّة وعدمها، مرتبةً أُخرى من الوجود، هي بحسبها متعيّنة ثابتة، لا تختلف ولا تتخلّف، وهي مرتبة قبل هذه المرتبة الماديّة قبليّة غير زمانيّة،

---

١. الإسراء (١٧): ٨٤.
٢. المائدة (٥): ٤٨.

وسيجيء بيانه إن شاء الله.

وإلى هذا يرجع ما تشاهده من تنوّع كلامه وتفنّنه، فترى من جانب: أنّه سبحانه يدعوإلى عبادته ومعرفته، ويأمر وينهى ويرغّب ويرهّب برحمته وعذابه وجنّته وناره، وترى من جانب آخر: أنّه يحكي عن قول فصل وقضاء حتم وقدر مقدور وأمر مفروغ عنه وأنّه الخالق لكلّ شيء ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئاً أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾[١] ولم يبدّل القضاء بلفظ العلم، ولا استثنى أفعال الإنسان من خلقته، ولا نفى الاختيار، ولا أثبت التفويض، بل ربّما فرّع أحد الوجهين على الآخر كقوله: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هٰذَا غَافِلِينَ﴾[٢] وكما في هذه الآية: ﴿وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَمُوَلِّيهَا فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ﴾.

وبالجملة: فالحقّ ـ كما سيمرّ بك بيانه ـ أنّ مرتبةَ الاختيار والإمكان متّحدةٌ بوجهٍ مع مرتبة القضاء والقدر ـ التي لا تتغيّر ـ اتّحادَ الصورة مع المعنى والظاهر مع الباطن.

واعلم: أنّه قد وردت أخبار كثيرة في أنّ قوله تعالى: ﴿أَيْنَ مَا تَكُونُوا يَأْتِ بِكُمُ اللّٰهُ جَمِيعاً﴾ في أصحاب القائم المهدي ـ عليه السلام[٣] ـ، ولعلّ ذلك من باب الجري.

قوله سبحانه: ﴿لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ﴾

---

١. يس (٣٦): ٨٢.

٢. الأعراف (٧)): ١٧٢.

٣. *الكافي* ٨: ٣١٣، الحديث: ٤٨٧؛ *الخرائج والجرائح* ٣: ١١٥٦؛ *تفسير العيّاشي* ٢: ٥٧.

تعليل لما أمر به من الملازمة على استقبال الكعبة في جميع الأحوال في الفرائض، لئلّا يقول الناس: لو كانوا على الحقّ وكان حكم الاستقبال من الله ما تركوه في حال.

وهذه وإن لم تكن حجّة قاطعة ـ إذ مخالفة المأمور لا توجب بطلان الأمر ـ إلّا أنّها مسوقة سياق الحجّة؛ ولذلك استثنى منهم الذين ظلموا، القائلين: إنّ ذلك هوى من النبيّ ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ، ومن تبعه وتهوّس، فلا يعبأ بقولهم عن هوى أنفسهم.

وما في *تفسير القمّي*: انّه يعني «ولا الذين ظلموا»، و«إلاّ» في موضع «ولا»، [و] ليست هي استثناء، انتهى[1]؛ فهومعنى غير معهود في اللغة.

قوله سبحانه: ﴿وَلِأُتِمَّ نِعْمَتِي عَلَيْكُمْ﴾

تعليل بعد تعليل لأمرهم بالملازمة على الإستقبال والمداومة، وأنّ ملازمَتهم عليه واستقامتهم فيه ـ كما أُمروا ـ موجبٌ لإتمامه تعالى نعمته عليهم: من حيث إبقاؤها وإدامتها عليهم مادامو من غير أن يفقدوها، ومن حيث إيفاؤها، وإنزال ما بقي منها بعدُ إليهم.

قال تعالى: ﴿بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ﴾[2] وقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ ٱلَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ * نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي ٱلْحَيَاةِ ٱلدُّنْيَا وَفِي ٱلْآخِرَةِ﴾[3] وقال: ﴿أَلَا إِنَّ

---

١. *تفسير القمي* ١: ٦٢.
٢. الحجرات (٤٩): ١٧.
٣. فصّلت (٤١): ٣١ ـ ٣٠.

أَوْلِيَاءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾.[١]

ومن هنا تعرف أنّ النعمة هي الولاية. لكن لا يذهب عليك أنّ إتمام النعمة من الله تعالى لا يوجب تمام تنعّم العبد؛ ولذلك أمرهم في الآية التالية بالشكر، ونهاهم عن الكفران.

وقد تكثّر في الأخبار ذكر النعمة وتفسيرها بالولاية، فيؤول المعنى من هذه الجهة ـ والله العالم ـ إلى أنّكم لواستقمتم على ما تؤمرون انقطع احتجاج الناس عنكم، وأتممت عليكم الدِّين بإنزال جميع أحكامه، وإنزال حكم الولاية التي هي بمنزلة الروح فيها.

وفي الحديث عن طرق العامّة: «تمام النعمة دخول الجنّة»[٢] وأيضاً بطرقهم عن علي ـ عليه السلام ـ: تمام النعمة، الموت على الإسلام.[٣]

أقول: ومرجعهما إلى الجهة الأُولى من المعنى الذي ذكرنا.

قوله سبحانه: ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾

تعليل ثالث بعد التعليلين.

وحيث كان الخطاب للمؤمنين ـ وقد تشرّفوا بالاهتداء إلى الإيمان، وقد قال بعد الآية: ﴿كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ...﴾ الآية ـ فهذه الهداية غير الهداية السابقة، وقد ذكر قبلها إتمام النعمة في سياق التفريع والترتّب، فهي بعده أيضاً، ثم صدّرها

---

١. يونس (١٠): ٦٢.

٢. سنن الترمذي ٥: ٢٠٢، الحديث: ٣٥٩٥؛ *الأدب المفرد*: ١٥٦، الحديث: ٧٢٥؛ كنز *العمّال* ٢: ٣٤، الحديث: ٣٠٢٣.

٣. راجع: *الميزان في تفسير القرآن* ١: ٣٣٥؛ تفسير *الأصفى* ١: ٧٣.

بكلمة الترجّي الموئة إلى أنّها من الممكن أن تترتّب أولا تترتّب، فليست باختيار العبد، فهي التحقّق بالنعمة، أعني تمام التنعّم بالولاية الذي ليس باختيار العبد.

وقد مرّ في معنى الإسلام والإيمان مايتعلّق به في ذيل قوله: ﴿إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ﴾.[1]

*

---

١. البقرة (٢): ١٣١.

[فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ ﴿١٥٢﴾]

قوله سبحانه: ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ﴾

الذكر ربّما قابل الغفلة؛ كقوله: ﴿وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا﴾[1] وهي انتفاء العلم بالعلم مع وجود العلم، فالذكر خلافه.

وربّما قابل النسيان، وهوزوال الصورة العلميّة عن الخزانة، فالذكر خلافه، ومنه قوله: ﴿وَاذْكُرْ رَبَّكَ إِذَا نَسِيتَ﴾،[2] وهو حينئذٍ ـ كالنسيان ـ معنىً ذوآثار وخواصّ تتفرّع عليه؛ ولذلك ربّما أُطلقا ـ في موارد لم يتحقّقا فيها ـ بمجرّد تحقّق آثارهما؛ فإنّك إذا لم تنصر صديقك وأنت تعلم حاجته إلى نصرك فقد نسيته؛ وكذلك الذكر.

والظاهر أنّ إطلاق الذكر على الذكر اللفظيّ، من هذا القبيل؛ كقوله تعالى: ﴿قُلْ سَأَتْلُوا عَلَيْكُمْ مِنْهُ ذِكْرًا﴾،[3] ونظائره كثيرة.

---

١. الكهف (١٨): ٢٨.

٢. الكهف (١٨): ٢٤.

٣. الكهف (١٨): ٨٣.

ولوكان الذكر اللفظيّ أيضاً ذكراً حقيقة، فالذكر ذو مراتب هو أحدها، ومرتبته الأُخرى الذكر القلبيّ، قال تعالى: ﴿أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ﴾[١] وقال: ﴿وَٱذْكُر رَّبَّكَ فِى نَفْسِكَ تَضَرُّعاً وَخِيفَةً وَدُونَ ٱلْجَهْرِ مِنَ ٱلْقَوْلِ﴾[٢] وقال: ﴿فَاذْكُرُوا ٱللَّهَ كَذِكْرِكُمْ آبَاءَكُمْ أَوْأَشَدَّ ذِكْراً﴾[٣] فالشدة إنّما يتّصف بها المعنى دون اللفظ، وقال: ﴿وَٱذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ وَقُلْ عَسَىٰ أَن يَهْدِيَنِ رَبِّى لِأَقْرَبَ مِنْ هَـٰذَا رَشَداً﴾[٤] وذيل الآية يدلّ على طلب ما هو أعلى منزلة ممّا هو فيه، فيؤول المعنى إلى أنّك إذا تنزّلت من مرتبة من ذكره ـ بالنسيان ـ إلى مرتبةٍ هي دونه، فاذكر ربّك واسأل ما هو أقرب طريقاً وأعلى منزلةً، فينتج: أنّ الذكر القلبي ذو مراتب في نفسه.

وكيف كان، فلوكان لقوله: ﴿فَاذْكُرُونِى﴾ حقيقة من غير مجاز، أفاد ذلك أنّ للإنسان سنخاً آخر من العلم غير هذا العلم المعهود عندنا؛ وهو حضور صورة المُدرَك بالفتح عند المُدرِك بالكسر إذ كلّ ما فرض من هذا السنخ فهو توصيف للمعلوم، وتقدّست ساحته سبحانه عن توصيف الواصفين، قال تعالى: ﴿سُبْحَانَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ * إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ﴾[٥] وقال: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْماً﴾.[٦]

وينتج ذلك أوّلاً[٧] أنّ إطلاق ذكر الله على الأذكار القلبيّة ـ أيضاً ـ كإطلاق الذكر على الذكر اللفظي مسامحة، وليس من الحقيقة في شيء، إلّا بعناية

---

١. الرعد (١٣): ٢٨.
٢. الأعراف (٧): ٢٠٥.
٣. البقرة (٢): ٢٠٠.
٤. الكهف (١٨): ٢٤.
٥. الصافات (٣٧): ١٦٠ ـ ١٥٩.
٦. طه (٢٠): ١١٠.
٧. ليس لهذه الكلمة عدل ظاهر في العبارة.

سنشرحها إن شاء الله في ذيل قوله: ﴿سُبْحَانَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾.[1]

وقد تكاثرت الأخبار في فضل الذكر:

فقد روي عنهم بطرق كثيرة: «ذكر الله حسن على كلّ حال».[2]

وفي *عدّة الداعي* قال: «روي أنّ رسول الله ـ صلّى الله عليه وآله وسلّم ـ خرج على أصحابه، فقال: ارتعوا في رياض الجنّة، قالوا: يا رسول الله! وما رياض الجنّة؟ قال: مجالس الذكر، اغدوا وروحوا واذكروا، ومن كان يحبّ أن يعلم منزلته عند الله فلينظر كيف منزلة الله عنده؛ فإنّ الله تعالى ينزّل العبدَ حيث أنزل العبدُ اللهَ من نفسه.

واعلموا أنّ خير اعمالكم عند مليككم ـ وأزكاها وأرفعها في درجاتكم، وخير ما طلعت عليه الشمس ـ ذكر الله تعالى؛ فإنّه تعالى أخبر عن نفسه فقال: أنا جليس من ذكرني، وقال سبحانه: ﴿فَاذْكُرُونِى أَذْكُرْكُمْ﴾ بنعمتي، اذكروني بالطاعة والعبادة أذكركم بالنعم والإحسان والراحة والرضوان».[3]

وفي *المحاسن* و*دعوات* الراوندي عن الصادق ـ عليه السلام ـ، قال: «إنّ الله تبارك وتعالى يقول: من شغل بذكري عن مسألتي، أُعطيه أفضل ما أُعطي من سألني».[4]

وفي *المعاني* عن الحسين البزّاز قال: «قال لي أبو عبد الله ـ عليه السلام ـ: ألا أُحدّثك بأشدّ ما فرض الله على خلقه؟ قلت: بلى، قال: إنصاف الناس من

---

١. المؤمنون (٢٣): ٩١.

٢. *عدّة الداعي*: ٢٥٤؛ *علل الشرائع* ١: ٢٨٤؛ *وسائل الشيعة* ١: ٣١٤، الحديث: ٨٢٧.

٣. *عدّة الداعي*: ٢٥٣.

٤. *المحاسن* ١: ٣٩، الحديث: ٤٣؛ *الدعوات*: ١٩، الحديث: ١٣.

نفسك، ومواساتك لأخيك، وذكر الله في كلّ موطن، أما إنّي لا أقول: سبحان الله والحمد لله ولا إله إلّا الله والله أكبر ـ وإن كان هذا من ذلك ـ ولكن ذكر الله في كلّ موطن إذا هجمت على طاعته أومعصيته»[١].[٢]

أقول: وهذا المعنى مرويّ بطرق كثيرة عن النبيّ والأئمّة[٣] وفي بعضها: «وهو قول الله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَٰنِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ﴾».[٤]

وفي *عدّة الداعي* عن النبيّ ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ قال: «قال الله سبحانه: إذا علمتُ أنّ الغالب على عبدي الاشتغال بي، نقلت شهوته في مسألتي ومناجاتي، فإذا كان عبدي كذلك فأراد أن يسهو، حُلت بينه وبين أن يسهو، أُولئك أوليائي حقّاً، أُولئك الأبطال حقّاً، أُولئك الذين إذا أردتُ أن أُهلك أهل الأرض عقوبةً زويتها عنهم من أجل أُولئك الأبطال».[٥]

وفي *المحاسن* عن الصادق ـ عليه السلام ـ قال: «قال الله تعالى: ابن آدم! اذكرني في نفسك أذكرك في نفسي، ابن آدم! اذكرني في الخلاء أذكرك في خلاء، ابن آدم! اذكرني في ملاء أذكرك في ملاء خير من ملائك، وقال: ما من عبد يذكر الله في ملاء من الناس إلّا ذكره الله في ملاء من الملائكة».[٦]

---

١. في المصدر: «طاعة أومعصية»

٢. *معاني الأخبار*: ١٩٢، الحديث: ٣.

٣. *الكافي* ٨: ٧٢، عن السجاد (ع)؛ ٢: ٤٣٤، الحديث: ٧، عن الصادق (ع)؛ *معاني الأخبار*: ١٩٢، الحديث: ٢، عن الباقر (ع)؛ *مجموعة ورام* ٢: ٢٠١، عن الصادق (ع)؛ *الخصال* ١: ١٣١، الحديث: ١٣٨؛ *تفسير القمي* ١: ٢٥٣؛ *تفسير العيّاشي* ٢: ٤٣ ـ ٤٤، الحديث: ١٢٨ و ١٢٩، عن الصادق (ع).

٤. الأعراف (٧): ٢٠١.

٥. *عدة الداعي*: ٢٤٩.

٦. *المحاسن*: ٣٩، الحديث: ٤٤.

[يَا أَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا ٱسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَٱلصَّلاةِ إِنَّ ٱللهَ مَعَ ٱلصَّابِرِينَ ﴿١٥٣﴾ وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ يُقْتَلُ فِى سَبِيلِ ٱللهِ أَمْوَاتٌ بَلْ أَحْيَاءٌ وَلَكِنْ لَا تَشْعُرُونَ ﴿١٥٤﴾]

قوله سبحانه: ﴿يَا أَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا﴾

روي عن طريق العامّة عن إبن عبّاس قال: «قال رسول الله ـصلّى الله عليه وآله وسلم ـ: ما أنزل الله آية فيها ﴿يَا أَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا﴾ إلّا عليٌّ ـعليه السلام ـ رأسها وأميرها».[1]

أقول: وفي أخبار الخاصّة ما يستفاد منه ذلك.[2]

واعلم: أنّ هذا الخطاب بلفظ ﴿يَا أَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا﴾ من مختصّات القرآن، فلا تكاد تجده في سائر الخطابات، كخطابات النبيّ ـصلى الله عليه وآله وسلم ـ والأئمّة، بل خطاباتهم مصدّرة غالباً بقولهم: «يا عباد الله» و«يا أيها الناس»، وكذلك ما يحكيه القرآن من خطابات سائر الأنبياء ـعليهم السلام ـ،

---

١. *حلية الأولياء* ١: ٦٤؛ *الغدير* ٨: ٨٨.

٢. *كشف الغمة* ١: ٣٠٢؛ *المناقب* ٣: ٥٢؛ *الطرائف* ١: ٨٨، الحديث: ١٢٥؛ *شواهد التنزيل* ١: ٦٥، الحديث: ٧١.

كنوح وهود وصالح وشعيب وموسى وعيسى ـ عليهم السَّلام ـ، مصدّرة بقولهم: ﴿يا قَوْمِ﴾[١] و ﴿يا بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾.[٢]... وغير ذلك حتى أنّ الخطابات الواردة في الأحاديث القدسيّة مصدّرة بقوله: «يا بن آدم»،[٣] وإنّما الخطاب بلفظ: «يا أيّها الذين»، مختصّ بخطابات القرآن لهذه الأمّة، وإن كان فيها مثل قوله: ﴿يَا أَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَارَةٍ تُنجِيكُم مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ * تُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَرَسُولِهِ﴾،[٤] وقوله: ﴿أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا ٱللهَ إِنَّنِي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ﴾.[٥]

لكنّك إذا تصفّحت كلامه سبحانه وتدبّرته وجدت أنّه تعالى يخصّ العلم بالإيمان على الحقيقة بنفسه.

قال: ﴿وَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ مِنْكُمْ طَوْلاً أَنْ يَنْكِحَ ٱلْمُحْصَنَاتِ ٱلْمُؤْمِنَاتِ فَمِنْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُم مِنْ فَتَيَاتِكُمُ الْمُؤْمِنَاتِ وَٱللهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِكُمْ﴾[٦] وقال: ﴿يَاأَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا إِذَا جَاءَكُمُ ٱلْمُؤْمِنَاتُ مُهَاجِرَاتٍ فَامْتَحِنُوهُنَّ ٱللهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِهِنَّ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَاتٍ﴾[٧] فقوله: ﴿ٱللهُ أَعْلَمُ﴾ في الآيتين للإشعار بأنّ الميزان في وصف الإيمان هو الظاهر، وأمّا الباطن وحقيقة الأمر فهو عند الله.

ثمّ إذا تأمّلت قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ آمَنُوا وَٱتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ

---

١. البقرة (٢): ٥٤؛ المائدة (٥): ٢٠؛ الأعراف (٧): ٥٩ وغيرها.
٢. البقرة (٢): ٤٠؛ البقرة (٢): ٤٧؛ المائدة (٥): ٧٢ وغيرها.
٣. *الكافي* ١: ١٥٢، الحديث: ٣ و: ١٥٧، الحديث: ٣؛ *من لا يحضره الفقيه* ١: ٣٢٩، الحديث: ٩٦٥؛ *تهذيب الأحكام* ٩: ١٧٥، الحديث: ١٢.
٤. الصف (٦١): ١٠ ـ ١١.
٥. هود (١١): ٢.
٦. النساء (٤): ٢٥.
٧. الممتحنة (٦٠): ١٠.

ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَا أَلَتْنَاهُمْ مِنْ عَمَلِهِمْ مِنْ شَيْءٍ﴾،[١] وقوله: ﴿ٱلَّذِينَ يَحْمِلُونَ ٱلْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْماً فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَٱتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ * رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّاتِ عَدْنٍ ٱلَّتِي وَعَدْتَّهُمْ وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ﴾،[٢] وجدته يجعل الذين استجابوا دعوة رسول الله ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ في زمانه شفاهاً وآمنوا بالله ورسوله ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ أصلاً، وسائر المؤمنين ـ ممّن تقدّمهم أو لحق بهم ـ فرعاً وملحقاً بهم.

ومن هنا تعرف أنّ الخطاب بلفظ ﴿يَا أَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا﴾ تشريف خاصّ لمن آمن برسول الله في دعوته من المسلمين، هذا.

وأنت تعلم أنّ خطاباته سبحانه على الحقيقة؛ أي أنّه يعني بالمؤمنين في قوله: ﴿يَا أَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا﴾ المؤمنين حقيقةً، ويخصّهم في بياناته وتشريعاته، وهو أعلم بالسرائر، وأمّا رسول الله ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ وغيره من الأنبياء والأئمّة ـ عليهم السلام ـ فوظيفتهم هو الركون على المتراءى من إسلام الناس، فلا وجه لأخذهم صفة الإيمان في خطاباتهم؛ حتّى يختصّ تعليمهم بالمؤمنين، ويتميّز غير المؤمنين عنهم بالخروج عن دائرة البيان، مع كون وظيفتهم الاختلاط مع الجميع ودعوة الجميع وتربيتهم، فافهم.

قوله سبحانه: ﴿ٱسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَٱلصَّلَاةِ إِنَّ ٱللهَ مَعَ ٱلصَّابِرِينَ﴾

قد مرّ الكلام في معنى الاستعانة بالصبر والصلاة في أوائل السورة، وعلّله هاهنا

١. الطور (٥٢): ٢١.

٢. غافر (٤٠): ٧ ـ ٨.

بأنّ الله مع الصابرين، وهذه معيّة خاصّة دون المعيّة التي يكشف عنها قوله: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ﴾[1] ولذلك فهذا الصبر صبر في جنب الله عن هوى النفس ومشتهاها وفي البأساء والضرّاء وعلى مصائب الدنيا ونوائبها.

قوله سبحانه: ﴿بَلْ أَحْيَاءٌ وَلٰكِن لَا تَشْعُرُونَ﴾

المخاطبة مع المؤمنين الذين يؤمنون بالله ورسوله واليوم الآخر، فلا يتصوّر منهم القول بالبطلان في الأموات، فنهيُهم عن القول به في خصوص المقتولين في سبيل الله، والأمر شامل لهم ولغيرهم من الأموات، ثمّ إثباتُ الحياة لهم بقوله: ﴿بَلْ أَحْيَاءٌ﴾ مع أنّ كلّ مؤمن ـ بقريحة إيمانه، وبما جاءه من عند الله من الآيات ـ قائل بأنّ المقتولين في سبيل الله أحياءٌ بحياة السعادة، وأحياءٌ بحياة الآخرة الطيّبة، وأحياءٌ بحياة الاسم والذكر الجميل؛ فقوله سبحانه مع ذلك كلّه: ﴿وَلٰكِن لَا تَشْعُرُونَ﴾ يقضي بأنّ هذه حياة خاصّة لا يشعرون بها مع ذلك كلّه، فهي غير الجميع.

وقد بدّل سبحانه هذه اللفظة بأُخرى في قوله: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ ٱللهِ أَمْوَاتاً بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾[2] وسيأتي بقيّة الكلام هناك إن شاء الله.

ويؤيّد ما ذكرنا: ما عن الباقر ـ عليه السلام ـ قال: «أتى رجل رسول الله ـ صلّى الله عليه وآله وسلّم ـ فقال:

«إنّي راغب نشيط في الجهاد، قال: فجاهد في سبيل الله؛ فإنّك إن تقتل كنت

---

١. الحديد (٥٧): ٤.

٢. آل عمران (٣): ١٦٩.

حيّاً عند الله ترزق، وإن متّ فقد وقع أجرك على الله...»[1] الحديث، فخصّ الحياة بالشهادة مع كونها مشتركة بين القتل والموت.

*

١. مستدرك *الوسائل* ١١: ٩، الحديث: ١٢٢٨٧؛ *تفسير العيّاشي* ١: ٢٠٦، الحديث: ١٥٢.

[وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِنَ ٱلْخَوْفِ وَٱلْجُوعِ وَنَقْصٍ مِنَ ٱلْأَمْوَالِ وَٱلْأَنْفُسِ وَٱلثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ ٱلصَّابِرِينَ ﴿١٥٥﴾ ٱلَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلّٰهِ وإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ﴿١٥٦﴾ أُولٰئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولٰئِكَ هُمُ ٱلْمُهْتَدُونَ ﴿١٥٧﴾]

قوله سبحانه: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ...﴾

روى النعماني عن محمّد بن مسلم عن الصادق ـ عليه السلام ـ قال: «إنّ قدّام القائم ـ عليه السلام ـ علامات، بلوى من الله للمؤمنين، قلت: وما هي؟ قال: فذلك قول الله: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ...﴾ قال: ﴿لَنَبْلُوَنَّكُمْ﴾ يعني المؤمنين ﴿بِشَيْءٍ مِنَ ٱلْخَوْفِ﴾ من ملوك بني فلان في آخر سلطانهم ﴿وَٱلْجُوعِ﴾ بغلاء أسعارهم ﴿وَنَقْصٍ مِنَ ٱلْأَمْوَالِ﴾ فساد التجارات وقلّة الفضل فيها ﴿وَٱلْأَنْفُسِ﴾ موت ذريع ﴿وَٱلثَّمَرَاتِ﴾ قلّة ريع ما يزرع وقلّة بركة الثمار ﴿وَبَشِّرِ ٱلصَّابِرِينَ﴾ عند ذلك بخروج القائم، ثمّ قال[1]: يا محمد! هذا تأويله ﴿وَمَا يَعْلَمُ

١. في المصدر: + «لي»

تَأْوِيلَهُ إِلاَّ اللَّهُ وَ الرَّاسِخُونَ فِى الْعِلْمِ ﴾[١]».[٢]

أقول: وفي هذا المعنى روايات أُخرى، وفيها أيضاً أنّ ذلك من التأويل، وسيجيء معنى التأويل في أوائل سورة آل عمران.

قوله سبحانه: ﴿ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ...﴾

وهذا أيضاً من شواهد أنّ الصبر هاهنا هو الصبر في جنب الله، فكون الأشياء ملكاً خالصاً لله سبحانه، لا يدع لها من نفسها شيئاً، حتّى يجزع على فقده جازع متأسف، إلّا ما يتراءى في الظاهر من ملك الإنسان لنفسه ـ ولما يتعلّق به نوع تعلّق ـ ملكاً صوريّاً واستقلالاً وهميّاً، ويحسمه: أنّ هذه الأشياء هالكة جميعاً راجعة إليه سبحانه، فالتفات المصاب إلى هذين المعنيين يمنع من نزول أثر النازلة في نفسه.

اعلم: أنّ إصلاح أخلاق النفس وملكاتها في جانبي العلم والعمل، واكتساب الفاضلة وطمس الرديّة منها، إنّما هو بتكرار الأعمال الصالحة ـ المناسبة لها ـ ومزاولتها وممارستها حتّى تثبت العلوم الجزئيّة الحاصلة من الموارد، وتنتقش في النفس انتقاشاً متعذّر الزوال أو متعسّره، فهي اختيارية باختيارية جزئيات الأعمال والأفعال، والفعل الاختياري مسبوق بالعلم بالأصلح والخير والنافع، وهذا العلم الذي ـ هو مبدأ الفعل الاختياري ـ هو الغاية له، مثاله: أنّ إرادة الانتقام توجب فعل ما يكرهه العدوّ، فيحصل الانتقام.

إذا عرفت هذا علمت: أنّ هناك لتهذيب الأخلاق مسلكين:

---

١. آل عمران (٣): ٧.

٢. *الغيبة* للنعماني: ٢٥٠، الحديث: ٥.

أحدهما: تهذيبها بالغايات الصالحة الدنيويّة والعلوم والآراء المحمودة، كما يقال: إنّ العفّة وقناعة الإنسان بما عنده توجب العزّة والعظمة في أعين الناس والجاه عند العامّة، وإنّ الشره يوجب الخصاصة والفقر، وإنّ الطمع يوجب ذلّة النفس المنيعة، وإنّ العلم يوجب إقبال العامّة والعزّة والأُنس عند الخاصّة، والعلم بصر يتّقي به الإنسان كلّ مكروه ويدرك كلّ محبوب، وإنّ الجهل عمى، وإنّ الشجاعة ثبات يمنع النفس عن التلوّن والحمد من الناس على أيّ تقدير، بخلاف الجبن والتهوّر، وإنّ العدالة توجب راحة النفس عن الهمم المؤذية؛ وهي الحياة بعد الموت ببقاء الاسم ونموّ الذكر والمحبّة في القلوب.

وهذا هو المسلك المعهود من الحكمة والفلسفة، وربّما استعمل هذا المسلك في كلامه سبحانه، كقوله: ﴿وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ﴾[١] وقوله: ﴿وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُوا﴾[٢] وقوله تعالى: ﴿وَلَمَنْ صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾.[٣]

وثانيهما: الغايات الأُخرويّة، وقد كثر إعمالها في كلامه سبحانه، كقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ﴾[٤] وقوله: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾[٥] وقوله: ﴿إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾[٦] وقوله: ﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ

---

١. البقرة (٢): ١٥٠.
٢. الأنفال (٨): ٤٦.
٣. الشورى (٤٢): ٤٣.
٤. التوبة (٩): ١١١.
٥. الزمر (٣٩): ١٠.
٦. ابراهيم (١٤): ٢٣؛ الشورى (٤٢): ٢١.

﴿ٱلطَّـٰغُوتُ يُخْرِجُونَهُمْ مِنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَاتِ﴾[1] وأمثالها كثيرة على اختلاف فنونها.

ويلحق بهذا القسم نوع آخر من الآيات، كقوله تعالى: ﴿مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِى كِتَابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا إِنَّ ذٰلِكَ عَلَى ٱللّٰهِ يَسِيرٌ * لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ﴾،[2] فإنّ الآية وإن دعت إلى عدم الأسى والفرح بأنّ الذي يصيبهم ما كان ليخطئهم، والذي يخطئهم ما كان ليصيبهم ـ لاستناد الحوادث إلى قضاء مقضيّ وقدر مقدور، فالأسى والفرح لغو لا ينبغي ـ لكن بضمّ قوله سبحانه: ﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ ـ إلى قوله ـ: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنِ ٱللَّغْوِ مُعْرِضُونَ﴾[3] يتمّ لحوقها بالقسم الثاني.

وكذا قوله تعالى: ﴿وَمَا ٱلْحَيَاةُ ٱلدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ ٱلْغُرُورِ﴾[4] وقوله: ﴿فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ عَلَىٰ آثَارِهِم إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَسَفاً * إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً﴾.[5]... إلى غير ذلك من الآيات؛ فهذان القسمان مستعملان في كلامه تعالى.

وهاهنا قسم ثالث مخصوص بالقرآن ـ ولا تكاد تجده فيما نقل إلينا من الشرائع الماضية والمعارف المأثورة من الحكماء والمتألّهين، وربّما سمّي بطريقة الإحراق ـ وهو تربية الإنسان وصفاً وفعلاً باستعمال علوم ومعارف لا يبقى معها موضوع للرذائل.

---

١. البقرة (٢): ٢٥٧.

٢. الحديد (٥٧): ٢٢ ـ ٢٣.

٣. المؤمنون (٢٣): ١ ـ ٣.

٤. آل عمران (٣): ١٨٥.

٥. الكهف (١٨): ٦ ـ ٧.

وذلك أنّ كلّ عمل لغاية مقصودة يراد به غير الله سبحانه: إمّا لعزّةٍ عنده يطمع فيها، أو لقوّةٍ يخاف منها ويحذر عنها، وقد قال تعالى: ﴿فَإِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعاً﴾[١] وقال: ﴿أَنَّ ٱلْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعاً﴾[٢] فلا موضوع لرياء ولا سمعة ولا خوف من غيره تعالى، ولا رجاء لغيره تعالى، ولا ركون إلى غيره تعالى، فهذان العِلمان إذا تمّا يغسلان كلّ ذميمة فعل أو وصف عن الإنسان، ثمّ ينمّيان وينبتان في قلبه ويولّدان في نفسه كلّ ما يقابلها من الأوصاف الإلٰهيّة من القوّة بالله والعزّة بالله ومناعة وكبرياء واستغناء وهيبة إلٰهيّة ربّانيّة.

وأيضاً تكرّر في كلامه أنّ: ﴿لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾[٣] و ﴿لَهُ مَا فِى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾[٤] وحقيقة هذا الملك لا تبقى لموجود استقلالاً بوجه من الوجوه، فلا شيء إلّا وهو المالك لذاته ولكلّ ما لذاته، وإيمان العبد بهذا الملك وتحقّقه به يوجب سقوط جميع الأشياء ذاتاً ووصفاً وفعلاً عنده عن درجة الاستقلال، وهذا الإنسان لا يمكنه أن يريد غير وجهه سبحانه، ولا أن يخضع لشيء أو يخاف أو يرجو شيئاً، أو يلتذّ ويبتهج بشيء، أو يركن لشيء، أو يتوكّل على شيء، أو يسلّم أو يفوّض إلى شيء، غير وجهه سبحانه.

وبالجملة: لا يريد ولا يطلب إلّا وجهه الباقي بعد فناء كلّ شيء، ولا يُعرض ولا يهرب إلّا عن غيره، الذي لا يرى لوجوده وقعاً، ولا يعبأ به قبال وجود بارئه ـ عزّ وجلّ ـ

---

١. النساء (٤): ١٣٩.
٢. البقرة (٢): ١٦٥.
٣. البقرة (٢): ١٠٧؛ المائدة (٥): ٤٠؛ الزخرف (٤٣): ٨٥.
٤. البقرة (٢): ١١٦؛ النحل (١٦): ٥٢.

وكذلك قوله: ﴿ٱللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ لَهُ ٱلْأَسْمَاءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾[1] وقوله: ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾[2] وقوله: ﴿ٱلَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ﴾[3] وقوله: ﴿وَعَنَتِ ٱلْوُجُوهُ لِلْحَيِّ ٱلْقَيُّومِ﴾[4] وقوله: ﴿كُلٌّ لَهُ قَانِتُونَ﴾[5] وقوله: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ﴾[6] وقوله: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾[7] وقوله: ﴿أَلَا إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُحِيطٌ﴾.[8]... إلى غير ذلك.

ومن هذا الباب: ﴿وَبَشِّرِ ٱلصَّابِرِينَ * ٱلَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾.

فهذه الآيات وأمثالها مشتملة على معارف خاصّة إلٰهيّة ذوات نتائج خاصّة.

وأنت إذا أمعنت الإمعان التامّ في الأخلاق النفسانيّة ـ وإصلاحها بالمسلكين السابقين ـ وجدتها مرتبطة بالنفس الإنسانيّة بحسب قواها العلّامة والعمّالة، مرتّبة ـ بحسب جزئيّة تلك القوى وكلّيّتها ـ من فروع متفرّعة على أُصولها، المتولّدة عن أُصول أخر فوقها، حتّى تنتهي إلى الأُمّهات: وهي العفّة والشجاعة والحكمة والعدالة؛ وهي اعتدال القوى الكلّيّة النفسانيّة من حيث أفعالها؛ أعني الشهوة والغضب والفكر والملكة، التي نسبتها إلى هذه الأُمّهات الثلاثة،[9] نسبة

---

١. طه (٢٠): ٨.
٢. غافر (٤٠): ٦٢.
٣. السجدة (٣٢): ٧.
٤. طه (٢٠): ١١١.
٥. البقرة (٢): ١١٦؛ الروم (٣٠): ٢٦.
٦. الإسراء (١٧): ٢٣.
٧. فصّلت (٤١): ٥٣.
٨. فصّلت (٤١): ٥٤.
٩. أي: الشهوة والغضب والفكر.

المزاج إلى العناصر المختلطة الذي هو كيفيّة متوسطة، فهذه هي الفضائل الكلّية، وهي اعتدال القوى.

والرذائل بالنسبة إليها خروج النفس فيها من حدّ الاعتدال إلى أحد جانبي الافراط والتفريط، وهي الشره والخمود في الشهوة، والتهوّر والجبن في الشجاعة، والجربزة والبلادة في الفكر.

والغاية في إصلاحها حصول الفضيلة ـ التي هي الكمال بحكم العقل ـ للإنسان من حيث وقوعه في هذه النشأة الطبيعيّة وحياته الاجتماعيّة فيها، وبقاؤه بعد الارتحال عنها في الآخرة.

فعلى محصّل الفضائل الخلقيّة أن يضع كلّ قوّة من قواه الوجوديّة موضعها ويحصّل آثارها، ثمّ لا يبطلها بإبطال آثارها وهو التفريط، ولا يخلّيها تفعل كل ما تريد وتشتهي، بحيث يزاحم بفعلها سائر القوى العمّالة أعمّ من نفسه وغيره في هذا العالم الطبيعي، وبعده في الآخرة، والغاية ـ التي هي الفضيلة ـ ربّما أدركها العقل الاجتماعي، وربّما اختصّ بإثباتها الشريعة الإلٰهيّة، هذا جملة القول فيها.

ثمّ إذا تأمّلت التأمّل التامّ في المسلك الثالث، وجدته فاقداً للترتيب المذكور، وغير دائر مدار اعتدال القوى، والغاية هناك غير الغاية.

توضيح ذلك بنحو الإجمال: أنّ الإنسان إذا تحقّق بحقيقة الإيمان صار يعبد الله كأنّه يراه، فإن لم يكن يراه فإنّه تعالى يراه، وصار كأنّه يشاهده في أسمائه وأفعاله، فاشتدّ حبّه له تعالى؛ إذ الإنسان مفطور على حبّ الجميل، وقد قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبّاً لِلّهِ﴾[1] وصار يتّبع الرسول في جميع حركاته

---

١. البقرة (٢): ١٦٥.

وسكناته؛ لأنّ حبّ الشيء يوجب حبّ آثاره، وهو من آياته وآثاره تعالى، فلايزال يشتدّ حبّاً حتّى لا يحبّ إلّا وجهه، ولا يريد إلّا بالله، ولا يكره إلّا لله تعالى، فينقطع ذكره واشتغاله إلّا بوجهه، وحديثه إلّا بحديثٍ فيه ذكر ربّه، وحينئذٍ يتحقّق عنده من العلم بالله وصفاته وأفعاله ما لا يتحقّق عند سائر الناس؛ لأنّ اشتغالهم بغيره سبحانه، وهَمّهم كلّ شيء إلّا ربّهم، فتنمحي عن نفسه صور العلوم والقصود التي عند غيره من عامّة الناس ـ من طلب الفضائل مثلاً، والخوف والرجاء لغيره تعالى ولو كان كمالاً ـ ويحلّ محلّه العلم بالله وآياته.

وحينئذٍ تتبدّل الغاية الأُولى ـ وهي طلب الفضيلة النفسانيّة ـ إلى غاية أُخرى؛ وهي ابتغاء وجه الله سبحانه، أو وجه الله بوجهٍ أدقّ، ولا شغل له بنفسه ولا بغيره وتتبدّل الأُمّهات الخلقيّة بأُمّ واحدة؛ وهي ما عند الله ممّا يحبّه، ويسقط ترتّب أُصولها وفروعها، ويسقط موضوع الفضائل والرذائل، كما مرّ؛ وربّما تبدّل الاعتدال الخلقي في هذا المسلك عنه بحسب المسلكين الآخرين، فيصير ما هو تهوّر أو تبذير، فيهما شجاعةً أو سخاءً هاهنا.

وقد اشتملت الآثار على قصص كثيرة من ذلك، كما في *الكافي* عن الصادق ـ عليه السلام ـ في إسماعيل النبيّ ـ عليه السلام ـ: «إنّما سمّي صادق الوعد لأنّه وعد رجلاً في مكان، فانتظره في ذلك المكان سنة، فسمّاه الله ـ عزّ وجلّ ـ صادق الوعد، ثمّ إنّ الرجل أتاه بعد ذلك، فقال له إسماعيل: ما زلت منتظراً لك...»[١] الحديث.

وهذا أمر ربّما يحكم العقل العادي بكونه منحرفاً عن الاعتدال، فليت شعري

---

١. *الكافي* ٢: ١٠٥، الحديث: ٧.

ماجعله منقبة فيه عليه السلام حتّى عظّم الله قدره ورفع ذكره، إذ قال: ﴿وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ ٱلْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولاً نَبِيّاً * وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلَاةِ وَٱلزَّكَاةِ وَكَانَ عِنْدَ رَبِّهِ مَرْضِيّاً﴾[1] فليس ذلك إلّا أنّ الميزان ـالذي وزن به هذا العمل ـ غير الذي بيد العقل العادي، وهو الغاية التي عرفت وصفها، فللعقل المشهوري تربية بتدبيره، ولله سبحانه تربية لأوليائه بتأييده، وكلمة الله هي العليا. وأمثال هذه القضايا كثيرة مأثورة عن الأنبياء والأئمّة والأولياء.

فإن قلت: كيف يمكن الاختلاف بين العقل والشرع فيما للعقل إليه سبيل؟ وكيف يمكن أن يتحقّق له خطأ من غير صواب؟

قلت: أمّا الإدراك من حيث إنّه إدراك فكذلك، لكنّه يستدعي موضوعاً يقع عليه حكم العقل، وقد عرفت أنّ هذا النوع من العلوم لا تبقي للعقل موضوعاً يحكم عليه بحكمه، وهذا سبيل المعارف الإلٰهيّة. فهذا ملخّص الكلام في هذا المقام، ولنرجع إلى بدء القول في الآية:

روى السيّد الرضيّ في *الخصائص* عن أمير المؤمنين ـعليه السلام ـ قال ـوقد سمع رجلاً يقول: إنّا لله وإنّا إليه راجعون ـ: «يا هذا، إنّ قولنا: ﴿إِنَّا لله﴾ إقرار منّا بالملك، وقولنا: ﴿وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾ إقرار منّا بالهلاك».[2]

أقول: قد اتّضح معناه بما مرّ، ورواه في *الكافي* مفصّلاً.

وروى في *الكافي* عن إسحاق بن عمّار وعبد الله بن سنان عن الصادق ـعليه السلام ـقال: «قال رسول الله ـصلّى الله عليه وآله وسلّم ـ: قال الله ـعزّوجلّ ـ: إنّي جعلت الدنيا بين عبادي قرضاً، فمن أقرضني فيها قرضاً أعطيته بكلّ واحدة

---

١. مريم (١٩): ٥٤ ـ ٥٥.
٢. *خصائص الأئمّة*: ٩٥.

عشراً إلى سبعمائة ضعف، ومن لم يقرضني فيها[١] قرضاً وأخذت منه شيئاً قسراً، أعطيته ثلاث خصال لو أعطيت واحدة منهنّ ملائكتي لرضوا بها عنّي.

قال: ثمّ قال[٢] أبو عبد الله ـ عليه السلام ـ: قول الله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ * أُولَٰئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ﴾ فهذه واحدة من ثلاث خصال ﴿وَرَحْمَةٌ﴾ اثنتان ﴿وَأُولَٰئِكَ هُمُ ٱلْمُهْتَدُونَ﴾ ثلاث. ثمّ قال: أبو عبد الله ـ عليه السلام ـ: هذا لمن أخذ الله منه شيئاً قسراً».[٣]

أقول: والرواية مرويّة بطرق أُخرى أيضاً متقاربة.[٤]

وقوله: «عشراً إلى سبعمائة» يصدّقه قوله سبحانه: ﴿مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا﴾[٥] وقوله: ﴿كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنْبُلَةٍ مِائَةُ حَبَّةٍ﴾[٦]

وقوله: «لو أعطيت واحدة منهنّ ملائكتي لرضوا بها عنّي...» إلى آخره، وقد أجمل الله تعالى ما أعطاه لملائكته؛ إذ قال: ﴿بَلْ عِبَادٌ مُكْرَمُونَ * لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ﴾[٧] وقال تعالى: ﴿لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ﴾[٨] وقال: ﴿فَالَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُمْ لَا يَسْأَمُونَ﴾[٩] وقال:

---

١. في المصدر: «منها»
٢. في المصدر: «تلا»
٣. *الكافي* ٢: ٩٢، الحديث: ٢١.
٤. *الخصال* ١: ١٣٠، الحديث: ١٣٥؛ مسكّن *الفؤاد*: ٤٧.
٥. الأنعام (٦): ١٦٠.
٦. البقرة (٢): ٢٦١.
٧. الأنبياء (٢١): ٢٦ ـ ٢٧.
٨. الأعراف (٧): ٢٠٦؛ الأنبياء (٢١): ١٩.
٩. فصّلت (٤١): ٣٨.

﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ﴾.[١]

فهذه جُمَل ما منّ الله تعالى به على ملائكته من إكرامهم بطهارة الذات والعصمة، وكونهم عمّالة بأمره، والشفاعة. وبالجملة: فهم وسائط الرحمة، طاهرة في نفسها وطاهرة في وساطتها، صالحة في عملها.

ومن الضروري أنّ شيئاً لا يرضى إلّا بما يعادل صلاحيّة ذاته ـ حسب ما عنده من الكمال ـ أو بأزيد منها، ولا يرضى بما دون ذلك، والأمر في هذه الخصال الثلاث كذلك.

توضيحه: أنّك لو تأمّلت في قوله تعالى: ﴿أُولَٰئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ﴾ وجدت أنّ الصلاة فيه غير الرحمة، ويشهد به جمع الصلاة وإفراد الرحمة، وقد قال سبحانه: ﴿هُوَ ٱلَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلَائِكَتُهُ لِيُخْرِجَكُمْ مِنَ ٱلظُّلُمَاتِ إِلَى ٱلنُّورِ وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيماً﴾[٢] وقال تعالى: ﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُمْ مِنَ ٱلظُّلُمَاتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾[٣] وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا ٱتَّقُوا ٱللَّهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيَجْعَلْ لَكُمْ نُوراً تَمْشُونَ بِهِ﴾[٤] وقال تعالى: ﴿أَوَمَنْ كَانَ مَيْتاً فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُوراً يَمْشِي بِهِ فِي ٱلنَّاسِ﴾[٥] وقال تعالى: ﴿لِتُخْرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَاتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾.[٦]

والتأمّل في هذه الآيات وأمثالها يعطي أنّ الصلاة وإن كانت غير الرحمة

---

١. الأنبياء (٢١): ٢٨.
٢. الأحزاب (٣٣): ٤٣.
٣. البقرة (٢): ٢٥٧.
٤. الحديد (٥٧): ٢٨.
٥. الأنعام (٦): ١٢٢.
٦. ابراهيم (١٤): ١.

بوجهٍ، غير أنّ نسبتها إلى الرحمة نسبة القبول والاستعداد إلى المقبول المستعدّ له، وبعبارة أُخرى: نسبة الالتفات إلى النظر ونسبة الإشفاق إلى الإعطاء.

وإذ كانت الرحمة في القرآن ـ كما يفيده التدبّر ـ معنىً عامّاً؛ وهو العطيّة المطلقة الإلٰهيّة من غير اختصاص في نفسها، كما قال تعالى: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾[1] وقال تعالى: ﴿وَرَبُّكَ ٱلْغَنِيُّ ذُو ٱلرَّحْمَةِ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَسْتَخْلِفْ مِنْ بَعْدِكُم مَّا يَشَاءُ كَمَا أَنشَأَكُم مِّن ذُرِّيَّةِ قَوْمٍ آخَرِينَ﴾[2] وإنّما تخصّصها بحسب اقتضاء الموارد، فكلّما تضاعفت الموارد تضاعفت الرحمة، والاقتضاء في نفسه رحمة، والصلاة ـ من بينها ـ منه تعالى: خصوص إعطائه التهيّؤ والقبول للسعادة الخاصّة والرحمة المخصوصة، ومن الملائكة: توسّطهم في إيصالها إلى المحلّ، ومن المؤمنين: توسّطهم في إيصالها بالدعاء والمسألة، وصلاتهم جميعاً لله: وضعهم أنفسهم في مقام العبوديّة والمذلّة ليصلّي عليهم ربّهم ويرحمهم، فافهم.

فالصلاة رحمة خاصّة مقيّدة. وبهذا يظهر معنى ما في بعض الأحاديث من عدّ الصلاة غير الرحمة، مع ما في *المعاني* عن الصادق ـ عليه السلام ـ: «الصلاة من الله الرحمة،[3] ومن الملائكة التزكية،[4] ومن الناس دعاء».[5]

وفي معناه عدّة روايات أُخر[6] وردت في تفسير قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّ﴾[7] وقوله: ﴿وَأُولَٰئِكَ هُمُ ٱلْمُهْتَدُونَ﴾.

---

١. الأعراف (٧): ١٥٦.
٢. الأنعام (٦): ١٣٣.
٣. في المصدر: «رحمة»
٤. في المصدر: «تزكية»
٥. *معاني الأخبار*: ٣٦٧.
٦. *وسائل الشيعة* ٧: ١٩٦، الحديث: ٩١٠٠؛ *الاحتجاج* ١: ٤٩.
٧. الأحزاب (٣٣): ٥٦.

فالكلام إمّا مقصور للحصر وإمّا وارد مورد التأكيد، والاهتداء آكد من الهداية بناءً على أنّ زيادة المباني تدلّ على زيادة المعاني، فيفيد الكلام ـ على أيّ حال ـ اتّصاف القوم بحقيقة الهداية وتحقّقهم بها، وقد قال تعالى: ﴿فَإِنَّ اللهَ لَا يَهْدِي مَنْ يُضِلُّ﴾[1] فينطبق الكلام على معنى قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولٰئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ﴾[2] وحينئذٍ فمن الممكن أن يكون اللام في قوله: ﴿الْمُهْتَدُونَ﴾ للعهد.

وبذلك كلّه يتبيّن: أنّ هذا الاهتداء غير الصلوات والرحمة، ويتبيّن أيضاً: وجه التفرقة بين الصلوات والرحمة وبين الاهتداء؛ إذ يقول: ﴿أُولٰئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِن رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولٰئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ﴾.

فمثل هؤلاء القوم في كرامتهم: مثل صديقك تلقاه وهو يريد دارك والنزول بك ويسأل عنها، فتلقاه بالبشر والكرامة، فتورده مستقيم الطريق، وأنت معه تسيّره ولا تدعه يضلّ حتّى توَرده نُزُله من دارك، وتعاهده في الطريق بمراقبة مأكله ومشربه وركوبه ونزوله وسيره وحفظه كلّ حين، فتكرمه بكفاية ما يحتاج إليه.

فالواقع من الإكرام واحد؛ لأنّك إنّما تريد إكرامه، وإن كان كلّ تعاهد يلحقه إكرام مختصّ به، والهداية مع ذلك غيرهما جميعاً، وإن كان كلّ منها يصدق على الآخَرين حقيقةً، فالجميع هداية، والجميع تعاهد وعناية، والجميع إكرام وكفاية، والإكرام بمنزلة الرحمة، والتعاهدات كلّ حين بمنزلة الصلوات، والهداية إلى الدار بمنزلة الاهتداء.

*

---

١. النحل (١٦): ٣٧.
٢. الأنعام (٦): ٨٢.

[إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلْمَرْوَةَ مِن شَعَائِرِ ٱللهِ فَمَنْ حَجَّ ٱلْبَيْتَ أَوِ ٱعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا وَمَن تَطَوَّعَ خَيْراً فَإِنَّ ٱللهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ ﴿١٥٨﴾]

قوله سبحانه: ﴿إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلْمَرْوَةَ...﴾

الصفا والمروة اسمان للجبلين بمكّة، والشعائر جمع شَعِيرة، وهي العلامة.

روى *العيّاشي* عن بعض أصحابنا عن الصادق ـ عليه السلام ـ قال: «سألته عن السعي بين الصفا والمروة فريضةٌ هو أم سنّةٌ؟ قال: فريضة، قلت: أليس الله يقول: ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطَّوَّفَ بِهِمَا﴾؟ قال: كان ذلك في عمرة القضاء، وذلك أنّ رسول الله كان شرط عليهم أن يرفعوا الأصنام، فتشاغل رجل من أصحابه حتّى أُعيدت الأصنام، قال: فأنزل الله ﴿إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلْمَرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ ٱللهِ فَمَنْ حَجَّ ٱلْبَيْتَ أَوِ ٱعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطَّوَّفَ بِهِمَا﴾ أي والأصنام عليهما».[1]

أقول: وروى قريباً منه في *الكافي*.

وروى أيضاً عن الصادق ـ عليه السلام ـ في حديث حجّ النبيّ ـ صلّى الله

---

١. تفسير *العياشي* ١: ٧٠، الحديث: ١٣٣.

عليه وآله وسلّم ـ: «بعد ما طاف بالبيت وصلّى ركعتيه قال ـصلّى الله عليه وآله وسلّم ـ: إنّ الصفا والمروة من شعائر الله فابدأ بما بدأ الله ـعزّ وجلّ ـ[1] وإنّ المسلمين كانوا يظنّون أنّ السعي بين الصفا والمروة شيء صنعه المشركون، فأنزل الله: ﴿إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلْمَرْوَةَ مِن شَعَائِرِ ٱللهِ فَمَنْ حَجَّ ٱلْبَيْتَ أَوِ ٱعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطَّوَّفَ بِهِمَا﴾».[2]

أقول: لا تزاحم بين الروايتين في شأن النزول، وهو ظاهر.

وقوله ـصلّى الله عليه وآله وسلّم ـ: «فابدأ بما بدأ الله» ملاك التشريع، وقد مضى في حديث هاجر ـوسعيها بينهما سبع مرّات ـأنّ السنّة جرت على ذلك.

*

١. في المصدر: «تعالى به»

٢. *الكافي* ٤: ٢٤٥، الحديث: ٤.

[إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلْنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَاتِ وَٱلْهُدَىٰ مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِى ٱلْكِتَابِ أُولٰئِكَ يَلْعَنُهُمُ ٱللهُ وَيَلْعَنُهُمُ ٱللَّاعِنُونَ (١٥٩) إِلَّا ٱلَّـذِينَ تَـابُوا وَأَصْلَحُوا وَبَيَّنُوا فَأُولٰئِكَ أَتُوبُ عَـلَيْهِمْ وَأَنَـا ٱلتَّـوَّابُ ٱلرَّحِـيمُ (١٦٠) إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ أُولٰئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ ٱللهِ وَٱلْمَلَائِكَةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ (١٦١) خَالِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ (١٦٢)]

قوله سبحانه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ﴾ ـإلى قوله ـ: ﴿ٱللَّاعِنُونَ﴾

إطلاق القول في اللعن واللاعنين يفيد: أنّ لهم سهماً من كلّ لعن من كلّ لاعن، ويشهد به: الاستثناء في الآية التالية، ثمّ الآية الثالثة وتصديرها بـ﴿إِنَّ﴾ وقوله: ﴿وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ﴾ حيث يشعر بعدم التوبة والإصرار على الذنب والعناد، فيكون علّة متمّمة للسابقتين.

وحينئذٍ يكون المراد بالكافرين في الآية الثالثة هم الذين يكتمون في الآية الأُولى، بالإشعار بأنّ الكتمان كفر، ويكون المراد باللاعنين هم الملائكة والناس أجمعون.

ويؤيّد ما ذكر: الآية الرابعة أيضاً؛ حيث إنّ ظاهر السياق أنّ الضمير في قوله:

﴿خَالِدِينَ فِيهَا﴾ راجع إلى اللعنة.

وفي *تفسير العيّاشي* عن الصادق ـ عليه السلام ـ: «﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلْنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَاتِ وَٱلْهُدَىٰ﴾ في عليّ».[١]

وعن بعض أصحابنا عنه ـ عليه السلام ـ قال: «قلت له: أخبرني عن قول الله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ﴾ قال: نحن نعنى بها والله المستعان؛ إنّ الرجل منّا إذا صارت إليه لم يكن له ـ أو لم يسعه ـ إلّا أن يبيّن للناس من يكون بعده».[٢]

و روى عن الباقر ـ عليه السلام ـ قال: «يعني بذلك نحن، والله المستعان».[٣]

وروى عن محمّد بن مسلم قال ـ عليه السلام ـ: «هم أهل الكتاب».[٤]

أقول: جميعها من قبيل الجري وعدّ المصاديق، وإلّا فظاهر الآية مطلق.

وفي بعض الروايات عن علي ـ عليه السلام ـ تفسيره بالعلماء إذا فسدوا.[٥]

وفي *المجمع* في معنى الآية قال: روي عن النبيّ ـ صلّى الله عليه وآله وسلّم ـ قال: «من سئل عن علمٍ يعلمه فكتمه أُلجم يوم القيامة بلجام من نار،[٦] وهو قوله: ﴿أُولَٰئِكَ يَلْعَنُهُمُ ٱللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ ٱللَّاعِنُونَ﴾».

أقول: والخبران يؤيّدان ما ذكرناه.

وفي *تفسير العيّاشي* عن الصادق ـ عليه السلام ـ في قوله: ﴿أُولَٰئِكَ يَلْعَنُهُمُ

---

١. تفسير *العياشي* ١: ٧١، الحديث: ١٣٦.
٢. تفسير *العياشي* ١: ٧١، الحديث: ١٣٩.
٣. تفسير *العياشي* ١: ٧١، الحديث: ١٣٧.
٤. تفسير *العياشي* ١: ٧٢، الحديث: ١٤٠.
٥. *الميزان في تفسير القرآن* ١: ٣٩١.
٦. مجمع *البيان* ١: ٤٤٧.

﴿ٱللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ ٱللَّٰعِنُونَ﴾ قال: «نحن هم، وقد قالوا: هوامّ الأرض».[١]

أقول: إشارة إلى ما يفيده قوله تعالى: ﴿وَيَقُولُ ٱلْأَشْهَٰدُ هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ كَذَبُوا عَلَىٰ رَبِّهِمْ أَلَا لَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾[٢] فافهم.

واعلم: أنّ في الآيات أربعة موارد من الالتفات: فمن الغيبة إلى التكلّم مع الغير في قوله: ﴿مَا أَنزَلْنَا﴾ أوّلاً، ومن التكلّم مع الغير إلى الغيبة في قوله: ﴿يَلْعَنُهُمُ ٱللَّهُ﴾ ثانياً، ومن الغيبة إلى التكلّم وحده في قوله: ﴿أَتُوبُ عَلَيْهِمْ﴾ ثالثاً، ومن التكلّم وحده إلى الغيبة في قوله: ﴿لَعْنَةُ ٱللَّهِ﴾ رابعاً.

والوجه في العدول إلى الغيبة في قوله: ﴿يَلْعَنُهُمُ ٱللَّهُ﴾ وقوله: ﴿لَعْنَةُ ٱللَّهِ﴾ هو أنّ اللعن من الأمور التي يشتدّ ويضعف بالإضافة إلى مصدره وفاعله، فالإضافة إلى لفظ الجلالة لإفادة التشديد.

والوجه في العدول إلى التكلّم وحده في قوله: ﴿أَتُوبُ عَلَيْهِمْ﴾ لإفادة الرحمة والحنان ونهاية الاهتمام بالإضافة إلى نفسه.

والوجه في العدول إلى التكلم مع الغير في قوله: ﴿مَا أَنزَلْنَا﴾ من حيث إنّ الإنزال إنّما هو بالوسائط من الملائكة، والعظماء يتكلّمون في الأمور التي لها وسائط عنهم وعن أعوانهم وخدمهم. لكنّ الأشبه أنّ قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ﴾ ابتداء كلام، فلا التفات فيه.

*

---

١. تفسير العياشي ١: ٧٢، الحديث: ١٤١.

٢. هود (١١): ١٨.

[وَإِلٰهُكُمْ إِلٰهٌ وَاحِدٌ لَا إِلٰـهَ إِلاَّ هُـوَ ٱلرَّحْـمٰنُ ٱلرَّحِـيمُ(١٦٣) إِنَّ فِـى خَـلْقِ ٱلسَّماواتِ وَٱلأَرْضِ وَٱخْتِلَافِ ٱللَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِى تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ ٱلنَّاسَ وَمَا أَنْزَلَ ٱللهُ مِنَ ٱلسَّماءِ مِنْ مَاءٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَاحِ وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّماءِ وَٱلأَرْضِ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ(١٦٤)]

قوله سبحانه: ﴿وَإِلٰهُكُمْ إِلٰهٌ وَاحِدٌ﴾

الوحدة ـ ومفهومها ضروريّ ـ ربّما يتّصف بها الشيء من حيث وصفه واسمه، ولازمه أن لا يكون وصفه قابلاً للكثرة، فالوصف الذي فيه لا يشاركه فيه غيره حقيقةً إلّا مفهوماً، وأيضاً الوصف فيه لا يتميّز عن الوصف مصداقاً إلّا مفهوماً.

فهو سبحانه واحد من حيث إنّ أوصافه وأسماءه ـ كالعليم والقدير والحيّ ـ لا يشاركه فيها أحد مصداقاً إلّا مفهوماً، فله علم لا كالعلوم، وقدرة لا كـقدرة غيره، وحياة لا كحياة المخلوقين، وواحد من حيث إنّ العلم والقدرة والحياة وكلّ صفة له وإن اختلفت مفهوماً لكنّها واحدة مصداقاً، فمنشأ انتزاع العلم فيه هو منشأ انتزاع القدرة... وهكذا، فهو عالم من حيث إنّه قادر وحيّ من حيث

إنّه عالم... وهكذا.

وربّما يتّصف الشيء بالوحدة من حيث الذات، وهو عدم التكثّر والتجزّي في الذات بذاته فلا تتجزّي إلى جزء وجزء وإلى ذات واسم... وهكذا، وهي المسمّاة بأحديّة الذات، وسيجيء شرحه.

وفي *الخصال والتوحيد والمعاني* عن شريح بن هاني، قال: «إنّ اعرابيّاً قام يوم الجمل إلى أمير المؤمنين ـعليه السلام ـ، فقال: يا أمير المؤمنين، أتقول إنّ الله واحد؟ قال: فحمل الناس عليه، فقالوا: يا أعرابي، أما ترى ما فيه أمير المؤمنين من تقسّم القلب؟! فقال أمير المؤمنين: دعوه؛ فإنّ الذي يريده الأعرابي هو الذي نريده من القوم.

ثمّ قال ـعليه السلام ـ: يا أعرابي، إنّ القول في أنّ الله واحد على أربعة أقسام، فوجهان منها لا يجوزان على الله ـعزّ وجلّ ـ، ووجهان يثبتان فيه:

فأمّا اللذان لا يجوزان عليه: فقول القائل: واحد، يقصد به باب الأعداد، فهذا ما لا يجوز، لأنّ ما لا ثاني له لا يدخل في باب الأعداد، أما ترى أنّه كفر من قال: إنّه ثالث ثلاثة؟! وقول القائل: هو واحد من الناس يريد به النوع من الجنس، فهذا ما لا يجوز؛ لأنّه تشبيه، وجلّ ربّنا وتعالى عن ذلك.

وأمّا الوجهان اللذان يثبتان فيه: فقول القائل: هو واحد ليس له في الأشياء شبه، كذلك ربّنا، وقول القائل: إنّه ـعزّ وجلّ ـ أحديّ المعنى؛ يعنى به أنّه لا ينقسم في وجود ولا عقل ولا وهم، كذلك ربّنا».[1]

أقول: الوجهان اللذان أثبتهما ـ عليه السلام ـ كما ترى منطبقان على ما

---

١. *الخصال* ١: ٢، الحديث: ١؛ *التوحيد*: ٨٣، الحديث: ٣؛ *معاني الأخبار*: ٥، الحديث: ٢.

ذكرناه من جهتي الوحدة؛ والجهتان إحداهما متفرّعة على الأُخرى وفي طولها لا عرضها، فالأوّل لازم الثاني من الوجهين، وسيجيء شرح الوجهين المنفيّين عنه تعالى إن شاء الله.

وقد تكرّر في الخطب المنقولة عن عليّ والرضا وغيرهما ـ عليهم السلام ـ «أنّه واحد لا بالعدد»،[١] وفي دعاء الصحيفة الكاملة «لك وحدانيّة العدد» ويحمل على الملكيّة دون الاتّصاف،[٢] فالبرهان ناهض على أنّ وجوده سبحانه صِرف لا يتثنّى ولا يتكرّر بذاته وحقيقته.

قوله سبحانه: ﴿لَا إِلٰهَ إِلَّا هُوَ﴾

قد عرفت معنى «إله» في أوّل الكتاب، والنفي متوجّه إلى ما يصدق عليه «إله» حقيقةً، والإتيان بعد «إلّا» بضمير الرفع يدلّ على البدليّة وكون «إلّا» بمعنى غير، دون الاستثناء، فالتهليل كلام واحد لا كلامان، فقول القائل: «إنّه عقدان: عقد نفي وعقد إثبات» ليس بموجّه، بل هو دعوى نفي وتسلّم إثبات، فافهم ذلك.

*

١. *الميزان في تفسير القرآن* ١: ٤٠٩.
٢. *الصحيفة السجّادية*: الدعاء: ٢٨.

[وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَنْ يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ ٱللهِ أَنْدَاداً يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللهِ وَٱلَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبّاً لِلهِ وَلَوْ يَرَىٰ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ أَنَّ ٱلْقُوَّةَ لِلهِ جَمِيعاً وَأَنَّ ٱللهَ شَدِيدُ ٱلْعَذَابِ ﴿١٦٥﴾ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُوا مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوا وَرَأَوُا ٱلْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ ٱلْأَسْبَابُ ﴿١٦٦﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوا لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّأُوا مِنَّا كَذٰلِكَ يُرِيهِمُ ٱللهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنَ ٱلنَّارِ ﴿١٦٧﴾ يَا أَيُّهَا ٱلنَّاسُ كُلُوا مِمَّا فِي ٱلْأَرْضِ حَلالاً طَيِّباً وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ ٱلشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ ﴿١٦٨﴾ إِنَّمَا يَأْمُرُكُمْ بِالسُّوءِ وَٱلْفَحْشَاءِ وَأَنْ تَقُولُوا عَلَىٰ ٱللهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿١٦٩﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ ٱللهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَ لَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئاً وَلَا يَهْتَدُونَ ﴿١٧٠﴾ وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ ٱلَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَاءً وَنِدَاءً صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٧١﴾ يَا أَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَٱشْكُرُوا لِلهِ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿١٧٢﴾]

قوله سبحانه: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَنْ يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ ٱللهِ أَنْدَاداً﴾

في *الكافي* و*الإختصاص*، و*تفسير العيّاشي*، عن الباقر ـ عليه‌السلام ـ في حديث: «هم ـ والله يا جابر ـ أئمّة الظلمة وأشياعهم» وفي رواية *العيّاشي*: «والله يا جابر! هم أئمّة الظلم وأشياعهم».[١]

أقول: وهو من الجري.

قوله سبحانه: ﴿وَٱلَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبّاً لِلهِ﴾

فيه دليل على أنّ الحبّ يتعلّق به سبحانه حقيقةً، وأحاديث أهل البيت مستفيضة في ذلك.[٢]

ومن المعلوم بالوجدان: أنّ الحبّ يتعلّق بأشياء كثيرة من غير جنس الأجسام والجسمانيّات، ومن غير سنخ الحبّ الشهواني، فلايُعبأ بإنكار من ينكر ذلك ويقصر الحبّ على الشهواني منه؛ بتأويل الآيات والأخبار المشتملة عليه: بأنّ المراد به الائتمار بالأمر والانتهاء عن النهي، وسيأتي بقيّة الكلام إن شاء الله.

و روى *العيّاشي* عن الباقر والصادق ـ عليهما السلام ـ في قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبّاً لِلهِ﴾: «هم آل محمّد».[٣]

أقول: وهو نحو من الجري بِعَدّ المصداق والحقيقة.

---

١. *الكافي* ١: ٣٧٤، الحديث: ١١؛ *الإختصاص*: ٣٣٤؛ *تفسير العياشي* ١: ٧٢، الحديث: ١٤٢.

٢. وذلك لاقتضاء «أفعل التفضيل» اشتراك المفضَّل والمفضَّل عليه في أصل الوصف، ومثله قوله تبارك وتعالى: ﴿قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ﴾ إلى قوله: ﴿أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ ٱللهِ وَرَسُولِهِ﴾، [منه ـ رحمة الله ـ].

٣. تفسير *العياشي* ١: ٧٢، الحديث: ١٤٣.

قوله سبحانه: ﴿أَنَّ ٱلْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعاً﴾

هذه من الآيات الكاشفة عن حقيقة القيامة، وسيأتي شرحها في سورة الأنعام إن شاء الله.

قوله سبحانه: ﴿كَذٰلِكَ يُرِيهِمُ ٱللهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ﴾

و في *الكافي* عن الصادق في الآية قال: «الرجل يدع ماله لا ينفقه في طاعة الله بخلاً، ثمّ يموت، فيدعه لمن يعمل به في طاعة الله أو في معصية الله؛ فإن عمل به في طاعة الله رآه في ميزان غيره، فرآه حسرة وقد كان المال له، وإن كان عمل به في معصية الله قوّاه بذلك المال حتّى عمل به في معصية الله».[1]

أقول: وروى هذا المعنى *العيّاشي* و*الصدوق* و*المفيد* والطبرسي عن الباقر والصادق ـ عليهما السلام ـ،[2] وهو من الجري.

قوله سبحانه: ﴿وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنَ ٱلنَّارِ﴾

الآية حجّة على من يقول بانقطاع العذاب. لكن يجب أن يعلم أنّ المسألة عقليّة وليست بتلك السذاجة التي يتوهّمها عدّة من المثبتين، فتحرير الموضوع هو العمدة؛ ولذلك ذكر بعض المتألّهين أنّ العذاب يرتفع عنهم بعد أبد الآبدين، انتهى. فتأمّل فيه.

والذي لا ريب في استفادته من كلامه سبحانه: أنّهم مخلّدون في النار ـ متقلّبون

---

١. *الكافي* ٤ : ٤٢، الحديث: ٢.

٢. تفسير *العياشي* ١ : ٧٢، الحديث: ١٤٤؛ من لا يحضره *الفقيه* ٢ : ٦٢، الحديث: ١٧١٣؛ *الأمالي* للمفيد: ٢٠٥، الحديث: ٣٥؛ مجمع *البيان* ١ : ٤٦٥.

في أنواع عذابها، كلّما أرادوا أن يخرجوا منها أُعيدوا فيها وذوقوا عذاب الحريق[١] ـ أبداً، وأمّا النزاع فهو طوليّ ليس بالعرضي، ومحلّه غير هذا المحلّ.

قوله سبحانه: ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ...﴾

هي في مساق قوله تعالى: ﴿كُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللهُ وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾.[٢]

والخطوة ـ وهي ما بين القدمين في المسير ـ حيث كانت في الخير والشرّ والمدح والذمّ تابعة للمقصد، ومقصد الشيطان لا محالة غير صالح على أيّ حال، وقع النهي عن اتّباعه لفساد الغاية، لا لنفسها، ولذا قال سبحانه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ وَمَن يَتَّبِعْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ فَإِنَّهُ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ [وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ]﴾.[٣] فاستعير خطوات الشيطان لوسائل الخير والذرائع المباحة التي تستعمل بحيث تؤدّي إلى الفحشاء والمنكر والكذب على الله؛ كالكفّ عن أكل المباحات ونحو ذلك.

ومن هنا عدّ في الروايات الحلف الغير المرضي من خطوات الشيطان:

فقد روى *الشيخ* في *التهذيب* عن عبد الرحمن، قال: «سألت أبا عبد الله عن رجل حلف أن ينحر ولده؟ قال: ذلك من خطوات الشيطان».[٤]

وروى أيضاً عن منصور بن حازم قال: «قال لي أبو عبد الله ـ عليه السلام ـ:

---

١. إشارة إلى الآية ٢٢ من سورة الحج.

٢. الأنعام (٦): ١٤٢.

٣. النور (٢٤): ٢١؛ ما بين المعقوفتين ليس جزءاً من هذه الآية، بل جزء من الآية المبحوث عنها هنا.

٤. *تهذيب الأحكام* ٨ : ٢٨٨، الحديث: ٥٥ و: ٣١٧، الحديث: ٥٩.

أما سمعت بطارق؟ إنّ طارقاً كان نخّاساً بالمدينة، فأتى أبا جعفر -عليه السلام- فقال: يا أبا جعفر! إنّي حلفت بالطلاق والعتاق والنذر،[١] فقال له: يا طارق! إنّ هذه من خطوات الشيطان».[٢]

وفي *الكافي* عن الصادق -عليه السلام- قال: «إذا حلف الرجل على شيء، والذي حلف عليه إتيانه خير من تركه، فليأت الذي هو خير، ولا كفّارة له،[٣] وإنّما ذلك من خطوات الشيطان».[٤]

وفي *تفسير العيّاشي* قال: «سمعت أبا جعفر -عليه السلام- يقول: ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ ٱلشَّيْطَانِ﴾ قال: كلّ يمين بغير الله فهو من خطوات الشيطان».[٥]

قوله سبحانه: ﴿كَمَثَلِ ٱلَّذِي يَنْعِقُ...﴾

في *المجمع* عن الباقر -عليه السلام-: «أي مثلهم في دعائك إيّاهم[٦] إلى الإيمان كمثل الناعق في دعائه المنعوق به من البهائم التي لا تفهم، وإنّما تسمع الصوت».[٧]

أقول: يشير -عليه السلام- إلى أنّ الكلام مقلوب، ومستقيمه: أنّ مثلهم كمثل بهيمة الذي ينعق، أو: مثل داعيهم كمثل الناعق، وهذا المسلك مستعمل كثيراً في بليغ الكلام، ومن هذا الباب قوله: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِٱللَّهِ﴾.[٨]

١. في المصدر: «النذور»
٢. تهذيب الأحكام ٨: ٢٨٧، الحديث: ٥٠.
٣. في المصدر: «عليه»
٤. *الكافي* ٧: ٤٤٣، الحديث: ١.
٥. تفسير *العيّاشي* ١: ٧٤، الحديث: ١٥٠.
٦. في المصدر: «مثل الداعي لهم»
٧. مجمع *البيان* ١: ٤٧١.
٨. البقرة (٢): ١٧٧.

[إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةَ وَٱلدَّمَ وَلَحْمَ ٱلْخِنْزِيرِ وَمَا أُهِلَّ بِهِ لِغَيْرِ ٱللَّهِ فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١٧٣﴾]

قوله سبحانه: ﴿فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ﴾ ـإلى قوله ـ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾

أي غير باغٍ في اضطراره ولا عادٍ فيه، فهو مقتضى وقوعهما حالين.

وفي *الكافي* عن حمّاد عن الصادق ـعليه السلام ـ قال: «الباغي باغي الصيد، والعادي السارق، ليس لهما أن يأكلا الميتة إذا اضطرّا إليها، هي حرام عليهما، ليس هي عليهما كما هي على المسلمين، وليس لهما أن يقصّرا في الصلاة».[1]

وفي تفسير *العيّاشي* عن الصادق ـعليه السلام ـ قال: «الباغي الظالم والعادي الغاصب».[2]

وأيضاً عن حمّاد عنه ـعليه السلام ـ قال: «الباغي الخارج على الإمام،

---

١. *الكافي* ٣ : ٤٣٨، الحديث: ٧.

٢. تفسير *العيّاشي* ١: ٧٤، الحديث: ١٥١.

والعادي اللص».[1]

وفي المجمع عن أبي جعفر وأبي عبد الله ـ عليهما السلام ـ: «﴿غَيْرَ بَاغٍ﴾ على إمام المسلمين ﴿وَلَا عَادٍ﴾ بالمعصية طريقَ المحقِّين».[2]

أقول: والجميع من قبيل عدّ المصاديق.

واعلم: أنّ «الغفور» من أسمائه الحسنى، من الأسماء الفعليّة؛ من الغَفْر: بمعنى التغطية، والستر فهو تعالى بمغفرته يغطّي على الذنوب.

*

١. تفسير *العياشي* ١: ٧٤، الحديث: ١٥٤.

٢. مجمع *البيان* ١: ٤٧٦.

[إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْكِتَابِ وَيَشْتَرُونَ بِهِ ثَمَناً قَلِيلاً أُولٰئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ إِلَّا ٱلنَّارَ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ يَوْمَ ٱلْقِيَامَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٧٤﴾ أُولٰئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُا ٱلضَّلَالَةَ بِالْهُدَىٰ وَٱلْعَذَابَ بِالْمَغْفِرَةِ فَمَا أَصْبَرَهُمْ عَلَى ٱلنَّارِ ﴿١٧٥﴾ ذٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ نَزَّلَ ٱلْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا فِى ٱلْكِتَابِ لَفِى شِقَاقٍ بَعِيدٍ ﴿١٧٦﴾]

قوله سبحانه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلَ ٱللهُ مِنَ ٱلْكِتَابِ...﴾

فيه من الدلالة على تجسّم الأعمال ـ وأنّ باطن هذه الأعمال هو العذاب أو المغفرة ـ ما لا يخفى، وقد أوضحه في الآية التالية بتبديل اشتراء الثمن القليل بالآيات باشتراء الضلالة بالهدى، بل العذاب بالمغفرة، فثباتُهم على فعلهم صبرٌ منهم على النار، فما أصبرهم على النار! فالآيتان بتمامهما جامعتان لمسلكي المجازاة ونتائج الأعمال؛ أعني الظاهر والباطن.

وقد ورد تفسير قوله: ﴿فَمَا أَصْبَرَهُمْ عَلَى ٱلنَّارِ﴾ على كلا المسلكين:

ففي *الكافي* و*تفسير العيّاشي* عن الصادق ـ عليه السلام ـ قال: «ما أصبرهم

على فعل ما يعلمون أنّه يصيّرهم إلى النار».[١]

أقول: وهو تفسير بمسلك المجازاة.

وفي *المجمع* عن عليّ بن إبراهيم عن الصادق ـ عليه السلام ـ قال: «ما أجرأهم على النار».[٢]

وعن الصادق ـ عليه السلام ـ: «ما أعملهم بأعمال أهل النار».[٣]

أقول: وهو تفسير بمسلك نتائج الأعمال.

*

---

١. *الكافي* ٢: ٢٦٨، الحديث: ٢؛ *تفسير العياشي* ١: ٧٥، الحديث: ١٥٧.

٢. *مجمع البيان* ١: ٤٨٠.

٣. *بحارالأنوار* ٧: ١٣٩.

[لَيْسَ ٱلْبِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ وَٱلْمَلَائِكَةِ وَٱلْكِتَابِ وَٱلنَّبِيِّينَ وَآتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَامَىٰ وَٱلْمَسَاكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّائِلِينَ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَاةَ وَآتَىٰ ٱلزَّكَاةَ وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَٱلصَّابِرِينَ فِى ٱلْبَأْسَاءِ وَٱلضَّرَّاءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِ أُولٰئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولٰئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ (١٧٧)]

قوله سبحانه: ﴿لَيْسَ ٱلْبِرَّ أَنْ تُوَلُّوا...﴾

قيل: طالت المشاجرة بين الناس في أمر القبلة فنزلت الآية، فهي في مقام نفي الحقيقة وإثباتها؛ أي: ليس حقيقة البرّ وتمامه استقبال جهة من الجهات، بل حقيقته صدق الإيمان وصلاح العمل والاستقامة فيهما؛ ولذلك ختم الكلام بالصدق والحصر، فقال تعالى: ﴿أُولٰئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولٰئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ﴾

وعن النبيّ ـ صلّى الله عليه وآله وسلّم ـ: «من عمل بهذه الآية فقد استكمل الإيمان».[1]

---

١. بحارالأنوار ٦٦: ٣٤٦.

أقول: قيل: لأنّ الكمالات الإنسانيّة ـ على كثرتها ـ منحصرة في صحّة الاعتقاد وحسن المعاشرة وتهذيب النفس، وقد أُشير إلى الأوّل بقوله: ﴿مَنْ آمَنَ﴾ وإلى الثاني بقوله: ﴿وَآتَى الْمَالَ﴾ وإلى الثالث بقوله: ﴿وَأَقَامَ الصَّلَاةَ﴾ انتهى ملخّصاً.

وفي *المجمع* عن أبي جعفر وأبي عبدالله ـ عليهما السلام ـ: «﴿ذَوِي الْقُرْبَىٰ﴾ قرابة النبيّ ـ صلّى الله عليه وآله وسلّم ـ».[1]

أقول: ومن الممكن وروده من باب عدّ المصداق بنحوٍ نظراً إلى آية القربى.

وفي *الكافي* عن الصادق ـ عليه السلام ـ: «الفقير الذي لا يسأل الناس، والمسكين أجهد منه، والبائس أجدّهم[2]».[3]

وفي *المجمع* عن أبي جعفر ـ عليه السلام ـ: «ابن السبيل: المنقطع به».[4]

وفي *التهذيب* عن الصادق ـ عليه السلام ـ: «سئل عن مكاتب عجز عن مكاتبته وقد أدّى بعضها، قال: يؤدّى عنه من مال الصدقة؛ فإنّ الله ـ عزّ وجلّ ـ يقول: ﴿وَفِي الرِّقَابِ﴾».[5]

وفي تفسير *القمّي* في قوله: ﴿وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ﴾ قال: قال: «في الجوع والعطش والخوف» وفي قوله: ﴿وَحِينَ الْبَأْسِ﴾ قال: قال: «عند العطش[6]».[7]

---

١. *مجمع البيان* ١: ٤٨٧.
٢. في المصدر: «أجهدهم»
٣. *الكافي* ٣: ٥٠١، الحديث: ١٦.
٤. مجمع *البيان* ١: ٤٨٧.
٥. تهذيب *الاحكام* ٨: ٢٧٥، الحديث: ٣٥.
٦. في المصدر: «القتل»
٧. تفسير *القمّي* ١: ٦٢.

[يَا أَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِصَاصُ فِى ٱلْقَتْلَى ٱلْحُرُّ بِٱلْحُرِّ وَٱلْعَبْدُ بِالْعَبْدِ وَٱلْأُنْثَىٰ بِٱلْأُنْثَىٰ فَمَنْ عُفِىَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَىْءٌ فَاتِّبَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدَاءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ ذٰلِكَ تَخْفِيفٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ بَعْدَ ذٰلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٧٨﴾ وَلَكُمْ فِى ٱلْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِى ٱلْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٧٩﴾]

قوله سبحانه: ﴿يَا أَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِصَاصُ﴾

حيث جعل سبحانه زمام الحكومة والولاية بيد المؤمنين خاصّة، خصّهم بالخطاب، وإن كان مجرى الحكم جميع المنتحلين بالإسلام، وبه يرتفع ما يتراءى من الاختلاف بين الروايات:

ففي *تفسير العيّاشي* عن الصادق -عليه السلام-: «هي لجماعة المسلمين، ما هي للمؤمنين خاصّة».[1]

وعن البرقي عن الصادق -عليه السلام- في الآية: «هي لجماعة المسلمين؟

١. *تفسير العيّاشي*١: ٧٥، الحديث: ١٥٩.

قال: هي للمؤمنين خاصّة».[١]

قوله سبحانه: ﴿ٱلْحُرُّ بِٱلْحُرِّ وَٱلْعَبْدُ بِالْعَبْدِ...﴾ ـ إلى آخر الآية ـ نسبة الآية إلى قوله: ﴿أَنَّ ٱلنَّفْسَ بِالنَّفْسِ﴾[٢] نسبة التفسير ـ فلا وجه لما ربّما يدّعى من نسخ هذه بتلك ـ فلا يقتل حرّ بعبد، ولا رجل بأُنثى، وهو الذي يدلّ عليه روايات أهل البيت ـ عليهم السلام ـ:

ففي *تفسير العيّاشي* عن الصادق ـ عليه السلام ـ في الآية، قال: «لا يقتل الحرّ بعبد، ولكن يضرب ضرباً شديداً ويغرم دية العبد، وإن قتل رجل إمرأة فأراد أولياء المقتول أن يقتلوا، أدّوا نصف ديته إلى أولياء[٣] الرجل:.[٤]

وفي *الكافي* عن الحلبي عن الصادق ـ عليه السلام ـ قال: «سألته عن قول الله ـ عزّ وجلّ ـ: ﴿فَمَنْ تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَهُ﴾[٥] قال: يكفَّر عنه من ذنوبه بقدر ما عفى.

وسألته عن قول الله ـ عزّ وجلّ ـ: ﴿فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَاتِّبَاعٌ بِالمَعْرُوفِ وَأَدَاءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ﴾، قال: ينبغي للّذي عليه[٦] الحقّ أن لا يعسر أخاه إذا كان قد صالحه على دية وينبغي للّذي عليه الحقّ أن لا يمطل أداه[٧] إذا

---

١. تفسير *العيّاشي* ١: ٧٨، الحديث: ١٧٤.
٢. المائدة (٥): ٤٥.
٣. في المصدر: «اهل»
٤. تفسير *العياشي* ١: ٧٥، الحديث: ١٥٨.
٥. المائدة (٥): ٤٥.
٦. في المصدر: «له»
٧. في المصدر: «أخاه»

قدر على ما يعطيه ويؤدّي إليه بإحسان.

وسألته عن قول الله ـعزّ وجلّـ: ﴿فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَلَهُۥ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ قال: هو الرجل يقبل الدية أو يعفو أو يصالح، ثمّ يعتدي فيقتل، فله عذاب أليم، كما قال الله ـعزّ وجلّـ». [1]

أقول: والروايات في هذه المعاني كثيرة. [2]

*

١. *الكافي* ٧: ٣٥٨، الحديث: ١.

٢. *تهذيب الأحكام* ١٠: ١٧٩، الحديث: ١٦؛ *وسائل الشيعة* ٢٩: ١١٩، الحديث: ٣٥٢٩٦.

[كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ إِنْ تَرَكَ خَيْراً ٱلْوَصِيَّةُ لِلْوَالِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ بِٱلْمَعْرُوفِ حَقّاً عَلَى ٱلْمُتَّقِينَ ﴿١٨٠﴾ فَمَنْ بَدَّلَهُ بَعْدَمَا سَمِعَهُ فَإِنَّمَا إِثْمُهُ عَلَى ٱلَّذِينَ يُبَدِّلُونَهُ إِنَّ ٱللهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٨١﴾ فَمَنْ خَافَ مِنْ مُوصٍ جَنَفاً أَوْ إِثْماً فَأَصْلَحَ بَيْنَهُمْ فَلا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ ٱللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١٨٢﴾]

قوله سبحانه: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ...﴾

في *تفسير العيّاشي* عن أحدهما ـ عليهما السلام ـ قال: «هي منسوخة، نسختها آية الفرائض التي هي المواريث».[1]

أقول: تذييل الآية بقوله: ﴿حَقّاً عَلَى ٱلْمُتَّقِينَ﴾ يدلّ على كون الحكم ذا مرتبتين وجوباً وجوازاً، فالنسخ للوجوب لا ينافي بقاء الجواز كما يدلّ عليه ما سيأتي من الروايات، ولو لم يثبت النسخ ـ لمكان كون الرواية من الآحاد ـ فتذييل الآية بقوله: ﴿حَقّاً عَلَى ٱلْمُتَّقِينَ﴾ ربّما دلّ على أنّ المراد بالكتابة في صدرها غير الفرض والإيجاب، وهو ظاهر.

---

١. *تفسير العياشي* ١: ٧٧، الحديث: ١٦٧.

وفي *الكافي* و*التهذيب* و*تفسير العيّاشي* ـ واللفظ للأخير ـ عن محمّد بن مسلم عن أبي عبد الله ـ عليه السلام ـ قال: «سألته عن الوصيّة تجوز للوارث؟ قال: نعم،[1] ثمّ تلا هذه الآية: ﴿إِنْ تَرَكَ خَيْراً ٱلْوَصِيَّةُ لِلْوَالِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ﴾».[2]

وفي *تفسير العيّاشي* عن الصادق ـ عليه السلام ـ عن أبيه عن عليّ ـ عليهم السلام ـ قال: «من لم يوصِ عند موته لذوي قرابته ممّن لا يرث، فقد ختم عملَه بمعصية».[3]

وفيه أيضاً عن الصادق ـ عليه السلام ـ في الآية، قال: «حقّ جعله الله في أموال الناس لصاحب هذا الأمر، قال: قلت: لذلك حدّ محدود؟ قال: نعم، قلت: كم؟ قال: أدناه السدس وأكثره الثلث».[4]

أقول: وروى هذا المعنى *الصدوق* أيضاً في الفقيه عنه[5] ـ عليه السلام ـ، وهو استفادة لطيفة منه ـ عليه السلام ـ عن الآية، بضميمة قوله تعالى: ﴿ٱلنَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ وَأُولُوا ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِى كِتَابِ ٱللهِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُهَاجِرِينَ إِلَّا أَنْ تَفْعَلُوا إِلَىٰ أَوْلِيَائِكُمْ مَعْرُوفاً كَانَ ذٰلِكَ فِى ٱلْكِتَابِ مَسْطُوراً﴾[6] فهي جعلت النبيّ ـ صلّى الله عليه وآله ـ والداً للمؤمنين، وهو سبحانه جعل كلّاً من الطاهرين من أهل بيته ـ عليهم السلام ـ نفساً له، وأعطاهم

---

١. في المصدر: «تجوز قال:»

٢. *الكافي* ٧: ١٠، الحديث: ٥؛ *تهذيب الأحكام* ٩: ١٩٩، الحديث: ١؛ تفسير *العياشي* ١: ٧٦، الحديث: ١٦٤.

٣. تفسير *العياشي* ١: ٧٦، الحديث: ١٦٦.

٤. تفسير *العياشي* ١: ٧٦، الحديث: ١٦٣.

٥. من لا يحضره *الفقيه* ٤: ٣٠٦، الحديث: ٥٦٥٥.

٦. الأحزاب (٣٣): ٦.

الولاية لهم، فهم مشمولون للآية، والحكم استحبابيّ، فافهم.

قوله سبحانه: ﴿فَمَن بَدَّلَهُ بَعْدَمَا سَمِعَهُ...﴾

في *الكافي* عن محمّد بن مسلم قال: «سألت أبا عبدالله ـ عليه السلام ـ عن رجلٍ أوصى بماله في سبيل الله، فقال: أعطه لمن أوصى به له وإن كان يهوديّاً أو نصرانيّاً؛ إنّ الله يقول: ﴿فَمَنْ بَدَّلَهُ بَعْدَمَا سَمِعَهُ فَإِنَّمَا إِثْمُهُ عَلَى ٱلَّذِينَ يُبَدِّلُونَهُ إِنَّ ٱللهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾».[1]

أقول: والأخبار في هذه المعاني كثيرة.[2]

قوله سبحانه: ﴿فَمَنْ خَافَ مِنْ مُوصٍ جَنَفاً...﴾

حكم تامّ بمنزلة الاستثناء من قوله: ﴿فَإِنَّمَا إِثْمُهُ عَلَى ٱلَّذِينَ يُبَدِّلُونَهُ﴾ ويشير إليه قوله: (إِنَّ ٱللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ) فلولا ترائي ثبوت ورفع للحكم لم يكن للتذييل بالوصفين وجه بليغ؛ ولذلك عبّر في بعض الروايات عن هذا البيان بالنسخ.

ففي *الكافي* عن محمّد بن سوقة، قال: «سألت أبا جعفر ـ عليه السلام ـ عن قول الله ـ عزّ وجلّ ـ: ﴿فَمَنْ بَدَّلَهُ بَعْدَمَا سَمِعَهُ فَإِنَّمَا إِثْمُهُ عَلَى ٱلَّذِينَ يُبَدِّلُونَهُ﴾ قال: نسختها التي بعدها، قوله: ﴿فَمَنْ خَافَ مِنْ مُوصٍ جَنَفاً أَوْ إِثْماً فَأَصْلَحَ بَيْنَهُمْ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ﴾ قال: يعني الموصى إليه إن خاف جنفاً من الموصي في ولده فيما أوصى به إليه ـ فيما[3] لا يرضى الله به من خلاف الحقّ، فلا إثم عليه أي

---

١. *الكافي* ٧: ١٤، الحديث: ١.

٢. تهذيب *الأحكام* ٩: ٢٠٣، الحديث: ٥؛ من لا يحضره *الفقيه* ٤: ٢٠٠، الحديث: ٥٤٦٢؛ *الاستبصار* ٤: ١٢٩، الحديث: ٥.

٣. في المصدر: «ممّا»

على الموصى إليه أن يبدّله إلى الحقّ، وإلى ما يرضى الله به من سبيل الحقّ[١]». [٢]

أقول: هو من تفسير الآية بالآية، وقد مرّ أنّ النسخ في كلامهم ـ عليهم السلام ـ ربّما أُطلق على غير ما اصطُلح عليه بين الأُصوليّين.

وفي *تفسير القمّي* قال الصادق ـ عليه السلام ـ: «إذا الرجل أوصى بوصيّة، فلايحلّ للوصيّ أن يغيّر وصيّة يوصيها، بل يمضيها على ما أوصى، إلّا أن يوصي بغير ما أمر الله، فيعصي في الوصيّة ويظلم، فالموصى إليه جائز له أن يردّه إلى الحقّ؛ مثل رجل يكون له ورثة، فيجعل المال كلّه لبعض ورثته ويحرم بعضاً، فالوصيّ جائز له أن يردّه إلى الحقّ، وهو قوله: ﴿جَنَفاً أَوْ إِثْماً﴾ والجنف: الميل إلى بعض ورثته دون بعض، والإثم أن يأمر بعمارة بيوت النيران، واتّخاذ المسكر، فيحلّ للوصيّ أن لا يعمل بشيء من ذلك». [٣]

وفي *المجمع* عن أبي جعفر ـ عليه السلام ـ: «الجنف: أن يكون على جهة الخطأ من حيث لا يدري أنّه يجوز». [٤]

أقول: والمعاني قريبة، وأصل الجنف في اللغة: الميل.

*

---

١. في المصدر: «الخير»

٢. *الكافي* ٧: ٢١، الحديث: ٢.

٣. تفسير *القمّي* ١: ٦٥.

٤. مجمع *البيان* ١: ٤٩٦.

[يَا أَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَىٰ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٨٣﴾ أَيَّاماً مَعْدُودَاتٍ فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضاً أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ وَعَلَىٰ ٱلَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ فَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْراً فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ وَأَن تَصُومُوا خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٨٤﴾]

قوله سبحانه: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ...﴾

إخبار عن إنشاء الحكم، وليس بإنشاء له، بل الحكم المنشأ المجعول هو الذي يخبر عنه في الآية التالية بقوله: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ﴾[1] إلى آخر الآية، فهاتان الآيتان في مقام الإخبار عن أنّ هذا الحكم مكتوب مفروض، وقوله: ﴿فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضاً﴾ تفريع على هذه الكتابة والفرض، وأنّ المريض والمسافر ـ إن كان حكم نفي العسر يمنع عن صومهما ـ لكنّ الكتابة توجب لهما القضاء.

وليس قوله سبحانه بعده: ﴿فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضاً أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ﴾ تكراراً للحكم المبيّن، بل الحكم هو الذي يشتمل عليه البيان الثاني، والبيان الأوّل ناظر

---

١. البقرة (٢): ١٨٥.

إلى تشريح معنى الكتابة، وكذلك قوله: ﴿وَعَلَى ٱلَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ﴾ شرح لمعنى الكتابة وأنّها توجب لهم الفدية.

وعليه يتفرّع قوله: ﴿فَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْراً﴾ وهو أصل الفدية من الذين يطيقون الصيام﴿ فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ﴾.

فقوله: ﴿فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضاً﴾ وقوله: ﴿فَمَنْ تَطَوَّعَ﴾ تفريعان على قوله: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ﴾.

وبذلك يتّضح أنّ قوله: ﴿أَنْ تَصُومُوا﴾ عود إلى بدء الكلام من خطاب المؤمنين بالصيام المكتوب، وليس خطاباً لمن كان منهم مريضاً أو على سفر، هذا.

وإذا نزّل المعنى هذه المنزلة، وقع الكلام موقعه اللائق به، وتبيّنت مزايا الجمل الواقعة في هذه الآيات الثلاث في أحوالها، وهي ثماني عشرة جملةً، وظهر الاستغناء عن التعسّفات الواقعة في بعض التفاسير، واتّضحت صحّة مضامين الروايات الواردة فيها عنهم ـ عليهم السّلام ـ.

ففي *تفسير العيّاشي* عن الصادق ـ عليه السلام ـ في قوله: ﴿يَا أَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ﴾، قال: «هي للمؤمنين خاصّة».[١]

وعن جميل قال: «سألت الصادق ـ عليه السلام ـ عن قول الله: ﴿يَا أَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ﴾ قال: فقال: هذه كلّها يجمع الضّلال والمنافقين وكلّ من أقرّ بالدعوة الظاهرة».[٢]

أقول: وستجيء الروايات في معنى قوله: ﴿فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضاً﴾.

---

١. تفسير *العياشي* ١: ٧٨، الحديث: ١٧٤.

٢. المصدر السابق: الحديث: ١٧٥.

وربّما استفيد تخيير المريض والمسافر ـ بين الصوم والقضاء بالإفطار ـ من قوله سبحانه: ﴿وَأَنْ تَصُومُوا خَيْرٌ لَكُمْ﴾ عقيب قوله: ﴿فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضاً﴾.

وقد عرفت أنّ الكلام عود إلى بدو الخطاب، وأنّ الآيتين ليستا في مقام شرح الحكم. على أنّ لازم ذلك أفضليّة الصوم، ويأبى عن ذلك سياق قوله تعالى بعده: ﴿فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ ٱلشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ﴾[١] من غير تعرّض به، وهو ظاهر عند العارف بأساليب الكلام.

وفي الفقيه عن حفص قال: «سمعت أبا عبد الله ـ عليه السلام ـ يقول: إنّ شهر رمضان لم يفرض الله صيامه على أحد من الأُمم قبلنا، فقلت له: فقول الله ـ عزّ وجلّ ـ: ﴿يَا أَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ﴾؟ قال: إنّما فرض الله ـ عزّ وجلّ ـ صيام شهر رمضان على الأنبياء دون الأُمم، ففضّل الله به هذه الأُمّة وجعل صيامه فرضاً على رسول الله وعلى أُمّته».[٢]

أقول: وما يقال: إنّ الرواية مخالفة للكتاب؛ إذ ظاهر قوله: ﴿عَلَى ٱلَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ﴾ بظاهره يأبى أن يكون المراد به الأنبياء فقط.

ربّما يجاب عنه: بأنّ الآية تدلّ على اشتراك الذين من قبلنا معنا في أصل الصيام، ولم يصرّح بشهر رمضان بالخصوص، فمن الجائز أن يكون الصيام ـ المكتوب على من قبلنا من سائر الأُمم ـ صياماً في غير شهر رمضان، وإن كان المكتوب على الأنبياء صيام شهر رمضان.

وفي *تفسير القمّي* قال: قال ـ عليه السلام ـ: «أوّل ما فرض الله الصوم لم

---

١. البقرة (٢): ١٨٥.

٢. من لا يحضره *الفقيه* ٢: ٩٩، الحديث: ١٨٤٤.

يفرضه الله في شهر رمضان، قال: وقال العالم: فرض الله شهر رمضان على الأنبياء ولم يفرضه على الأُمم، فلمّا بعث الله نبيّه خصّه بفضل شهر رمضان هو وأُمّته، وكان الصوم قبل أن ينزل شهر رمضان يصوم الناس أيّاماً».(١)

*

---

١. *تفسير القمّي* ١: ٦٥.

[شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِى أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْآنُ هُدىً لِلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِنَ ٱلْـهُدَىٰ وَٱلْفُرْقَانِ فَمَنْ شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ وَمَنْ كَانَ مَرِيضاً أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ يُرِيدُ ٱللهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُوا ٱلْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا ٱللهَ عَلَىٰ مَا هَدَاكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٨٥﴾]

قوله سبحانه: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِى أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْآنُ...﴾

في *الكافي* عن حفص بن غياث عن أبي عبد الله ـ عليه السلام ـ قال: «سألته عن قول الله ـ عزّ وجلّ ـ: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِى أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْآنُ﴾ وإنّما أُنزل في عشرين سنة بين أوّله وآخره! فقال أبو عبد الله ـ عليه السلام ـ: نُزّل القرآن جملة واحدة في شهر رمضان إلى البيت المعمور، ثمّ نزّل في طول عشرين سنة، ثم قال: قال النبيّ ـ صلّى الله عليه وآله وسلّم ـ: نزلت صحف إبراهيم ـ عليه السلام ـ في أوّل ليلة من شهر رمضان، وأُنزلت التوراة لِستٍّ مضين من شهر رمضان، وأُنزل الإنجيل لثلاث عشرة ليلة خلت من شهر رمضان، وأُنزل الزبور لثمان عشرة خلَون من شهر رمضان، وأُنزل القرآن في ثلاث وعشرين من شهر رمضان».[1]

---

١. *الكافي* ٢: ٦٢٨، الحديث: ٦.

أقول: الروايات في هذين المعنيين كثيرة مع اختلاف يسير فيها[١]؛ كـليلةِ الثلاث بدل الأُولى وأربع وعشرين بدل الثلاث وعشرين في الصحف والقرآن، وذلك ممّا رواه الفريقان. وسيأتي معنى نزول القرآن دفعة واحدة ونجوماً.

وفي *الكافي* عمّن سأل الصادق ـعليه السلام ـ عن القرآن والفـرقان، هـما شيئان أو شيء واحد؟ فقال: «القرآن جملة الكتاب، والفرقان الحكم الواجب العمل به».[٢]

وفي *الجوامع* عنه ـعليه السلام ـ: «الفرقان كلّ آية محكمة في الكتاب».[٣]

وفي *تفسيري القمّي والعيّاشي* عـنه ـعـليه السـلام ـ: «الفـرقان هـو كـلّ أمر محكم، والكتاب هو جملة القرآن الذي يصدّق فيه[٤] من كـان قـبله مـن الأنبيـاء».[٥]

أقول: واللفظ يساعد ذلك.

وقد ورد في بعض الروايات أنّ «رمضان» اسم من أسـماء الله، فـلا يقال: «جاء رمضان وذهب رمضان» بل «شهر رمضان».

وهو خبر واحد غريب في بابه، والأخبار الواردة في عدّ أسمائه تعالى خالية عنه، وليس من قبيل ما ورد أنّ «أنين المريض من أسماء الله تعالى». على أنّ لفظ «رمضان» ـ من غير تصدير بـ«شهر» وبصيغة التثنية ـ مستعمل كثيراً في الروايات؛ بحيث يبعد استناد التجريد إلى الراوي.

---

١. تفسير *العياشي* ١: ٨٠، الحديث: ١٨٤.
٢. *الكافي* ٢: ٦٣٠، الحديث: ١١.
٣. جوامع *الجامع* ١: ٢٦٤.
٤. في المصدر: «يصدقه»
٥. تفسير *القمي* ١: ٩٦؛ تفسير *العياشي* ١: ١٦٢، الحديث: ١.

قوله سبحانه: ﴿فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ ٱلشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ﴾

نصب الشهر على الظرفيّة.

وفي *تفسير العيّاشي* عن الصباح بن سيابة قال: «قلت لأبي عبد الله ـ عليه السلام ـ: إنّ ابن أبي يعفور أمرني أن أسألك عن مسائل، فقال: وما هي؟ قال: يقول لك: إذا دخل شهر رمضان وأنا في منزلي ألي أن أُسافر؟ قال: إنّ الله يقول: ﴿فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ ٱلشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ﴾ فمن دخل عليه شهر رمضان وهو في أهله فليس له أن يسافر؛ إلّا لحجّ، أو عمرة، أو في طلب مال يخاف تلفه».[١]

أقول: وهو استفادة لطيفة لحكم استحبابي بالأخذ بالإطلاق.

قوله سبحانه: ﴿وَمَنْ كَانَ مَرِيضاً أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ﴾

في *الكافي* عن عليّ بن الحسين ـ عليه السلام ـ قال: «فأمّا صوم السفر والمرض فإنّ العامّة قد اختلفت في ذلك: فقال قوم: يصوم، وقال آخرون: لا يصوم، وقال قوم: إن شاء صام وإن شاء أفطر، وأمّا نحن فنقول: يفطر في الحالين جميعاً، فإن صام في السفر أو حال المرض فعليه القضاء؛ فإنّ الله ـ عزّ وجلّ ـ يقول: ﴿وَمَنْ كَانَ مَرِيضاً أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ﴾».[٢]

أقول: ورواه العيّاشي أيضاً.[٣]

وفي *تفسير العيّاشي* عن الباقر ـ عليه السلام ـ في قوله: ﴿فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ ٱلشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ﴾ قال ـ عليه السلام ـ: «ما أبْيَنها لمن عقلها! قال: من شهد

١. تفسير *العيّاشي* ١: ٨٠، الحديث: ١٨٦.

٢. *الكافي* ٤: ٨٦، الحديث: ١.

٣. تفسير *العياشي* ١: ٨٢، الحديث: ١٩٢.

رمضان فليصمه، ومن سافر فيه فليفطر[١]».

أقول: وأخبار أهل البيت ـ في تعيّن الإفطار على المريض والمسافر ـ أكثر من أن تحصى، ومذهبهم ذلك.

وفي تفسيره أيضاً عن أبي بصير قال: «سألته عن قول الله: ﴿وَعَلَى ٱلَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ﴾[٢] قال ـ عليه السلام ـ: الشيخ الكبير الذي لا يستطيع، والمريض».[٣]

وفيه عن الباقر ـ عليه السلام ـ في الآية، قال: «الشيخ الكبير والذي يأخذه العطاش».[٤]

وفيه عن الصادق ـ عليه السلام ـ في الآية، قال ـ عليه السلام ـ: «امرأة تخاف على ولدها، والشيخ الكبير».[٥]

أقول: والروايات فيه كثيرة عنهم ـ عليهم السلام ـ.[٦]

والعطاش مرض العطش، وقوله: ﴿يُطِيقُونَهُ﴾ يشهد أنّ المراد بهذا الموضوع غير المسافر من المعذورين.

قوله سبحانه: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ﴾ ـ إلى قوله ـ: ﴿تَشْكُرُونَ﴾

ظاهر السياق أنّ قوله: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ﴾ تعليل لإفطار المريض وغيره من

---

١. تفسير *العياشي* ١: ٨١، الحديث: ١٨٧.
٢. البقرة (٢): ١٨٤.
٣. تفسير *العياشي* ١: ٧٨، الحديث: ١٧٧.
٤. تفسير *العياشي* ١: ٧٨، الحديث: ١٧٦.
٥. تفسير *العياشي* ١: ٧٩، الحديث: ١٨٠.
٦. من لا يحضره *الفقيه* ٢: ١٣٣، الحديث: ١٩٤٩؛ تهذيب *الأحكام* ٤: ٢٣٧، الحديث: ٢.

المعذورين، وقوله: ﴿وَلِتُكْمِلُوا ٱلْعِدَّةَ﴾ تعليل لقضاء المعذورين في عدّة من أيّام أُخر، وأنّ قوله: ﴿وَلِتُكَبِّرُوا ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَاكُمْ﴾ تعظيم جميع الصائمين لله تعالى من معذور يقضي في غير شهر رمضان، وغير معذور يصوم فيه.

وتكبيرهم له تعالى: بصومهم على ما هداهم في هذا الشهر بإنزال القرآن الذي هو هدىً للناس، فسياق التوصيف في قوله: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْآنُ...﴾ يعطي أنّ لـ«نزول القرآن هدىً للناس» دخلاً في فرض الصوم.

فالصوم ـ وهو التنزّهُ عن ألواث الطبيعة، والاستعلاءُ عن دناءة الإخلاد إلى الأرض بمشتهياتها؛ واتّقاءٌ منها ـ هو بصورته تكبيرٌ لله، وبمعناه ـ لو كان ـ شكرٌ له تعالى؛ ولذلك خصّ الشكر بكلمة الترجّي الذي يتضمّنه المقام لا نفس المتكلم، كما أنّه بنتيجته تقوى لله لو ترتّبت النتيجة، كما ذكره أوّلاً وخصّه ـ مثل الشكر ـ بكلمة الترجّي، فقال: ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ هذا.

وفي *تفسير العيّاشي* عن سعيد عن الصادق ـ عليه السلام ـ قال: «إنّ في الفطر تكبيراً، قال: قلت: ما التكبير إلّا في يوم النحر! قال: فيه تكبير ولكنّه مسنون: في المغرب والعشاء والفجر والظهر والعصر وركعتي العيد».[1]

وفي *الكافي* عن سعيد النقّاش قال: «قال أبو عبد الله ـ عليه السلام ـ: لي: في ليلة الفطر تكبيرة،[2] ولكنّه مسنون،[3] قال: قلت: وأين هو؟ قال: في ليلة الفطر في المغرب والعشاء الآخرة، وفي صلاة الفجر، وفي صلاة العيد، ثمّ يقطع، قال: قلت: كيف أقول؟ قال: تقول: الله أكبر، الله أكبر، لا إله إلّا الله والله أكبر، الله أكبر

---

١. تفسير *العياشي* ١: ٨٢، الحديث: ١٩٥.
٢. في المصدر: «أما أنّ في الفطر تكبيراً»
٣. في المصدر: «مستور»

على ما هدانا، وهو قول الله: ﴿وَلِتُكْمِلُوا ٱلْعِدَّةَ﴾ يعني الصلاة[١] ﴿وَلِتُكَبِّرُوا ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَاكُمْ﴾[٢] والتكبير أن تقول: الله أكبر، الله أكبر، لا إله إلّا الله والله أكبر، الله أكبر ولله الحمد» قال: وفي رواية التكبير الآخِر أربع مرّات.[٣]

أقول: اختلاف الروايتين في إثبات الظهرين وعدمه يمكن أن يحمل على مراتب الاستحباب.

وقوله ـ عليه السلام ـ «يعني الصلاة» لعلّه يريد أنّ المعنى: ولتكملوا عدّة أيّام الصوم بصلاة العيد ولتكبّروا الله مع الصلوات على ما هداكم، وهو غير ضائر بما ذكرناه من ظاهر المعنى؛ فإنّه استفادة حكم استحبابى من مورد الوجوب، نظير ما مرّ في قوله تعالى: ﴿فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ ٱلشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ﴾ من كراهة الخروج[٤] إلى السفر في الشهر لمن شهد الليلة الأُولى منه في الحضر، هذا.

واختلاف آخر التكبيرات ـ في الموضعين من الرواية الأخيرة يؤيّد ما قيل: إنّ قوله: ﴿وَلِتُكَبِّرُوا ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَاكُمْ﴾ بتضمين التكبير معنى الحمد، ولذلك عُدِّي بـ«على».

وفي *تفسير العيّاشي* أيضاً عن ابن أبي عمير عن الصادق ـ عليه السلام ـ قال: «قلت له: جعلت فداك، ما يتحدّث به عندنا أنّ النبيّ ـ صلّى الله عليه وآله وسلّم ـ صام تسعة وعشرين أكثر ممّا صام ثلاثين، أحقّ هذا؟ قال: ما خلق الله من هذا حرفاً، فما صام[٥] النبيّ ـ صلّى الله عليه وآله وسلّم ـ إلّا ثلاثين؛ لأنّ الله

---

١. في المصدر: «الصيام»
٢. *الكافي* ٤: ١٦٦، الحديث: ١.
٣. تفسير *العيّاشي* ١: ٨٢، الحديث: ١٩٣.
٤. لم يعبّر سابقاً بالكراهة.
٥. في المصدر: «ما صامه»

يقول: ﴿وَلِتُكْمِلُوا ٱلْعِدَّةَ﴾ فكان رسول الله ينقصه؟!».[١]

أقول: قوله: «فكان رسول الله ينقصه» في مقام الاستفهام الإنكاري، والرواية تدلّ على ما قدّمناه: أنّ ظاهر التكميل تكميل شهر رمضان.

وفي *محاسن البرقي* عن بعض أصحابنا رفعه في قوله: ﴿وَلِتُكَبِّرُوا ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَاكُمْ﴾ قال: «التكبير التعظيم، والهداية الولاية».[٢]

أقول: وقوله: «الهداية الولاية» من قبيل بيان المصداق، ويمكن أن يكون من باب التأويل؛ كما ورد في بعض الأخبار: أنّ اليُسر هو الولاية، والعُسر هو الخلاف وموالاة أعداء الله.[٣]

*

١. تفسير *العياشي* ١: ٨٢، الحديث: ١٩٤.

٢. *المحاسن* ١: ١٤٢، الحديث: ٣٦.

٣. *المحاسن* ١: ١٨٦، الحديث: ١٩٩.

[وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴿١٨٦﴾ أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ ٱلصِّيَامِ ٱلرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَائِكُمْ هُنَّ لِبَاسٌ لَكُمْ وَأَنْتُمْ لِبَاسٌ لَهُنَّ عَلِمَ ٱللَّهُ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَخْتَانُونَ أَنْفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنْكُمْ فَالْآنَ بَاشِرُوهُنَّ وَٱبْتَغُوا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ وَكُلُوا وَٱشْرَبُوا حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ ٱلْخَيْطُ ٱلْأَبْيَضُ مِنَ ٱلْخَيْطِ ٱلْأَسْوَدِ مِنَ ٱلْفَجْرِ ثُمَّ أَتِمُّوا ٱلصِّيَامَ إِلَى ٱللَّيْلِ وَلَا تُبَاشِرُوهُنَّ وَأَنْتُمْ عَاكِفُونَ فِي ٱلْمَسَاجِدِ تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَقْرَبُوهَا كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿١٨٧﴾]

قوله سبحانه: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ...﴾

أجمل كلمة وأحسنها في بيان قربه تعالى وإجابته، وفيه ـ من طرح الواسطة حيث لم يقل: «فقل: إنّه قريب»، والتأكيد بـ«إنّ»، والدلالة على ثبات القرب وتجدّد الإجابة واستمرارها ـ لطائف من البلاغة.

وقد أتمّ سبحانه بيان قربه وإجابته للسائلين عنه؛ حيث عبّر عنهم بقوله ﴿عِبَادِي﴾ فهو الذي يملكهم ملكاً طلقاً يحيط بهم، فإذا كان سبحانه هو المالك

لأنفسهم ولقوى أنفسهم ولما يتعلّق بأنفسهم، فملكهم لأنفسهم ولقواها ومتعلّقاتها إنّما هو بتمليكه إيّاهم لما ملكه بالذات، فهو الحائل بينهم وبين أنفسهم وقواها ومتعلّقاتها، فهو القريب منهم على الإطلاق من غير بُعد أصلاً، كما قال: ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْكُمْ وَلٰكِنْ لَا تُبْصِرُونَ﴾[1] وقال تعالى: ﴿أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَقَلْبِهِ﴾[2] وقال تعالى: ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ﴾.[3]

وهو تمليك في ملكٍ ليس على نحو النقل والانتقال، كما يملّك أحدنا صاحبه بالبيع، فينزع الملك عن نفسه ويقلّده صاحبه على ما قالته اليهود: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنْفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ﴾[4] وكما قاله جمع من هذه الأُمّة، فسمّاهم النبيّ مجوس هذه الأُمّة، فيما رواه الفريقان عنه ـ صلّى الله عليه وآله وسلّم ـ: «القدريّة مجوس هذه الأُمّة».[5]

فسلطانه تعالى واقع غير منقطع عن كلّ صغير وكبير ممّا بأيدي عباده، وحينئذٍ فليس يستقبلهم شيء من أنفسهم أو ما يتعلّق بأنفسهم ممّا يريدونه إلّا بإذنه وإيتائه وإعطائه، فما يملّكه ويأذن فيه من ذلك يقع، وما لا يعطيه لا يقع وإن بذل في سبيله وطريق نيله كلّ جهد وعناية، قال سبحانه: ﴿يَا أَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنْتُمُ ٱلْفُقَرَاءُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِيُّ ٱلْحَمِيدُ﴾[6] وقد قال تعالى: ﴿وَآتَاكُم مِنْ كُلِّ مَا

---

١. الواقعة (٥٦): ٨٥.
٢. الأنفال (٨): ٢٤.
٣. ق (٥٠): ١٦.
٤. المائدة (٥): ٦٤.
٥. *جامع الأخبار*: ١٦١؛ *سنن أبي داود* ٢: ٤١٠، الحديث: ٤٦٩١؛ *عوالي اللآلي* ١: ١٦٦؛ *السنن الكبرى* ١٠: ٢٠٣؛ *كنز العمّال* ١: ١١٩، الحديث: ٥٦٦.
٦. فاطر (٣٥): ١٥.

سَأَلْتُمُوهُ وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَةَ ٱللهِ لَا تُحْصُوهَا﴾،(١) فهم فيما لا يحصونه من النعم سائلون، ولم يسألوها بألسنتهم، بل بفقرهم واستحقاقهم ذلك لساناً فطريّاً وجوديّاً.

وقال في هذه الآية: ﴿أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾ فلم يقيّد بقيد، بل إنّما شرط أن يكون داعياً وأن يتعلّق دعاؤه به لا بغيره.

فما لا يقع ممّا يريده الإنسان ويهتمّ به فالدعاء الفطري لا يتخطّاه سبحانه، بل لم يتحقّق هناك دعاء، وإنّما التبس الأمر عليه التباساً، وهو الذي يجده الإنسان فيما كان يريده بعد اليأس، فيجد أنّه قد كان ممّا لا يقع، وأنّه قد كان مخطئاً في طلبه؛ إذ كان لا يطلب المحال، بل يطلبه لإذعانه إمكانه؛ ولم يكن ممكناً، فلم يكن يطلبه بالحقيقة. فهذا الذي لا يتحقّق فيه الدعاء.

ثمّ ما لا يقع ممّا يسأله الإنسان عن ربّه، فلم يسأل ربّه، أي لم يواطئ قلبه لسانه؛ كمن تعلّق رجاؤه بالأسباب العاديّة أو أُمور وهميّة، فلم يُخلص الدعاء بالقلب، وإن أخلصه باللسان واللفظ.

هذا ملخّص القول في معنى الدعاء، وبه يظهر معاني جميع ما ورد فيه من الآيات والأخبار: قال تعالى: ﴿يَسْأَلُهُ مَن فِي ٱلسَّمَاوَاتِ وَٱلْأَرْضِ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾(٢) وقال تعالى: ﴿قُلْ مَا يَعْبَأُ بِكُمْ رَبِّي لَوْلَا دُعَاؤُكُمْ﴾(٣) وقال تعالى: ﴿قُلْ أَرَأَيْتَكُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ ٱللهِ أَوْ أَتَتْكُمُ ٱلسَّاعَةُ أَغَيْرَ ٱللهِ تَدْعُونَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ * بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِنْ شَاءَ وَتَنسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ﴾(٤) وقال تعالى: ﴿قُلْ

---

١. ابراهيم (١٤): ٣٤.
٢. الرحمن (٥٥): ٢٩.
٣. الفرقان (٢٥): ٧٧.
٤. الأنعام (٦): ٤١.

مَنْ يُنَجِّيكُمْ مِنْ ظُلُمَاتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ تَدْعُونَهُ تَضَرُّعاً وَخُفْيَةً لَئِنْ أَنْجَانَا مِنْ هٰذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّاكِرِينَ﴾ .[١]

أقول: وهذه الآيات ـ كما ترى بين ـ ما يفيد: أنّ كلّ موجود سماويّ أو أرضيّ تصل إليه الموهبة الإلٰهيّة ـ من وجوده إلى متعلّقات وجوده ـ بالسؤال من معدن الرحمة ومنبع الجود، وبين ما يفيد: أنّ الدعاء فطريّ للإنسان، وأنّه بفطرته يدعو الله تعالى، لا يتخطّاه في سؤال النجاة إلى غيره ما دام يتغلغل في الشدّة، فلايزال يذكره ويدعوه، حتى إذا كشف عنه الضرّ واستظلّ بالرخاء نسي ربّه واشتغل بملاهي الدنيا وتعلّق بالأسباب، فأشرك بربّه، فهو مشرك وليس بكافر وإن جحد ربّه؛ فإنّ الإنسان سائلٌ داع لله بالفطرة لا يترك ذلك البتّة، فإذا تعلّق بغيره فقد أشرك، وإن زعم أنّه لا يدعوه ولا يسأله سبحانه، فلا تبديل لخلق الله، هذا.

وقال تعالى: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ .[٢]

أقول: والآية دعوة إلى الدعاء ووعد بالإجابة وتزيد على ذلك أنّها تسمّي مطلق العبادة دعاءً،[٣] ولو لم يكن مثل الصلاة، وهذا باب ينفتح منه أبواب.

وقال سبحانه: ﴿فَٱدْعُوا ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾[٤] وقال تعالى: ﴿وَٱدْعُوهُ

---

١. الأنعام (٦): ٦٣ ـ ٦٤.

٢. غافر (٤٠): ٦٠.

٣. الصحيح «الدعاء عبادة» وإن كان يمكن تقريب استفادة جعل العبادة دعاءً من الآية، لكن هذا ليس من باب التسمية.

٤. غافر (٤٠): ١٤.

خَوْفاً وَطَمَعاً إِنَّ رَحْمَةَ ٱللهِ قَرِيبٌ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾[١] وقال تعالى: ﴿وَيَدْعُونَنَا رَغَباً وَرَهَباً وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ﴾[٢] وقال: ﴿وَيَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا ٱلصَّالِحَاتِ وَيَزِيدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ﴾[٣] وقال تعالى: ﴿ٱدْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعاً وَخُفْيَةً إِنَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ﴾[٤] وقال تعالى: ﴿وَٱذْكُر رَبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعاً وَخِيفَةً وَدُونَ ٱلْجَهْرِ مِنَ ٱلْقَوْلِ بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْآصَالِ وَلَا تَكُنْ مِنَ ٱلْغَافِلِينَ﴾[٥] وقال تعالى: ﴿إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ نِدَاءً خَفِيّاً﴾ إلى قوله: ﴿وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيّاً﴾[٦] وقال: ﴿وَٱغْضُضْ مِنْ صَوْتِكَ﴾.[٧]... إلى غير ذلك من الآيات الواردة في هذه المعاني.

أقول: وهي مشتملة على أركان الدعاء وآداب الداعي، وعمدتها: الإخلاص في دعائه سبحانه، وهو مواطاة القلب مع اللسان، والانقطاع عن كلّ سبب دونه تعالى والتعلّق به تعالى، ويلحق به الخوف والطمع والرغبة والرهبة والخشوع والتضرّع والإصرار والذكر وصالح العمل والإيمان وأداب الحضور، وغير ذلك ممّا تشتمل عليه الروايات:

فعن النبيّ ـ صلّى الله عليه وآله وسلّم ـ فيما رواه الفريقان: «الدعاء سلاح المؤمن».[٨]

---

١. الأعراف (٧): ٥٦.
٢. الأنبياء (٢١): ٩٠.
٣. الشورى (٤٢): ٢٦.
٤. الأعراف (٧): ٥٥.
٥. الأعراف (٧): ٢٠٥.
٦. مريم (١٩): ٣ ـ ٤.
٧. لقمان (٣١): ١٩.
٨. *الكافي* ٢: ٤٦٨، الحديث: ١؛ *جامع الأخبار*: ٨٥؛ *مكارم الأخلاق*: ٢٦٨؛ *ميزان الاعتدال* ٣: ٥١٢، الحديث: ٧٣٧٢؛ *الكامل* لابن عدي ٦: ١٧٢.

وفي *المكارم* عنه ـ صلَّى الله عليه وآله وسلّم ـ: «الدعاء أفضل من قراءة القرآن؛ لأنّ الله ـ عزّ وجلّ ـ قال: ﴿قُلْ مَا يَعْبَأُ بِكُمْ رَبِّي لَوْلَا دُعَاؤُكُمْ﴾[1]».[2]

وروي ذلك عن الباقر والصادق ـ عليهما السلام ـ.

وفي *عدّة الداعي* في رواية محمّد بن عجلان عن محمّد بن عبد الله بن عليّ بن الحسين عن ابن عمّه الصادق عن آبائه عن النبيّ ـ صلَّى الله عليه وآله وسلّم ـ قال: «أوحى الله إلى بعض أنبيائه في بعض وحيه: وعزّتي وجلالي لأقطعنّ أمل كلّ آمل أمل غيري بالإياس، ولأكسونّه ثوب المذلّة في الناس، ولأبعدنّه من فرجي وفضلي، أيأمل عبدي[3] في الشدائد غيري، والشدائد بيدي؟! ويرجو سواي وأنا الغنيّ الجواد؟! بيدي مفاتيح الأبواب وهي مغلقة، وبابي مفتوح لمن دعاني...»[4] الحديث.

وفيه أيضاً في الحديث القدسي: «يا موسى سلني كلّ ما تحتاج إليه، حتّى علف شاتك وملح عجينك».[5]

وفيه أيضاً عن النبيّ ـ صلَّى الله عليه وآله وسلّم ـ قال: «قال الله: ما من مخلوق يعتصم بمخلوق دوني إلّا قطعت أسباب السماوات وأسباب الأرض من دونه، فإن سألني لم أُعطه، وإن دعاني لم أُجبه، وما من مخلوق يعتصم بي دون خلقي إلّا ضمنت السماوات والأرض رزقه، فإن دعاني أجبته، وإن سألني

---

١. الفرقان (٢٥): ٧٧.
٢. *مكارم الأخلاق*: ٣٨٩.
٣. في المصدر: «أعبدي يأمل»
٤. *عدّة الداعي*: ١٣٥.
٥. *عدّة الداعي*: ١٣٤.

أعطيته، وإن استغفرني غفرت له». [١]

أقول: وهذا هو الإخلاص، وليس بمقيّد لإطلاق الآية؛ فإنّ غير المخلص في دعائه لا يدعوه سبحانه، وقد قال تعالى: ﴿ٱدْعُونِى أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ [٢] وقال تعالى: ﴿أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾ وقال تعالى: ﴿فَٱذْكُرُونِى أَذْكُرْكُمْ﴾ [٣] فأضاف الدعاء والذكر إلى نفسه.

واعلم: أنّ من عدم الاجابة ما يلزمه إجابة دعاء آخر، ومن الإجابة ما يلزمه عدم إجابة دعاء آخر والخيبة فيه، وبه يستصحّ كليّة قوله تعالى: ما من مخلوق يعتصم...» إلى آخره، و«ما من مخلوق يعتصم بي...» إلى آخره.

وفيه أيضاً عن النبيّ ـ صلّى الله عليه وآله وسلّم ـ: «ادعوا الله وأنتم موقنون بالإجابة». [٤]

وفي الحديث القدسي: «أنا عند ظنّ عبدي بي، فلايظنّ بي إلّا خيراً». [٥]

أقول: وذلك أنّ الدعاء ـ مع اليأس، أو التردّد ـ يكشف عن عدم السؤال في الحقيقة، وقد ورد المنع عن الدعاء بما لا يكون.

وفيه أيضاً عن النبيّ ـ صلّى الله عليه وآله وسلّم ـ: «افزعوا إلى الله في حوائجكم، وألجأوا إليه في ملمّاتكم، وتضرّعوا إليه وادعوه؛ فإنّ الدعاء مخّ العبادة، وما من مؤمن يدعو الله إلّا استجاب، فإمّا أن يعجّله [٦] في الدنيا، أو

---

١. عدّة الداعي: ١٣٦.
٢. غافر (٤٠): ٦٠.
٣. البقرة (٢): ١٥٢.
٤. عدّة الداعي: ١٤٤.
٥. عدّة الداعي: ١٤٤.
٦. في المصدر: «يعجل له»

يؤجّل له في الآخرة، وإمّا أن يكفّر عنه من ذنوبه بقدر ما دعا، ما لم يدع بمأثم».[١]

وفي *نهج البلاغة* في وصيّة له ـ عليه السلام ـ لابنه الحسين[٢] ـ عليه السلام ـ: «ثمّ جعل في يديك مفاتيح خزائنه، بما أذن لك فيه من مسألته، فمتى شئت استفتحت بالدعاء أبواب نعمه، واستمطرت شآبيب رحمته، فلايقنّطنّك إبطاء إجابته؛ فإنّ العطيّة على قدر النيّة، وربّما أُخّرت عنك الإجابة ليكون ذلك أعظم لأجر السائل وأجزل لعطاء الآمل، وربّما سألت الشيء فلا تؤتاه وأُوتيت خيراً منه عاجلاً وآجلاً، أو صرف عنك لما هو خير لك، فلربّ أمر قد طلبته فيه هلاك دينك لو أُوتيته، فلتكن مسألتك فيما يبقى لك جماله وينفى عنك وباله، والمال لا يبقى لك ولا تبقى له».[٣]

وفي *عدّة الداعي* عن الباقر ـ عليه السلام ـ: «ما بسط عبد يده إلى الله عزّ وجلّ إلّا استحيى الله أن يردّها صفراً؛ حتّى يجعل فيها من فضله ورحمته ما يشاء، فإذا دعا أحدكم فلايردّ يده حتّى يمسح بها على رأسه ووجهه» في خبر آخر: «على وجهه وصدره».[٤]

أقول: الإنسان كثيراً ما يهتمّ ببعض منافعه؛ حتّى إذا بلغه وجده ضارّاً بما هو أنفع منه وأدرّ، فترك الأوّل وأخذ بالثاني، أو يهرب عن شيء حتّى إذا صادفه وجده أنفع ممّا كان يتحفّظ منه، فأخذ الأوّل وترك الثاني، فالصبيّ المريض إذا عُرض عليه الدواء يأخذ بالبكاء وهو يريد الصحّة، فهو بلسان الطبيعة يسأل

---

١. *عدّة الداعي*: ٤٠.

٢. في المصدر: «الحسن»

٣. *نهج البلاغة*: الكتاب: ٢١.

٤. *عدّة الداعي*: ٢١٠.

الصحّة فيسأل الدواء، وإن كان بلسان قوله أو فعله يسأل خلافه وتركه.

فللانسان مثلاً في ذاته نظام يسير به في صراط وجوده، وله من حيث علمه نظام آخر، ونظام الوجود لا يقع فيه خطأ ولا في سيره خبط. فالواقع لا يتغيّر عمّا هو عليه، وأمّا نظام العلم فيكثر فيه الخطأ والسهو، فربّما سأل الإنسان عن ربّه شيئاً بحسب علمه، وهو بهذا السؤال بعينه يسأل شيئاً آخر أو خلافه.

فعلى هذا ينبغي أن يقرّر معنى هذه الأحاديث، وهو اللائح من قول أمير المؤمنين ـعليه السلام ـ في الوصيّة: «فلا يقنّطنّك إبطاء الإجابة؛ فإنّ العطيّة على قدر النيّة» وقد عرفت أنّ من الإجابة ما يلزمها عدم الإجابة في مورد آخر، وبالعكس.

وقريب من هذا الباب ما رواه في *أمالي الطوسي* عن عليّ ـعليه السلام ـ أنّه سمع رجلاً يقول: اللّهمّ إنّي أعوذ بك من الفتنة، قال ـعليه السلام ـ: «أراك تتعوّذ من مالك وولدك، يقول الله تعالى: ﴿وَٱعْلَمُوا أَنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ﴾[١] ولكن قل: اللّهمّ إنّي أعوذ بك من مضلّات الفتن».[٢]

أقول: وهذا باب آخر قريب المأخذ ممّا مرّ آنفاً، ونظائره كثيرة في الروايات، وفيها: «أنّ الحقّ في معنى كلّ لفظ ما ورد منه في كلامه تعالى» ويشبه هذا الباب ما ورد في الروايات من معنى الجزء والكثير والأمان وأمثال ذلك».

وفي هذا المعنى ما في *عدّة الداعي* عن الصادق ـعليه السلام ـ: «إنّ الله لا يستجيب دعاء بظهر قلب ساه».[٣]

---

١. الأنفال (٨): ٢٨.

٢. *الأمالي* للطوسي: ٥٨، الحديث: ١٢٠١.

٣. *عدّة الداعي*: ١٣٨.

وفيه أيضاً عن عليّ ـ عليه السلام ـ: «لا يقبل الله دعاء قلب لاه».[١]

ويقرب من هذا الباب أيضاً ما في دعوات الراوندي: «في التوراة يقول الله: ـ عزّ وجلّ ـ للعبد: إنّك متى ظللت تدعوني على عبد من عبيدي ـ من أجل أنّه ظلمك ـ فلك من عبيدي من يدعو عليك من أجل أنّك ظلمته، فإن شئت أجبتك وأجبته فيك، وأن شئت أخّرتكما إلى يوم القيامة».[٢]

أقول: وذلك أنّ من سأل شيئاً لنفسه فقد رضي به، ورضي بعين هذا الرضاء بكلّ ما يماثله من جميع الجهات التي وضع دعاءه عليها، فهو يدعو على نفسه بعين دعائه لنفسه، قال تعالى: ﴿وَيَدْعُ ٱلْإِنْسَانُ بِالشَّرِّ دُعَاءَهُ بِالْخَيْرِ وَكَانَ ٱلْإِنْسَانُ عَجُولاً﴾.[٣]

وفي *عدّة الداعي*: قال رسول الله ـ صلّى الله عليه وآله وسلّم ـ لأبي ذرّ: «يا أبا ذرّ ألا أُعلّمك كلمات ينفعك الله ـ عزّ وجلّ ـ بهنّ؟ قلت: بلى يا رسول الله، قال ـ صلّى الله عليه وآله وسلّم ـ: احفظ الله يحفظك الله، احفظ الله تجده أمامك، تعرّف إلى الله في الرخاء يعرفك في الشدّة، وإذا سألت فاسأل الله، وإذا استعنت فاستعن بالله، فقد جرى القلم بما هو كائن إلى يوم القيامة، ولو أنّ الخلق كلّهم جهدوا على أن ينفعوك بما لم يكتبه الله لك ما قدروا عليه».[٤]

أقول: قوله: «تعرّف إلى الله في الرخاء يعرفك في الشدّة» يعني ادع الله في الرخاء ولا تنسه حتّى يستجيب دعاءك في الشدّة ولا ينساك؛ وذلك أنّ ناسي

---

١. *عدّة الداعي*: ١٨٠.

٢. *الدعوات*: ٢٥، الحديث: ٣٨.

٣. الإسراء (١٧): ١١.

٤. *عدّة الداعي*: ١٨٢.

ربّه في الرخاء إذا دعاه في الشدّة كان معنى عمله أنّه يذعن بـه تـعالى عـلى تقدير، وهو ربّ على كلّ تقدير، فلم يعرفه، فلم يدعه.

وقد ورد هذا المعنى بلسان آخر:

ففي *المكارم* عن الصادق ـعليه السلام ـ قال: «من تقدّم في الدعاء استجيب له إذا نزل به البلاء، وقيل: صوت معروف، ولم يحجب عن السـماء، ومـن لم يتقدّم في الدعاء لم يستجب له إذا نزل به البلاء، وقالت الملائكة: إنّ ذا الصوت لا نعرفه...»[1] الحديث.

وقوله ـعليه السلام ـ: «فقد جرى القلم بما هو كائن...» إلى آخره، يشير إلى أنّ الأسباب الظاهريّة العاديّة في الوجود فإنّما سببيّتها مقصورة على حـدٍّ قدَّره الله تعالى، وحدّه فيها في الواقع، لا على ما يتراءى من سببيّتها وعملها، فإذاً الواجب على العبد أن يتوجّه في حوائجه إلى جناب العزّة، ولا يقرع باب الأسباب وإن أبى الله أن يُجري الأُمور إلّا بأسبابها.

وهذه دعوة إلى عدم الاعتماد على الأسباب إلّا بالله المفيض لها سـببيّتها، وليست دعوة إلى إلغاء الأسباب والطلب من غير سبب، فهو طمع فيما لا مطمع فيه البتّة، وعلى هذا النحو ينبغي أن يقرّر معنى ما مرّ من الأحاديث القدسيّة من نحو قوله سبحانه: «وعزّتي وجلالي لأقطعنّ أمل كلّ آمل أمل غيري بالإياس» فليس بإلغاء للسببيّة في الأسباب، ولا بردع عن استعمالها، فافهم.

وهاهنا سرّ آخر: وهو أنّ من استند في سير حياته إلى أمر، وعوّل عليه كلّ التعويل، كان عنده عطبه، كذوي الفنون إذا استمهر أحدهم في أمر خطير كان فيه خطره.

---

١. *مكارم الأخلاق*: ٢٧١.

واعلم: أنّ قوله: «فقد جرى القلم...» إلى آخره، في الصَّرف عن سؤال غير الله والاستعانة بغيره ـ مع أنّه يشمل مورد الدعاء أيضاً بحسب الظاهر ـ للإشارة إلى أنّ تأثير الدعاء أيضاً من القدر؛ وقد تكاثرت الروايات أنّ الدعاء من القدر، وبه يندفع ما ربّما يورد: أنّ الحاجة المدعوّ عليها إمّا مقدّرة الوقوع أو مقدّرة اللاوقوع، وعلى كلا التقديرين لا فائدة في الدعاء، هذا.

ووجه الاندفاع ظاهر، فهو كقول من يقول: إنّ احتراق الحطب مثلاً إمّا مقدّر الوقوع أو مقدّر اللاوقوع، وعلى كلا التقديرين لا حاجة إلى التوسّل بالنار ولا فائدة فيها.

وفي *البحار* عن النبيّ ـ صلّى الله عليه وآله وسلّم ـ: «لا يردّ القضاء إلّا الدعاء».[1]

وعن الصادق ـ عليه السلام ـ: «الدعاء يردّ القضاء بعد ما أُبرم إبراماً».[2]

وعن أبي الحسن موسى ـ عليه السلام ـ: «عليكم بالدعاء؛ فإنّ الدعاء والطلب إلى الله ـ عزّ وجلّ ـ يردّ البلاء وقد قدِّر وقضي فلم يبق إلّا إمضاؤه، فإذا دُعي الله وسئل صرف البلاء صرفاً».[3]

وعن الصادق ـ عليه السلام ـ: «إنّ الدعاء يردّ القضاء المبرم وقد[4] أُبرم إبراماً، فأكثر من الدعاء؛ فإنّه مفتاح كلّ رحمة ونجاح كلّ حاجة، ولا ينال ما عند الله إلّا بالدّعاء؛ فإنّه ليس من باب يكثر قرعه إلّا أوشك أن يفتح لصاحبه».[5]

وعن إسماعيل بن همام عن أبي الحسن ـ عليه السلام ـ: «دعوة العبد سرّاً

---

١. *بحار الأنوار* ٩٠: ٢٩٦.
٢. *بحار الأنوار* ٩٠: ٢٩٥.
٣. *بحار الأنوار* ٩٠: ٢٩٦.
٤. في المصدر: «بعد ما»
٥. *بحار الأنوار* ٩٠: ٢٩٩، الحديث: ٣٣.

دعوة واحدة، تعدل سبعين دعوة علانيّة». [١]

وفي المكارم عن الصادق ـعليه السلام ـ: «لا يزال الدعاء محجوباً حتّى يصلّي على محمّد وآل محمّد». [٢]

وعنه ـعليه السلام ـ: «من قدّم أربعين من المؤمنين ثمّ دعا استجيب له». [٣]

وعنه ـعليه السلام ـ وقد قال رجل من أصحابه: «إنّي أجد آيتين في كتاب الله [٤] أطلبهما فلا أجدهما، قال: فقال ـعليه السلام ـ: وما هما؟ قلت: ﴿ٱدْعُونِى أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ [٥] فندعوه فلا نرى إجابة، قال: أ فترى الله أخلف وعده؟ قلت: لا، قال: فمه؟ قلت: لا أدري، قال: لكنّي أُخبرك: من أطاع الله فيما أمر به ثمّ دعاه من جهة الدعاء أجابه، قلت: وما جهة الدعاء؟ قال: تبدأ فتحمد الله وتمجّده، وتذكر نعمه عليك، فتشكره، ثمّ تصلّي على محمّد وآله، [٦] ثمّ تذكر ذنوبك فتقرّ بها، ثمّ تستغفر منها، فهذه جهة الدعاء.

ثم قال: وما الآية الأُخرى؟ قلت: ﴿وَمَا أَنفَقْتُم مِّن شَىْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ﴾ [٧] وأراني أُنفق ولا أرى خلفاً، قال: أفترى الله أخلف وعده؟ قلت: لا، قال: فمه؟ قلت: لا أدري. قال: لو أنّ أحدكم اكتسب المال من حِلّه، وأنفق في حقّه، لم ينفق درهماً إلّا أخلف الله عليه». [٨]

---

١. بحار الأنوار ٩٠: ٣٤٠.
٢. مكارم الأخلاق: ٢٧٤.
٣. مكارم الأخلاق: ٢٧٦.
٤. في المصدر: «كتاب الله آيتين»
٥. غافر (٤٠): ٦٠.
٦. في المصدر: «على النبيّ (ص)»
٧. سبأ (٣٤): ٣٩.
٨. مكارم الأخلاق: ٢٧٦.

أقول: والوجه في هذه الأحاديث وأشباهها الواردة في الآداب ظاهر، فهي أُمور تقرّب العبد من حقيقة الدعاء، وقد عرفت ما هو حقيقته من مطاوي ما تقدّم، وهي إعلام الداعي وجه حاجته للمدعوّ، وإذا كان الله سبحانه عالماً بحقائق الاحتياجات ـ غير ممكن في حقّه الإعلام المستلزم للجهل السابق ـ فالدعاء له قيام الممكن في مقام الحاجة إلى رحمته الواسعة.

وبذلك ظهر: أنّ الدعاء يعمّ الواقعيّات التكوينيّة وغيرها، وكذلك الإجابة، فكلّ اقتضاء ذاتي للممكن دعاء، وكلّ إفاضة من الحقّ سبحانه إجابة، كما يشير إليه قوله: ﴿يَسْأَلُهُ مَنْ فِي ٱلسَّمَاوَاتِ وَٱلْأَرْضِ﴾[١] وقوله تعالى: ﴿وَآتَاكُم مِنْ كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ﴾.[٢]

وبذلك يظهر: أنّ العبادة ـ وهي كما عرفت قيام المملوك أمام مالكه في مقام المملوكيّة ـ دعاء، كما يشير إليه قوله: ﴿ٱدْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾[٣] وقوله سبحانه: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾[٤] إذا ضمّ إلى قوله: ﴿قُلْ مَا يَعْبَأُ بِكُمْ رَبِّي لَوْلَا دُعَاؤُكُمْ﴾.[٥]

وقد ظهر بذلك أيضاً: أنّ الدعاء والعبادة متلازمان من حيث الصدق، وقد مرّت إليه إشارة.

هذا جملة القول في الدعاء، والروايات في المضامين السابقة كثيرة إلى الغاية، وقد أوردنا من كلّ باب أُنموذجه، والله الهادي.

---

١. الرحمن (٥٥): ٢٩.
٢. ابراهيم (١٤): ٣٤.
٣. غافر (٤٠): ٦٠.
٤. الذاريات (٥١): ٥٦.
٥. الفرقان (٢٥): ٧٧.

قوله سبحانه: ﴿فَلْيَسْتَجِيبُوا لِى وَلْيُؤْمِنُوا بِى لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾
حيث أطلق تعالى قوله: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى﴾ ولم يأخذ أكثر من قيد العبوديّة في جانب السائل، كان معناه: أنّ السؤال لغرض قضاء ما على العبد من حقّ الربّ من حيث إنّه عبد، وإن كان في الواقع لا حيثيّة له غير العبوديّة، ثمّ أطلق تعريفه نفسه بـ﴿فَإِنِّى قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾ أفاد ذلك: أنّ العبوديّة -التي هي تمام ما للعبد- نسبة بينه وبين ربّه قائمة بين طرفين، أحدهما الدعاء، والآخر: الإجابة والإيتاء، وكان أساس ذلك التعلّق به والاعتصام بحبل رحمته تعالى؛ فلذلك فرّع على ذلك قوله: ﴿فَلْيَسْتَجِيبُوا لِى وَلْيُؤْمِنُوا بِى﴾ أي ليُقبلوا إليّ ويوقنوا أنّي القريب المجيب على الإطلاق ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾ ويهتدون إلى ما عندي.

وفي *تفسير العيّاشي*، عن الصادق -عليه السلام- في قوله: ﴿فَلْيَسْتَجِيبُوا لِى وَلْيُؤْمِنُوا بِى﴾: «يعلمون أنّي أقدر أن أُعطيهم ما يسألوني».[١]

وفي *المجمع* قال: وروي عن أبي عبدالله -عليه السلام- أنّه قال: «﴿وَلْيُؤْمِنُوا بِى﴾ أي وليتحقّقوا؛ أنّي قادر على إعطائهم ما سألوه ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾ أي لعلّهم يصيبون الحقّ؛ أي يهتدون إليه».[٢]

أقول: وقد اتّضح معنى الروايتين آنفاً.

قوله سبحانه: ﴿أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ ٱلصِّيَامِ ٱلرَّفَثُ﴾ -إلى قوله-: ﴿إِلَى ٱلَّيْلِ﴾
الرفث: هو التصريح بما يكنّى عنه لقبحه، ولكون الجماع لا يخلو عنه غالباً

---

١. *تفسير العياشي* ١: ٨٣، الحديث: ١٩٦.
٢. مجمع *البيان* ٢: ١٨.

سمّي به، وتعديته بـ«إلى» لتضمين معنى الإفضاء.

وقوله: ﴿هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ﴾

في مقام التعليل لحلّيّة الرفث؛ فانّ اللباس هو اللازم للتستّر، وأمّا التستّر عن نفس اللباس فغير لازم.

وقوله: ﴿فَالْآنَ بَاشِرُوهُنَّ وَابْتَغُوا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ﴾

ليس تكليفاً بأن ينوي ذلك بالرفث، بل عطف تفسير وجري على ما يقتضيه الأدب الجاري في كلامه سبحانه، فالتناسل والتوالد هو المكتوب للإنسان بالمباشرة وإن لم يقصده بها، على حدّ سائر الحقائق التي سخّر الله ـ عزّ وجلّ ـ الإنسان واستخدمه بأنواع من الزينة زيّنها بها، كالتلذّذ من مستلذّات المطاعم والمشارب والمساكن والملابس، هذا.

وهذه الكلمة في مقام الإصلاح لقوله: ﴿بَاشِرُوهُنَّ﴾ فافهم ذلك.

وفي *تفسير القمّي* عن الصادق ـ عليه السلام ـ: «كان الأكل والنكاح محرّمين[1] في شهر رمضان بالليل بعد النوم، يعني كلّ من صلّى العشاء ونام ولم يفطر ثمّ انتبه حرم عليه الإفطار، وكان النكاح حراماً في الليل والنهار في شهر رمضان، وكان رجل من أصحاب رسول الله ـ صلّى الله عليه وآله وسلّم ـ يقال له: خوّات بن جبير الأنصاري أخو عبدالله بن جبير الذي كان رسول الله ـ صلّى الله عليه وآله وسلّم ـ وكّله بفم الشّعب يوم أُحد في خمسين من الرماة، ففارقه أصحابه وبقي في اثني عشر رجلاً، فقتل على باب الشعب، وكان أخوه هذا

---

١. في المصدر: «النكاح والأكل محرّمان»

خوّات بن جبير شيخاً كبيراً ضعيفاً، وكان صائماً مع رسول الله في الخندق، فجاء إلى أهله حين أمسى، فقال: عندكم طعام؟ فقالوا: لا تنم[١] حتّى نصنع لك طعاماً، فأبطأت عليه أهله بالطعام، فنام قبل أن يفطر، فلمّا انتبه قال لأهله: قد حرم عليّ الأكل في هذه الليلة، فلمّا أصبح حضر حفر الخندق، فأُغمي عليه، فرآه رسول الله فرَقَّ له، وكان قوم من الشبّان[٢] ينكحون بالليل سرّاً في شهر رمضان، فأنزل الله: ﴿أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ ٱلصِّيَامِ ٱلرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَائِكُمْ﴾ فأحلّ الله تبارك وتعالى النكاح بالليل من شهر رمضان، والأكل بعد النوم إلى طلوع الفجر، بقوله: ﴿حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ ٱلْخَيْطُ ٱلْأَبْيَضُ مِنَ ٱلْخَيْطِ ٱلْأَسْوَدِ مِنَ ٱلْفَجْرِ﴾ قال: هو بياض النهار من سواد الليل».[٣]

أقول: وقوله: «يعني ـ إلى قوله: ـ وكان رجل...» إلى آخره، من كلام الراوي، وهذا المعنى مرويّ بروايات أُخرى رواها الكليني والعيّاشي وغيرهم.[٤]

*

١. في المصدر: «لا نم»

٢. في المصدر: «الشباب»

٣. *تفسير القمّي* ١: ٦٦.

٤. *الكافي* ٤: ٩٨، الحديث: ٤؛ *تفسير العياشي* ١: ٨٣، الحديث: ١٩٧؛ *تهذيب الأحكام* ٤: ١٨٤، الحديث: ١.

[وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ وَتُدْلُوا بِهَا إِلَى ٱلْحُكَّامِ لِتَأْكُلُوا فَرِيقاً مِنْ أَمْوَالِ ٱلنَّاسِ بِالْإِثْمِ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٨٨﴾ يَسْأَلُونَكَ عَنِ ٱلْأَهِلَّةِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَٱلْحَجِّ وَلَيْسَ ٱلْبِرُّ بِأَنْ تَأْتُوا ٱلْبُيُوتَ مِنْ ظُهُورِهَا وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنِ ٱتَّقَىٰ وَأْتُوا ٱلْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا وَٱتَّقُوا ٱللهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٨٩﴾]

قوله سبحانه: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ...﴾

في *الكافي* عن الصادق ـ عليه السلام ـ في الآية: «كانت[1] تقامر الرجل بأهله، وماله، فنهاهم الله عن ذلك»[2] وفيه عن أبي جعفر ـ عليه السلام ـ، قال: «قلت لأبي عبد الله ـ عليه السلام ـ: قول الله ـ عزّ وجلّ ـ في كتابه: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ وَتُدْلُوا بِهَا إِلَى ٱلْحُكَّامِ﴾ فقال: يا أبا بصير، إنّ الله ـ عزّ وجلّ ـ قد علم أنّ في الأمّة حكّاماً يجورون، أما أنّه لم يعنِ حكّام أهل العدل، ولكنّه عنى حكّام أهل الجور.

---

١. في المصدر: + «قريش»

٢. *الكافي* ٥: ١٢٢، الحديث: ١.

يا أبامحمّد، لو كان على رجل حقّ فدعوته إلى حكّام أهل العدل، فأبى عليك إلّا أن يرافعك إلى حكّام أهل الجور ليقضوا له، لكان ممّن يحاكم[١] إلى الطاغوت، وهو قول الله ـعزّ وجلّـ: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَنْ يَتَحَاكَمُوا إِلَى ٱلطَّاغُوتِ﴾[٢]».[٣]

وفي *المجمع* قال: «روي عن أبي جعفر ـعليه السلامـ: يعني بالباطل اليمين الكاذبة يقطع بها الأموال».[٤]

أقول: وهذه مصاديق والآية مطلقة.

قوله سبحانه: ﴿قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ...﴾

في *التهذيب* عن الصادق ـعليه السلامـ في الآية، قال: «لصومهم وفطرهم وحجّهم».[٥]

أقول: وعليه روايات أُخر.

قوله سبحانه: ﴿لَيْسَ ٱلْبِرُّ بِأَنْ تَأْتُوا ٱلْبُيُوتَ مِنْ ظُهُورِهَا...﴾

قيل: إنّ ناساً من الأنصار كانوا إذا أحرموا، لم يدخل أحد منهم حائطاً ولا داراً ولا فسطاطاً، فإذا كان من أهل المدن، نقب من ظهر داره نقباً منه يدخل ويخرج، وإذا كان من أهل الوبر خرج من خلف الخباء، فنزلت.

---

١. في المصدر: «حاكم»

٢. النساء (٤): ٦٠.

٣. *الكافي* ٧: ٤١١، الحديث: ١.

٤. مجمع *البيان* ٢: ٢٥.

٥. تهذيب *الأحكام* ٤: ١٦٦، الحديث: ٤٤.

وروى البرقي عن الباقر ـ عليه السلام ـ في قوله: ﴿وَأْتُوا ٱلْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا﴾ قال: «يعني أن يأتي الأمر من وجهه، أيّ الأُمور كان».[1]

وفي *الكافي* عن الصادق ـ عليه السلام ـ: «الأوصياء هم أبواب الله التي يؤتى منها، ولولاهم ما عرف الله ـ عزّ وجلّ ـ، وبهم احتجّ الله تبارك وتعالى على خلقه».[2]

أقول: الرواية بيان مصداق للآية بالمعنى الذي فسرت به في الرواية الأُولى، وقوله ـ عليه السّلام ـ: «لولاهم ما عرف الله» إلى آخره، يعني البيان الحقّ والدعوة التامّة اللذين معهم ـ عليهم السَّلام ـ، وله معنى آخر أدقّ، سيجيء الإشارة إليه، والروايات في معنى الروايتين كثيرة.

*

١. *المحاسن* ١: ٢٢٤، الحديث: ١٤٢.
٢. *الكافي* ١: ١٩٣، الحديث: ٢.

[وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ ٱللهِ ٱلَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ ٱللهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿١٩٠﴾ وَٱقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُمْ مِنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ وَٱلْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ ٱلْقَتْلِ وَلَا تُقَاتِلُوهُمْ عِنْدَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ حَتَّىٰ يُقَاتِلُوكُمْ فِيهِ فَإِنْ قَاتَلُوكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ كَذٰلِكَ جَزَاءُ ٱلْكَافِرِينَ ﴿١٩١﴾ فَإِنِ ٱنْتَهَوْا فَإِنَّ ٱللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١٩٢﴾ وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ لِلّٰهِ فَإِنِ ٱنْتَهَوْا فَلَا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَى ٱلظَّالِمِينَ ﴿١٩٣﴾ ٱلشَّهْرُ ٱلْحَرَامُ بِالشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ وَٱلْحُرُمَاتُ قِصَاصٌ فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ وَٱتَّقُوا ٱللهَ وَٱعْلَمُوا أَنَّ ٱللهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿١٩٤﴾]

قوله سبحانه: ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ...﴾

في *المجمع*: أي شرك. قال: وهو المرويّ عن أبي جعفر ـ عليه السلام ـ [١]

أقول: وتصديقه قوله سبحانه بعده: ﴿وَيَكُونَ ٱلدِّينُ لِلّٰهِ﴾.

وما روي في قوله تعالى: ﴿فَلَا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَى ٱلظَّالِمِينَ﴾: «إنّهم أولاد

١. مجمع *البيان* ٢: ٣١.

قتلة الحسين ـ عليه السلام ـ؛ لرضاهم بفعال آبائهم»[١] فمن الجري.

قوله سبحانه: ﴿ٱلشَّهْرُ ٱلْحَرَامُ بِالشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ...﴾

في *تفسير العيّاشي* عن العلاء بن الفضيل قال: «سألته عن المشركين أيبتدئهم[٢] المسلمون بالقتال في الشهر الحرام؛ قال: إذا كان المشركون ابتدأوهم باستحلالهم رأي المسلمون بما[٣] أنّهم يظهرون عليهم فيه، وذلك قوله: ﴿ٱلشَّهْرُ ٱلْحَرَامُ بِالشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ وَٱلْحُرُمَاتُ قِصَاصٌ﴾».[٤]

وفي *الكافي* عن معاوية بن عمّار قال: «سألت أبا عبد الله ـ عليه السلام ـ عن رجل قتل رجلاً في الحلّ ثمّ دخل الحرم، فقال: لا يقتل ولا يطعم ولا يسقى ولا يبايع حتّى يخرج من الحرم، فيقام عليه الحدّ. قال: قلت: فما تقول في رجل قتل في الحرم أو سرق؟ قال ـ عليه السلام ـ: يقام عليه الحدّ في الحرم؛ لأنّه لم ير للحرم حرمة، وقد قال الله ـ عزّ وجلّ ـ ﴿فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ﴾ فقال: هذا هو في الحرم، فقال: ﴿فَلَا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَى ٱلظَّالِمِينَ﴾».[٥]

*

١. *كامل الزيارات*: ٦٤، الحديث: ٥ و ٦.

٢. في المصدر: «ايبتدى بهم»

٣. في المصدر: ـ «بما»

٤. *تفسير العيّاشي* ١: ٨٦، الحديث: ٢١٥.

٥. *الكافي* ٤: ٢٢٧، الحديث: ٤.

[وَأَنْفِقُوا فِى سَبِيلِ ٱللهِ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى ٱلتَّهْلُكَةِ وَأَحْسِنُوا إِنَّ ٱللهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٩٥﴾ وَأَتِمُّوا ٱلْحَجَّ وَٱلْعُمْرَةَ لِلهِ فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ فَمَا ٱسْتَيْسَرَ مِنَ ٱلْهَدْىِ وَلَا تَحْلِقُوا رُؤُوسَكُمْ حَتَّىٰ يَبْلُغَ ٱلْهَدْيُ مَحِلَّهُ فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضاً أَوْ بِهِ أَذىً مِنْ رَأْسِهِ فَفِدْيَةٌ مِنْ صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ فَإِذَا أَمِنْتُمْ فَمَنْ تَمَتَّعَ بِالْعُمْرَةِ إِلَى ٱلْحَجِّ فَمَا ٱسْتَيْسَرَ مِنَ ٱلْهَدْيِ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ فِى ٱلْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ ذٰلِكَ لِمَن لَمْ يَكُنْ أَهْلُهُ حَاضِرِى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَٱتَّقُوا ٱللهَ وَٱعْلَمُوا أَنَّ ٱللهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿١٩٦﴾]

قوله سبحانه: ﴿وَأَنْفِقُوا فِي سَبِيلِ ٱللهِ وَلَا تُلْقُوا...﴾

في *الكافي* عن الصادق ـ عليه السلام ـ قال: «لو أنّ رجلاً أنفق ما في يديه في سبيل الله ما كان أحسن ولا وفّق، أليس الله يقول: ﴿وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى ٱلتَّهْلُكَةِ وَأَحْسِنُوا إِنَّ ٱللهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ يعني المقتصدين؟!».[1]

---

١. *الكافي* ٤: ٥٣، الحديث: ٧.

أقول: وجه استفادته من الآية ظاهر، وليس من قبيل التقييد لإطلاق قوله: **﴿وَلَا تُلْقُوا﴾**.

وروى الصدوق عن ثابت بن أنس قال: «قال رسول الله ـ صلّى الله عليه وآله وسلّم ـ: طاعة السلطان واجبة، ومن ترك طاعة السلطان فقد ترك طاعة الله ودخل في نهيه، يقول الله[1]: **﴿وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ﴾**».[2]

قوله سبحانه: **﴿وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ﴾**

في *التهذيب* و*تفسير العيّاشي* عن الصادق ـ عليه السلام ـ في الآية، قال: «هما مفروضان».[3]

وفي *تفسير العيّاشي* عن زرارة وحمران ومحمّد بن مسلم، عن أبي جعفر وأبي عبدالله ـ عليهما السلام ـ قالوا: «سألناهما عن قوله: **﴿وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ﴾** قالا ـ عليهما السلام ـ: فإنّ تمام الحجّ أن لا يرفث ولا يفسق ولا يجادل».[4]

وفي *الكافي* عن الصادق ـ عليه السلام ـ في حديث قال: «يعني بتمامهما: أداءهما واتّقاء ما يتّقي المحرم فيهما».[5]

أقول: ظاهر الأمر بالإتمام هو الوجوب، والإتمام إذا عدّي بالباء يُعنى به تكميل بعض الأجزاء ببعض، وإذا جرّد عن الباء يُعنى به إتيان العمل على ما هو

---

١. في المصدر: «أنّ الله عزّ وجلّ يقول»

٢. *الأمالي* للصدوق: ٣٣٧، الحديث: ٢٠.

٣. تهذيب الأحكام ٥: ٤٥٩، الحديث: ٢٣٩؛ *تفسير العيّاشي* ١: ٨٨، الحديث: ٢٢٤.

٤. *تفسير العيّاشي* ١: ٨٨، الحديث: ٢٢٥.

٥. *الكافي* ٤: ٢٦٤، الحديث: ١.

عليه من شرط وجزء، كما فسّر كذلك في روايتي *العيّاشي* و*الكافي*، والروايات في هذه الأبواب متكاثرة اكتفينا منها بالأُنموذج من كلّ صنف.

قوله سبحانه: ﴿فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ فَمَا ٱسْتَيْسَرَ مِنَ ٱلْهَدْيِ﴾
الإحصار: المنع، ويسر واستيسر بمعنى، والهَدي: جمع الهَدْية، وسيجيء بعض ما في هذا المعنى من الروايات.

قوله سبحانه: ﴿فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضاً أَوْ بِهِ أَذىً مِنْ رَأْسِهِ...﴾
في تفسير *العيّاشي* عن الصادق ـ عليه السلام ـ في الآية، قال: «مرّ رسول الله ـ صلّى الله عليه وآله وسلّم ـ: على كعب بن عجرة والقمّل تتناثر من رأسه وهو مُحرم، فقال له: أتؤذيك هوامّك؟ قال: نعم. فأنزل الله هذه الآية: ﴿فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضاً أَوْ بِهِ أَذىً مِنْ رَأْسِهِ فَفِدْيَةٌ مِنْ صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ﴾ فأمره رسول الله أن يحلق رأسه، وجعل الصيام ثلاثة أيّام، والصدقة على ستّة مساكين مُدَّين لكلّ مسكين، والنسك شاة.

قال: وقال أبو عبدالله ـ عليه السلام ـ: كلّ شيء من القرآن ﴿أَوْ﴾ فصاحبه بالخيار يختار ما شاء، وكلّ شيء في القرآن ﴿فَإِنْ لَمْ يَجِدْ﴾ فعليه ذلك».[1]

أقول: وروى الشيخ في *التهذيب* مثله، وفي هذه المعاني أخبار أُخر.[2]

قوله سبحانه: ﴿فَمَنْ تَمَتَّعَ بِالْعُمْرَةِ إِلَى ٱلْحَجِّ...﴾

---

١. تفسير *العياشي* ١: ٩٠، الحديث: ٢٣١.
٢. تهذيب الأحكام ٥: ٣٣٣، الحديث: ٦٠؛ *الكافي* ٤: ٨٣، الحديث: ١، باب وجوب الصوم؛ من لا يحضره *الفقيه* ٢: ٣٥٨، الحديث، ٣٦٩٧.

في *تفسير العيّاشي* عن الصادق -عليه السلام-: «خرج رسول الله حين حجّ حجّة الوداع، خرج في أربع بقين من ذي القعدة، حتّى أتى الشجرة فصلّى، ثمّ قاد راحلته حتّى أتى البيداء، فأحرم منها وأهلّ بالحجّ وساق مائة بدنة، وأحرم الناس كلّهم بالحجّ، لا يريدون عمرة ولا يدرون ما المتعة؛ حتّى إذا قدم رسول الله مكّة طاف بالبيت وطاف الناس معه، ثمّ صلّى عند مقام إبراهيم فاستلم الحجر، ثمّ قال: أبدأُ بما بدأ الله، ثمّ أتى الصفا فبدأ بها، ثمّ طاف بين الصفا والمروة، فلمّا قضى طوافه ختم بالمروة قام يخطب أصحابه، وأمرهم أن يحلّوا ويجعلوها عمرة، وهي شيء أمر الله به، فأحلّ الناس.

وقال رسول الله: لو كنت استقبلت من أمري ما استدبرت لفعلت ما أمرتكم، ولم يكن يستطيع أن يحلّ من أجل الهدي الذي معه لأنّ الله يقول: **﴿وَلَا تَحْلِقُوا رُؤُوسَكُمْ حَتَّىٰ يَبْلُغَ ٱلْهَدْىُ مَحِلَّهُ﴾** فقال سراقة بن جشعم الكناني: يا رسول الله! علمنا[1] ديننا كما خلقنا اليوم، أرايت لهذا الذي أمرتنا به ألعامنا هذا أو لكلّ عام؟! فقال رسول الله: لا، بل للأبد الأبد».[2]

وفي *التهذيب* عن الصادق -عليه السلام- قال: «دخلت العمرة في الحجّ إلى يوم القيامة **﴿فَمَنْ تَمَتَّعَ بِالْعُمْرَةِ إِلَى الْحَجِّ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ﴾** فليس لأحد إلّا أن يتمتّع لأنّ الله أنزل ذلك في كتابه، وجرت به السنّة من رسول الله».[3]

وفي *الكافي* عن الصادق -عليه السلام- في قوله تعالى: **﴿فَمَا ٱسْتَيْسَرَ مِنَ ٱلْهَدْىِ﴾**: «شاة».[4]

---

١. في المصدر: «علمتنا»

٢. تفسير *العيّاشي* ١: ٨٩-٩٠، الحديث: ٢٢٩-٢٣٠.

٣. تهذيب الأحكام ٥: ٢٥، الحديث: ٤.

٤. *الكافي* ٤: ٤٨٧، الحديث: ١.

وعنه أيضاً في المتمتّع لا يجد الشاة،[١] قال: «يصوم قبل التروية بيوم ويوم التروية ويوم عرفة. قيل[٢]: فإنّه قد قدم يوم التروية قال: يصوم ثلاثة أيّام بعد التشريق. قيل[٣]: لم يقم عليه جمّاله، قال: يصوم يوم الحصبة وبعده يومين. قيل[٤]: وما الحصبة؟ قال: يوم نفره. قيل: يصوم وهو مسافر؟ قال: نعم، أليس هو يوم عرفة مسافراً؟! إنّا أهل بيت نقول ذلك، يقول الله تعالى[٥]: ﴿فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ فِي ٱلْحَجِّ﴾ يقول: في ذي الحجّة».[٦]

وروى الشيخ عن الصادق ـ عليه السلام ـ قال: «ما دون المواقيت إلى مكّة فهو ﴿حَاضِرِي الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ وليس له[٧] متعة».[٨]

أقول: والروايات في هذه المعاني كثيرة.[٩]

*

---

١. في المصدر: «الهدي»

٢. في المصدر: «قلت»

٣. في المصدر: «قلت»

٤. في المصدر: «قال قلت»

٥. في المصدر: «لقول الله عزّ وجلّ»

٦. *الكافي* ٤: ٥٠٦، الحديث: ١.

٧. في المصدر: «لهم»

٨. *تهذيب الاحكام* ٥: ٣٣، الحديث: ٢٨.

٩. *الاستبصار* ٢: ١٥٨، الحديث: ٤؛ *تفسير العياشي* ١: ٩٤، الحديث: ٢٤٨؛ *دعائم الاسلام* ١: ٣٣٥.

[ٱلْحَجُّ أَشْهُرٌ مَعْلُومَاتٌ فَمَنْ فَرَضَ فِيهِنَّ ٱلْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي ٱلْحَجِّ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ ٱللَّهُ وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰ وَٱتَّقُونِ يَا أُولِي ٱلْأَلْبَابِ ﴿١٩٧﴾ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَبْتَغُوا فَضْلاً مِنْ رَبِّكُمْ فَإِذَا أَفَضْتُمْ مِنْ عَرَفَاتٍ فَاذْكُرُوا ٱللَّهَ عِنْدَ ٱلْمَشْعَرِ ٱلْحَرَامِ وَٱذْكُرُوهُ كَمَا هَدَاكُمْ وَإِنْ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنَ ٱلضَّالِّينَ ﴿١٩٨﴾ ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ ٱلنَّاسُ وَٱسْتَغْفِرُوا ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١٩٩﴾]

قوله سبحانه: ﴿ٱلْحَجُّ أَشْهُرٌ مَعْلُومَاتٌ...﴾

في *الكافي* عن الباقر ـ عليه السلام ـ قال: «﴿ٱلْحَجُّ أَشْهُرٌ مَعْلُومَاتٌ﴾ شوّال، وذوالقعدة، وذو الحجّة، ليس لأحدٍ أن يحجّ فيما سواهنّ».[1]

وعنه عن الصادق ـ عليه السلام ـ: «الفرض: التلبية والإشعار والتقليد، فأيّ ذلك فعل فقد فرض الحج».[2]

---

١. *الكافي* ٤: ٢٨٩، الحديث: ١.
٢. *الكافي* ٤: ٢٨٩، الحديث: ٢.

وعنه ـ عليه السلام ـ: «الرفث: الجماع، والفسوق: الكذب والسباب، والجدال: قول الرجل: لا والله وبلى والله».[١]

أقول: والأخبار في هذه المعاني كثيرة.[٢]

قوله سبحانه: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَبْتَغُوا فَضْلاً مِنْ رَبِّكُمْ﴾

في *تفسير العيّاشي* عن الصادق ـ عليه السلام ـ: «يعني الرزق، فإذا أحلّ الرجل من إحرامه وقضى [نسكه] فليشتر وليبع في الموسم».[٣]

أقول: يقال: إنّهم كانوا يتأثّمون بالتجارة في الحجّ، فرفع الله ذلك بهذه الآية.

وفي *المجمع*: وقيل: معناه: لا جناح عليكم أن تطلبوا المغفرة من ربّكم، وهو المروي عن أبي جعفر ـ عليه السلام ـ.[٤]

قوله سبحانه: ﴿ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ ٱلنَّاسُ﴾

في *تفسير العيّاشي* عن الصادق ـ عليه السلام ـ قال: «إنّ أهل الحرم كانوا [يقفون] على المشعر الحرام، ويقف الناس بعرفة، ولا يفيضون حتّى يطلع عليهم أهل عرفة، وكان رجل يكنّى أبا سيّار وكان له حمار فاره، وكان يسبق أهل عرفة، فإذا طلع عليهم قالوا: هذا أبو سيّار، ثمّ أفاضوا، فأمرهم الله أن يقفوا بعرفة وأن يفيضوا منه».[٥]

أقول: وهذا المعنى مرويّ في روايات أُخر.

---

١. *الكافي* ٤: ٣٣٧، الحديث: ٣.

٢. *تهذيب الأحكام* ٥: ٢٩٦، الحديث: ١؛ من لا يحضره *الفقيه* ٢: ٤٥٦، الحديث: ٢٩٥٩؛ *تفسير العيّاشي* ١: ٩٤، الحديث: ٢٥٢؛ *تفسير القمّي* ١: ٦٨.

٣. تفسير *العياشي* ١: ٩٦، الحديث: ٢٦٢.

٤. مجمع *البيان* ٢: ٤٧.

٥. تفسير *العياشي* ١: ٩٧، الحديث: ٢٦٤.

فهرس مصادر التحقيق

١. *الاحتجاج*، أبو منصور أحمد بن علي الطبرسي، نشر المرتضى، مشهد ـ إيران، ١٤٠٣ هجري قمري، المجلدات: ١.

٢. *الاختصاص*، الشيخ المفيد، من منشورات المؤتمر العالمي للشيخ المفيد، قم ـ إيران، ١٤١٣ هجري قمري، المجلدات: ١.

٣. *أسباب نزول الآيات*، أبو الحسن علي بن أحمد الواحدي النيسابوري (المتوفى سنة ٤٦٨ هجري قمري)، مؤسسة الحلبي وشركاه، القاهرة ـ مصر، ١٣٨٨ هجري قمري، المجلدات: ١.

٤. *الاستبصار*، الشيخ الطوسي، دار الكتب الإسلامية، طهران ـ إيران، ١٣٩٠ هجري قمري، المجلدات: ٤.

٥. *أُسد الغابة*، ابن الأثير (المتوفى سنة ٦٣٠ هجري قمري)، الناشر اسماعيليان، طهران ـ إيران، المجلدات: ١٠.

٦. *الأربعين*، الشيخ الماحوزي (المتوفى سنة ١١٢١ هجري قمري)، تحقيق السيد مهدي رجائي، الطبعة الأُولى ١٤١٧ هجري قمري،الناشر: المحقق، المجلدات: ١.

٧. *الإرشاد*، الشيخ المفيد، من منشورات المؤتمر العالمي للشيخ المفيد، قم ـ إيران، ١٤١٣ هجري قمري، المجلدات: ٢.

٨. *إرشاد القلوب*، حسن بن أبي الحسن الديلمي، منشورات الشريف الرضي، ١٤١٢ هجري قمري، الجزاء: ٢ ـ في مجلد واحد ـ.

٩. *الأصفى في تفسير القرآن*، محسن الفيض الكاشاني (المتوفى سنة ١٠٩١ هجري قمري)، تحقيق مركز الابحاث والدراسات الإسلامية، الناشر مركز انتشارات دفتر تبليغات اسلامي، الطبعة الأُولى ١٤١٨ هجري قمري، المجلدات: ٨.

١٠. *الإعلام*، الشيخ المفيد، من منشورات المؤتمر العالمي للشيخ المفيد، قم ـ إيران، ١٤١٣ هجري قمري، المجلدات: ١.

١١. *أعلام الدين*، حسن بن ابي الحسن الديلمي، مؤسسة آل البيت (ع)، قم ـ إيران، ١٤٠٨ هجري قمري، المجلدات: ١.

١٢. *إعلام الورى*، أمين الاسلام الفضل بن حسن الطبرسي، دار الكتب الإسلامية، طهران ـ إيران، المجلدات: ١.

١٣. *الإفصاح في الإمامة*، الشيخ المفيد، من منشورات المؤتمر العالمي للشيخ المفيد، قم ـ إيران، ١٤١٣ هجري قمرى، المجلدات: ١.

١٤. *إقبال الاعمال*، السيد علي بن موسى بن طاوس، دار الكتب الإسلامية، طهران ـ إيران، ١٣٦٧ هجري شمسي،المجلدات: ١.

١٥. *الألفين*، العلامة الحلي حسن بن يوسف، انتشارات دار الهجرة، قم ـ إيران، ١٤٠٩ هجري قمري، المجلدات: ١.

١٦. *الأمالي*، الشيخ الصدوق، مكتبة الاسلامية، ١٣٦٢ هجري شمسي، المجلدات: ١.

١٧. *الأمالي*، الشيخ الطوسي، دارالثقافة، قم ـ إيران، ١٤١٤ هجري قمري، المجلدات: ١.

١٨. *الأمالي*، الشيخ المفيد، من منشورات المؤتمر العالمي للشيخ المفيد، قم ـ إيران، ١٤١٣ هجري قمري، المجلدات: ١.

١٩. *الأمان*، السيد علي بن موسى بن طاوس، مؤسسة آل البيت (ع)، قم ـ إيران، ١٤٠٩ هجري قمري، المجلدات: ١.

٢٠. *الايضاح*، الفضل بن شاذان الازدي النيسابوري، (المتوفى سنة ٢٦٠ هجري قمري)، تحقيق السيد جلال الدين الحسيني الارموي المحدث، المجلدات: ١.

٢١. *بحار الأنوار*، العلامة المجلسي، مؤسسة الوفاء، بيروت ـ لبنان، ١٤٠٤ هجري قمري، المجلدات: ١١٠.

٢٢. *البرهان في تفسير القرآن*، السيد هاشم الحسيني البحراني (المتوفى سنة ١١٠٧ هجري قمري)، الناشر مؤسسة البعثة، الطبعة الأُولى ١٤١٥ هجري قمري، طهران ـ إيران، المجلدات: ٢.

٢٣. *البرهان في علوم القرآن*، بدر الدين محمد بن عبد الله الزركشي، (المتوفى سنة ٧٩٤ هجري قمري)، تحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم، الطبعة الأُولى، ١٣٧٦ هجري قمري، الناشر دار إحياء الكتب العربية، القاهرة ـ مصر، المجلدات: ٤.

٢٤. *بشارة المصطفى*، عماد الدين الطبري، مكتبة الحيدرية، النجف ـ العراق، ١٣٨٣ هجري قمري، المجلدات: ١.

٢٥. *بشارة المصطفى*، عماد الدين أبو جعفر محمد بن أبي القاسم الطبري (المتوفى سنة ٥٢٥ هجري قمري)، تحقيق جواد القيومي الاصفهاني، مؤسسة النشر الإسلامي، قم ـ إيران، الطبعة الأُولى ١٤٢٠ هجري قمري، المجلدات: ١.

٢٦. *بصائر الدرجات*، محمد بن حسن بن فروخ الصفار، مكتبة آية الله المرعشي، قم ـ إيران، ١٤٠٤ هجري قمري، المجلدات: ١.

٢٧. *البلد الأمين*، ابراهيم بن علي العاملي الكفعمي، الطبع الحجري، المجلدات: ١.

٢٨. *تاج العروس من جواهر القاموس*، الزبيدي.

٢٩. *تاريخ المدينة المنورة*، عمر بن شبّة النميري (المتوفى سنة ٢٦٢ هجري قمري)، تحقيق فهيم محمد شلتوت، دار الفكر، بيروت ـ لبنان، المجلدات: ٤.

٣٠. *تأويل الآيات الظاهرة*، السيد شرف الدين الحسيني الاسترابادي، من منشورات جامعة المدرسين، قم ـ إيران، ١٤٠٩ هجري قمري، المجلدات: ١.

٣١. *التبيان في تفسير القرآن*، شيخ الطائفة أبو جعفر محمد بن الحسن الطوسي (المتوفى سنة ٤٦٠ هجري قمري)، تحقيق احمد حبيب قصير العاملي، الناشر مكتب الاعلام الاسلامي، الطبعة الأُولى ١٤٠٩ هجري قمري، المجلدات: ١٠.

٣٢. *التحصين*، السيد علي بن موسى بن طاوس، مؤسسة دار الكتاب، قم ـ إيران، ١٤١٣ هجري قمري، المجلدات: ١.

٣٣. *التحصين*، ابن فهد الحلي، تحقيق ونشر مدرسة الامام المهدي (عج)، قم ـ إيران، ١٤٠٦ هجري قمري، المجلدات: ١.

٣٤. *تحف العقول*، حسن بن شعبة الحرّاني، من منشورات جامعة المدرسين، قم ـ إيران، ١٤٠٤ هجري قمري، المجلدات: ١.

٣٥. *تذكرة الفقهاء*، العلّامة الحلّي (المتوفى سنة ٧٢٦ هجري قمري)، الناشر مكتبة الرضوية لاحياء الآثار الجعفرية، طهران ـ إيران، المجلدات: ٢.

٣٦. *تصحيح الاعتقاد*، الشيخ المفيد، من منشورات المؤتمر العالمي للشيخ المفيد، قم ـ إيران، ١٤١٣ هجري قمري، المجلدات: ١.

٣٧. *تفسير أنوار التنزيل وأسرار التأويل، المعروف بتفسير البيضاوي* ناصر الدين أبو سعيد عبدالله بن عمر بن محمد الشيرازي البيضاوي، مؤسسة الأعلمي، بيروت ـ لبنان، الطبعة الأُولى، ١٤١٠ هجري قمري.

٣٨. *تفسير الامام العسكري (ع)*، منسوب الى الامام الحسن العسكري ـ عليه السلام ـ، مدرسة الامام المهدي (عج)، قم ـ إيران، ١٤٠٩ هجري قمري، المجلدات: ١.

٣٩. تفسير *الثعالبي المسمى بالجواهر الحسان في تفسير القرآن*، عبد الرحمن بن محمد بن مخلوف أبو زيد الثعالبي المالكي (المتوفى سنة ٨٧٥ هجري قمري)، تحقيق الدكتور عبد الفتاح أبو سنة و غيره، دار احياء التراث العربي، الطبعة الأولى ١٤١٨ هجري قمري، المجلدات: ٥.

٤٠. تفسير *الرازي*، فخر الدين بن محمد بن ضياء الدين الرازي، دار الفكر، بيروت ـ لبنان، ١٤١٠ هجري قمري.

٤١. تفسير *الصافي*، محسن الفيض الكاشاني (المتوفى سنة ١٠٩١ هجري قمري)، تحقيق الشيخ حسين الأعلمي، الناشر مكتبة الصدر، طهران ـ إيران، الطبعة الثانية، ١٤١٦ هجري قمري، المجلدات: ٥.

٤٢. تفسير *العياشي*، محمد بن مسعود العياشي، المطبعة العلمية، طهران ـ إيران، ١٣٨٠ هجري قمري، المجلدات: ٢.

٤٣. تفسير *فرات الكوفي*، أبو القاسم فرات بن ابراهيم الكوفي (المتوفى سنة ٣٥٢ هجري قمري)، تحقيق محمد الكاظم، الناشر وزارة الثقافة والارشاد الاسلامي، الطبعة الأولى ١٤١٠ هجري قمري، المجلدات: ١.

٤٤. تفسير *القرآن العظيم*، أبو الفداء إسماعيل بن كثير القرشي الدمشقي (المتوفى سنة ٧٧٤ هجري قمري)، دارالمعرفة، بيروت ـ لبنان، ١٤١٢ هجري قمري، المجلدات: ٤.

٤٥. تفسير *القمّي*، علي بن ابراهيم بن هاشم القمّي، مؤسسة دار الكتاب، قم ـ إيران، ١٤٠٤ هجري قمري، المجلدات: ٢.

٤٦. تفسير *الكاشف*، محمد جواد مغنية (المتوفى سنة ١٤٠٠ هجري قمري)، دار العلم للملايين، بيروت ـ لبنان، الطبعة الثالثة، ١٩٨١ ميلادي، المجلدات: ٧.

٤٧. تفسير *نورالثقلين*، الشيخ عبد علي بن جمعه العروسي الحويزي (المتوفى سنة

١١١٢ هجري قمري)، تحقيق السيد هاشم الرسولي المحلاتي، الناشر مؤسسة اسماعيليان، قم ـ إيران، الطبعة الرابعة، ١٤١٢ هجري قمري، المجلدات: ٥.

٤٨. *تقريب المعارف*، ابو الصلاح الحلبي، من منشورات جامعة المدرسين، قم ـ إيران، ١٤٠٤ هجري قمري، المجلدات: ١.

٤٩. *التمحيص*، محمد بن همام الاسكافي (المتوفى سنة ٣٣٦ هجري قمري)، تحقيق مدرسة الامام المهدي (عج)، الناشر مدرسة الامام المهدي(عج)، قم ـ إيران، المجلدات: ١.

٥٠. *تنزيه الانبياء (ع)*، السيد المرتضى علم الهدى، من منشورات الشريف الرضي، قم ـ إيران، المجلدات: ١.

٥١. *التوحيد*، الشيخ الصدوق، من منشورات جامعة المدرسين، قم ـ إيران، ١٣٩٨ هجري قمري ـ ١٣٥٧ هجري شمسي، المجلدات: ١.

٥٢. *توحيد المفضل*، مفضل بن عمر الجعفي الكوفي، مكتبة الداوري، قم ـ إيران، ١٩٦٩ ميلادي، المجلدات: ١.

٥٣. *تهذيب الاحكام*، الشيخ الطوسي، دار الكتب الإسلامية، طهران ـ ايران، ١٣٦٥ هجري شمسي، المجلدات: ١٠.

٥٤. *ثواب الأعمال*، الشيخ الصدوق، من منشورات الشريف الرضي، قم ـ إيران، ١٣٦٤ هجري شمسي، المجلدات: ١.

٥٥. *جامع الأخبار*، تاج الدين الشعيري، من منشورات الشريف الرضي، قم ـ إيران، ١٣٦٣ هجري شمسي، المجلدات: ١.

٥٦. *جامع البيان عن تأويل آي القرآن، المعروف بـ: تفسير الطبري*، الطبري، (المتوفى سنة ٣١٠ هجري قمري)، تحقيق صدقي جميل العطار، الناشر دار الفكر، بيروت ـ

لبنان، الطبعة الأُولى ١٤١٥ هجري قمري، المجلدات: ٣٠.

٥٧. *جامع الجوامع*، الشيخ أبو علي الفضل بن الحسن الطبري (المتوفى سنة ٥٦٠ هجري قمري)، تحقيق مؤسسة النشر الإسلامي التابعة لجامعة المدرسين، قم ـ إيران، الناشر مؤسسة النشر الإسلامي، الطبعة الأُولى ١٤١٨ هجري قمري، المجلدات: ٢.

٥٨. *الجامع لأحكام القرآن، المعروف بـ: تفسير القرطبي*، أبو عبد الله محمد بن احمد الانصاري القرطبي (المتوفى سنة ٦٧١ هجري قمري)، مؤسسة التاريخ العربي، بيروت ـ لبنان، الطبعة الأُولى ١٤٠٥ هجري قمري، المجلدات: ٢٠.

٥٩. *الجعفريات (الاشعثيات)*، محمد بن محمد بن الاشعث الكوفي، مكتبة نينوى الحديثة، طهران ـ ايران، المجلدات: ١.

٦٠. *جمال الاسبوع*، السيد علي بن موسى بن طاوس، من منشورات الشريف الرضي، قم ـ إيران، المجلدات: ١.

٦١. *الجمل*، الشيخ المفيد، من منشورات المؤتمر العالمي للشيخ المفيد، قم ـ إيران، ١٤١٣ هجري قمري، المجلدات: ١.

٦٢. *الخرائج والجرائح*، قطب الدين الراوندي، تحقيق ونشر مدرسة الامام المهدي (عج)، قم ـ إيران، ١٤٠٩ هجري قمري، المجلدات: ٣.

٦٣. *خصائص الأئمة (ع)*، السيد الرضي، مجمع البحوث التابعة لآستانة القدس الرضوي، ١٤٠٦ هجري قمري، المجلدات: ١.

٦٤. *الخصال*، الشيخ الصدوق، من منشورات جامعة المدرسين، قم ـ إيران، ١٤٠٣ هجري قمري،المجلدات: ٢.

٦٥. *خلاصة الإيجاز*، الشيخ المفيد، من منشورات المؤتمر العالمي للشيخ المفيد، قم ـ إيران، ١٤١٣ هجري قمري، المجلدات: ١.

٦٦. *خلاصة عبقات الأنوار*، السيد حامد الحسيني النقوي، تلخيص الميلاني، (المتوفى سنة ١٣٠٦ هجري قمري)، الناشر مؤسسة البعثة، قم ـ إيران، الطبعة الأُولى ١٤٠٦ هجري قمري، المجلدات: ٩.

٦٧. *الخلاف*، شيخ الطائفة الامام ابو جعفر محمد بن الحسن الطوسي (المتوفى سنة ٤٦٠ هجري قمري)، تحقيق السيد علي الخراساني وغيره، الناشر مؤسسة النشر الإسلامي، قم ـ إيران، الطبعة الأُولى ١٤١٧ هجري قمري، المجلدات: ٦.

٦٨. *دعائم الإسلام*، النعمان بن محمد التميمي المغربي، دار المعارف، القاهرة ـ مصر، ١٣٨٥ هجري قمري، المجلدات: ٢.

٦٩. *الدر المنثور* (وبهامشه القرآن الكريم مع تفسير ابن عباس)، جلال الدين السيوطي (المتوفى سنة ٩١١ هجري قمري)، دار المعرفة، الطبعة الأُولى، ١٣٦٥ هجري قمري، المجلدات: ٦.

٧٠. *الدرة الباهرة من الاصداف الطاهرة*، الشهيد الأول، دار الاعراف للدراسات والنشر، الطبعة الأولى، بيروت ـ لبنان، ١٤١٤ هجري قمري.

٧١. *الدعوات*، قطب الدين الراوندي، تحقيق ونشر مدرسة الامام المهدي (عج)، قم ـ إيران، ١٤٠٧ هجري قمري، المجلدات: ١.

٧٢. *دلائل الإمامة*، محمد بن جرير الطبري، دار الذخائر للمطبوعات، قم ـ إيران، المجلدات: ١.

٧٣. *ربيع الابرار ونصوص الاخبار*، محمود بن عمر الزمخشري، دار الذخائر، ١٤١٠ هجري قمري، قم ـ إيران، مجلدات: ١.

٧٤. *روضة الواعظين*، محمد بن حسن الفتال النيسابوري، من منشورات الشريف الرضي، قم ـ إيران، المجلدات: ١.

٧٥. *سبل السلام* ، محمد بن اسماعيل الكحلاني ثم الصنعاني، المعروف بشرح *بلوغ المرام، من جمع أدلة الاحكام*، للحافظ شهاب الدين أبي الفضل احمد بن علي بن محمد بن حجر الكنابي العسقلاني القاهري (٧٧٣ ـ ٨٥٢ هجري قمري)، الناشر شركة مكتبة ومطبعة المصطفى البابي الحلبي واولاده، القاهرة ـ مصر ـ الطبعة الرابعة ١٣٧٩ هجري قمري، المجلدات: ٤.

٧٦. *السرائر*، ابن ادريس الحلّي (المتوفى سنة ٥٩٨ هجري قمري)، جامعة المدرسين، قم ـ إيران، الطبعة الثانية، ١٤١٠ هجري قمري، المجلدات: ٣.

٧٧. *سعد السعود*، السيد علي بن موسى بن طاوس، دار الذخائر للمطبوعات، قم ـ إيران، المجلدات: ١.

٧٨. *سنن أبي داود*، سليمان بن الأشعث السجستاني (المتوفى سنة ٢٧٥ هجري قمري)، تحقيق سعيد محمد اللحام، الناشر دار الفكر، بيروت ـ لبنان، الطبعة الأُولى ١٤١٠ هجري قمري ـ ١٩٩٠ ميلادي، المجلدات: ٢.

٧٩. *سنن الترمذي*، محمد بن عيسى الترمذي (المتوفى سنة ٢٧٩ هجري قمري)، تحقيق عبد الوهاب عبد اللطيف، الناشر دار الفكر، بيروت ـ لبنان ١٤٠٣ هجري قمري، المجلدات: ٥.

٨٠. *السنن الكبرى*، احمد بن الحسين بن علي البيهقي (المتوفي سنة ٤٥٨ هجري قمري)، دار الفكر، بيروت ـ لبنان، المجلدات: ١٠.

٨١. *السنن الكبرى*، أبو عبد الرحمن أحمد بن شعيب النسائي (المتوفى سنة ٣٠٣ هجري قمري)، تحقيق الدكتور عبد الغفار سليمان البنداري، سيد كسروي حسن، دار الكتب العلمية، بيروت ـ لبنان، الطبعة الأُولى ١٤١١ هجري قمري، ١٩٩١ ميلادي، المجلدات: ٦.

٨٢. شرح *نهج البلاغة*، ابن ابي الحديد المعتزلي، مكتبة آية الله المرعشي، قم ـ إيران، ١٤٠٤ هجري قمري، المجلدات: ٢٠.

٨٣. *شواهد التنزيل لقواعد التفضيل في الآيات النازلة في أهل البيت(ع)*، عبيد الله بن أحمد المعروف بالحاكم الحسكاني، تحقيق شيخ محمد باقر المحمودي، الناشر مجمع إحياء الثقافة الإسلامية، الطبعة الأُولى ١٤١١ هجري قمري، المجلدات: ٢.

٨٤. *الصحاح* ، اسماعيل بن حماد الجوهري (المتوفى سنة ٣٩٣ هجري قمري)، تحقيق أحمد بن عبد الغفور العطار، دار العلم للملايين، بيروت ـ لبنان، الطبعة الرابـعة، ١٤٠٧ هجري قمري، المجلدات: ٦.

٨٥. صحيح *البخاري*، محمد بن إسماعيل البخاري (المتوفى سنة ٢٥٦ هجري قمري)، الناشر دار الفكر، بيروت ـ لبنان، طبعة بالاوفست عن طبعة دار الطباعة العامرة باسطنبول ، ١٤٠١ هجري قمري، المجلدات: ٨.

٨٦. صحيح مسلم، مسلم ابن الحجاج النيسابوري (المتوفى سنة ٢٦١ هجري قمري)، دار الفكر، بيروت ـ لبنان، المجلدات: ٨.

٨٧. صحيح مسلم بشرح *النووي*، النووي (المتوفى سنة ٦٧٦ هجري قمري)، دار الكتاب العربي، بيروت ـ لبنان، الطبعة الثانية ١٤٠٧ هجري قمري، المجلدات: ١٧.

٨٨. *الصحيح من سيرة النبي الأعـظم (ص)*، العلامة السـيد جـعفر مـرتضى العـاملي، دارالهادي، بيروت ـ لبنان، الطبعة الرابعة ١٤١٥ هجري قمري، المجلدات: ١١.

٨٩. صحيفة *الرضا*، الامام علي بن موسى الرضا ـ عليه السلام ـ من منشورات المؤتمر العالمي للامام الرضا (ع)، ١٤٠٦ هجري قمري، المجلدات: ١.

٩٠. *الصحيفة السجادية*، الامام السجاد ـ عليه السلام ـ نشر الهادي، قم ـ إيران، ١٣٧٦ هجري شمسي، المجلدات: ١.

٩١. *الصراط المستقيم*، علي بن يونس النباطي البياضي، مكتبة الحيدرية، النجف ـ العراق ١٣٨٤ هجري قمري، الأجزاء: ٣ ـ في مجلد واحد ـ.

٩٢. *صفات الشيعة*، الشيخ الصدوق، مطبعة الأعلمي، طهران ـ إيران، المجلدات: ١.

٩٣. *الصوارم المهرقة*، القاضي نور الله الشوشتري، مطبعة النهضة، طهران ـ إيران، ١٣٦٧ هجري قمري، المجلدات: ١.

٩٤. *الطرائف*، السيد علي بن موسى بن طاوس، طباعة خيام، قم ـ إيران، ١٤٠٠ هجري قمري، المجلدات: ١.

٩٥. *عدة الداعي*، ابن فهد الحلّي، دار الكتاب الاسلامي، ١٤٠٧ هجري قمري، المجلدات: ١.

٩٦. *علل الشرائع*، الشيخ الصدوق، مكتبة الداوري، قم ـ إيران، المجلدات: ١.

٩٧. *العمدة*، ابن البطريق الأسدي الحلّي (المتوفى ٦٠٠ سنة هجري قمري)، جامعة المدرسين، قم ـ إيران، الطبعة الأُولى ١٤٠٧ هجري قمري، المجلدات: ١.

٩٨. *عوالي اللآلي*، ابن ابي جمهور الإحسائي، الناشر سيد شهداء (ع)، قم ـ إيران، ١٤٠٥ هجري قمري، المجلدات: ٤.

٩٩. *عيون أخبار الرضا(ع)*، الشيخ الصدوق، الناشر جهان، طهران ـ إيران، ١٣٧٨ هجري قمري، الجزاء: ٢ ـ في مجلد واحد ـ.

١٠٠. *الغارات*، إبراهيم بن محمد الثقفي، مؤسسة دار الكتاب، قم ـ إيران، ١٤١٠ هجري قمري، المجلدات: ١.

١٠١. *الغدير*، الشيخ عبد الحسين الأميني، (المتوفى سنة ١٣٩٢ هجري قمري)، دار الكتب العربي، بيروت ـ لبنان، الطبعة الأُولى، ١٣٧٩ هجري قمري، المجلدات: ١٢.

١٠٢. *غرر الحكم ودرر الكلم*، عبد الواحد بن محمد التميمي الآمدي، الناشر دفتر تبليغات اسلامي، قم ـ إيران، ١٣٦٦ هجري شمسي، المجلدات: ١.

١٠٣. *الغيبة*، الشيخ الطوسي، مؤسسة المعارف الاسلامية، قم ـ إيران، ١٤١١ هجري قمري، المجلدات: ١.

١٠٤. *الغيبة*، محمد بن ابراهيم النعماني، مكتبة الصدوق، طهران ـ ايران، ١٣٩٧ هجري قمري، المجلدات: ١.

١٠٥. *غنية النزوع إلى علمي الأصول والفروع*، ابن زهرة الحلبي (المتوفى سنة ٥٨٥ هجري قمري)، تحقيق الشيخ ابراهيم البهادري، مؤسسة الامام الصادق، الطبعة الأُولى، محرم الحرام ١٤١٧ هجري قمري، المجلدات: ١.

١٠٦. *فتح الأبواب*، السيد علي بن موسى بن طاوس، مؤسسة آل البيت (ع)، قم ـ إيران، ١٤٠٩ هجري قمري،المجلدات: ١.

١٠٧. *فتح الباري شرح صحيح البخاري*، ابن حجر العسقلاني (المتوفى سنة ٨٥٢ هجري قمري)، الناشر دار المعرفة للطباعة والنشر، بيروت ـ لبنان، الطبعة الثانية، المجلدات: ١٣.

١٠٨. *الفصول العشرة*، الشيخ المفيد، من منشورات المؤتمر العالمي للشيخ المفيد، قم ـ إيران، ١٤١٣ هجري قمري، المجلدات: ١.

١٠٩. *الفصول المختارة*، الشيخ المفيد، من منشورات المؤتمر العالمي للشيخ المفيد، قم ـ إيران، ١٤١٣ هجري قمري، المجلدات: ١.

١١٠. *الفصول المهمّة في أُصول الأئمّة*، الحرّ العاملي (المتوفى سنة ١١٠٤ هجري قمري)، تحقيق محمد بن محمد حسين القائيني، الناشر مؤسسة المعارف الإسلامية للامام الرضا(ع)، الطبعة الأُولى، ١٤١٨ هجري قمري، المجلدات: ٣.

١١١. *الفضائل*، شاذان بن جبرئيل القمي، من منشورات الشريف الرضي، قم ـ إيران، ١٣٦٣ هجري شمسي، المجلدات: ١.

١١٢. *فضائل الشيعة*، الشيخ الصدوق، من منشورات الأعلمي، طهران ـ إيران، المجلدات: ١.

١١٣. *فقه الرضا*، علي بن بابويه (المتوفى سنة ٣٢٩ هجري قمري)، تحقيق مؤسسة آل البيت، قم ـ إيران، الناشر المؤتمر العالمي للامام الرضا(ع)، مشهد ـ إيران، المجلدات: ١.

١١٤. *فقه القرآن*، قطب الدين الراوندي، مكتبة آية الله المرعشي، قم ـ إيران، ١٤٠٥ هجري قمري، المجلدات: ٢.

١١٥. *فلاح السائل*، السيد علي بن موسى بن طاوس، دفتر تبليغات إسلامي، قم ـ إيران، المجلدات: ١.

١١٦. *قرب الإسناد*، عبد الله بن جعفر الحِمْيري القمّي، مكتبة النينوى، طهران ـ إيران، المجلدات: ١.

١١٧. *قصص الانبياء (ع)*، السيد نعمة الله الجزائري، مكتبة آية الله المرعشي، قم ـ إيران، ١٤٠٤ هجري قمري، المجلدات: ١.

١١٨. *قصص الأنبياء (ع)*، قطب الدين الراوندي، الناشر آستانة القدس الرضوي، ١٤٠٩ هجري قمري، المجلدات: ١.

١١٩. *الكافي*، ثقة الاسلام الكليني، دار الكتب الإسلامية، طهران ـ إيران، ١٣٦٥ هجري شمسي، المجلدات: ٨.

١٢٠. *كتاب سليم بن قيس*، سليم بن قيس الهلالي الكوفي، الهادي، قم ـ إيران، ١٤١٥ هجري قمري، المجلدات: ١.

١٢١. *كتاب المزار*، الشيخ المفيد، من منشورات المؤتمر العالمي للشيخ المفيد، قم ـ إيران، ١٤١٣ هجري قمري، المجلدات: ١.

١٢٢. *الكشاف*، جار الله الزمخشري الخوارزمي، دار المعرفة، بيروت ـ لبنان.

١٢٣. *كشف الريبة*، الشهيد الثاني، الناشر مرتضوي، ١٣٩٠ هجري قمري، المجلدات: ١.

١٢٤. *كشف الغمّة*، علي بن عيسى الإربلي، مكتبة بني الهاشمي، تبريز ـ إيران، ١٣٨١ هجري قمري، المجلدات: ٢.

١٢٥. *كشف اليقين*، العلّامة الحلّي حسن بن يوسف، مؤسسة الطبع والنشر، طهران ـ إيران، ١٤١١ هجري قمري، المجلدات: ١.

١٢٦. *كفاية الأثر*، علي بن محمّد الخزّاز القمّي، الناشر بيدار، قم ـ إيران، ١٤٠١ هجري قمري، المجلدات: ١.

١٢٧. *كمال الدين*، الشيخ الصدوق، دار الكتب الإسلامية، قم ـ إيران، ١٣٩٥ هجري قمري، الاجزاء: ٢ ـ في مجلد واحد ـ.

١٢٨. *كنز العمّال*، المتّقي الهندي (المتوفى ٩٧٥ هجري قمري)، تحقيق الشيخ بكري حيائي، الشيخ صفوة السقا، الناشر مؤسسة الرسالة، بيروت ـ لبنان، المجلدات: ١٦.

١٢٩. *كنز الفوائد*، أبو الفتح الكراجكي، دار الذخائر للمطبوعات، قم ـ إيران، ١٤١٠ هجري قمري، المجلدات: ٢.

١٣٠. *لباب النقول في أسباب النزول*، أبو الفضل جلال الدين السيوطي (المتوفى سنة ٩١١ هجري قمري)، تحقيق أحمد عبد الشافي، الناشر دار الكتب العلمية، بيروت ـ لبنان، المجلدات: ١.

١٣١. *المبسوط في فقه الامامية*، الشيخ الطوسي (المتوفى سنة ٤٦٠ هجري قمري)، تحقيق محمد تقي الكشفي، الناشر المكتبة المرتضوية، ١٣٨٧ هجري قمري، طهران ـ إيران، المجلدات: ٨.

١٣٢. *متشابه القرآن*، ابن شهراشوب المازندراني، الناشر بيدار، قم ـ إيران، ١٣٢٨ هجري شمسي، الأجزاء: ٢ ـ في مجلد واحد ـ.

١٣٣. *المتعة*، الشيخ المفيد، من منشورات المؤتمر العالمي للشيخ المفيد، قم ـ إيران، ١٤١٣ هجري قمري، المجلدات: ١.

١٣٤. *مثير الأحزان*، ابن نما الحلّي، تحيق ونشر مدرسة الامام المهدي (عج)، قم ـ إيران، ١٤٠٦ هجري قمري، المجلدات: ١.

١٣٥. مجمع *البحرين*، الشيخ فخر الدين الطريحي (المتوفى سنة ١٠٨٥ هجري قمري)، تحقيق السيد أحمد الحسيني، الناشر مكتب نشر الثقافة الاسلامية، الطبعة الثانية، ١٤٠٨ هجري قمري، المجلدات: ٤.

١٣٦. مجمع *البيان في تفسير القرآن*، امين الاسلام أبو علي الفضل بن الحسن الطبري (المتوفى سنة ٥٦٠ هجري قمري)، الناشر مؤسسة الأعلمي، بيروت ـ لبنان، الطبعة الأُولى ١٤١٥ هجري قمري، المجلدات: ١٠.

١٣٧. مجموعة *ورام*، ورام بن ابي فراس، مكتبة الفقيه، قم ـ إيران، الجزاء: ٢ ـ في مجلد واحد ـ.

١٣٨. *المحاسن*، احمد بن محمد بن خالد البرقي، دار الكتب الإسلامية، قم ـ إيران، ١٣٧١ هجري قمري، المجلدات: ١.

١٣٩. *مسار الشيعة*، الشيخ المفيد، من منشورات المؤتمر العالمي للشيخ المفيد، قم ـ ايران، ١٤١٣ هجري قمري، المجلدات: ١.

١٤٠. *المستجاد من كتاب الإرشاد* (المجموعة)، العلّامة حسن بن المطهر الحلّي (المتوفى سنة ٧٢٦ هجري قمري)، الناشر مكتبة آية الله المرعشي النجفي، قم ـ إيران، الطبعة الأُولى، ١٤٠٦ هجري قمري، المجلدات: ١.

١٤١. مستدرك *الوسائل*، المحدث النوري، مؤسسة آل البيت ـ عليهم السلام ـ، قم ـ إيران، ١٤٠٨ هجري قمري، المجلدات: ١٨.

١٤٢. مستطرفات *السرائر*، محمد بن ادريس الحلّي، جامعة المدرسين، قم ـ إيران، ١٤١١ هجري قمري، المجلدات: ١.

١٤٣. مستند *الشيعة*، المحقق النراقي (المتوفى سنة ١٢٤٥ هجري قمري)، تحقيق والنشر مؤسسة آل البيت (ع) لإحياء التراث، مشهد ـ إيران، الطبعة الأُولى ١٤١٥

هجري قمري، المجلدات: ١٥.

١٤٤ . مسكن *الفؤاد*، الشهيد الثاني، مكتبة بصيرتي، قم ـ إيران، المجلدات: ١.

١٤٥ . مشرق *الشمسين*، الشيخ بهاء الدين العاملي، (المتوفى سنة ١٠٣١ هجري قمري)، الناشر مكتبة بصيرتى، قم ـ إيران، ١٣٩٨ هجري قمري، المجلدات: ١.

١٤٦ . مشكاة *الأنوار*، أبو الفضل علي بن حسن الطبرسي، المكتبة الحيدرية، النجف الاشرف ـ العراق، ١٣٨٥ هجري قمري، المجلدات: ١.

١٤٧ . *مصادقة الإخوان*، الشيخ الصدوق، الطبع الكرماني، قم ـ إيران، ١٤٠٢ هجري قمري، المجلدات: ١.

١٤٨ . *المصباح*، ابراهيم بن علي العاملي الكفعمي، من منشورات الشريف الرضي، قم ـ إيران، ١٤٠٥ هجري قمري، المجلدات: ١.

١٤٩ . مصباح *الشريعة*، الامام الصادق ـ عليه السلام ـ، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، ١٤٠٠ هجري قمري، المجلدات: ١.

١٥٠ . مصباح *المتهجد*، الشيخ الطوسي، مؤسسة فقه الشيعة، بيروت ـ لبنان، ١٤١١ هجري قمري، المجلدات: ١.

١٥١ . *معاني الأخبار*، الشيخ الصدوق، من منشورات جامعة المدرسين، قم ـ إيران، ١٣٦١ هجري شمسي، المجلدات: ١.

١٥٢ . *معدن الجواهر*، أبو الفتح الكراجكي، المكتبة المرتضوية، طهران ـ إيران، ١٣٩٤ هجري قمري، المجلدات: ١.

١٥٣ . *مفتاح الفلاح*، الشيخ البهائي، دار الأضواء، بيروت ـ لبنان، ١٤٠٥ هجري قمري، المجلدات: ١.

١٥٤ . *المفردات في غريب القرآن*، الحسين بن محمد المعروف بالراغب الاصفهاني، دار المعرفة، بيروت ـ لبنان، المجلدات: ١.

١٥٥ . *المقنعة*، الشيخ المفيد، من منشورات المؤتمر العالمي للشيخ المفيد، قم ـ إيران،

١٤١٣ هجري قمري، المجلدات: ١.

١٥٦. *مكارم الأخلاق*، رضي الدين حسن بن فضل الطبرسي، الناشر الشريف الرضي، قم ـ إيران، ١٤١٢ هجري قمري، المجلدات: ١.

١٥٧. *المناقب*، الموفق بن احمد بن محمد المكّي الخوارزمي (المتوفى سنة ٥٦٨ هجري قمري)، تحقيق الشيخ مالک المحمودي، الناشر مؤسسة النشر الإسلامي، الطبعة الثانية، ١٤١١ هجري قمري، المجلدات: ١.

١٥٨. *مناقب آل أبي طالب (ع)*، ابن شهراشوب المازندراني، مؤسسة انتشارات العلّامة، قم ـ إيران، ١٣٧٩ هجري قمري، المجلدات: ٤.

١٥٩. *منتخب الأنوار المضيئة*، علي بن عبد الكريم النيلي النجفي، طباعة خيام، قم ـ إيران، ١٤٠١ هجري قمري، المجلدات: ١.

١٦٠. *من لا يحضره الفقيه*، الشيخ الصدوق، الناشر جامعة المدرسين، قم ـ إيران، ١٤١٣ هجري قمري، المجلدات: ٤.

١٦١. *منية المريد في أدب المفيد والمستفيد*، الشهيد الثاني (الشهادة سنة ٩٦٦ هـجري قمري)، تحقيق رضا المختاري، الناشر مكتب الاعلام الاسلامي، الطبعة الأُولى ١٤٠٩ هجري قمري، ١٣٦٨ هجري شمسي، المجلدات: ١.

١٦٢. *مهج الدعوات*، السيد علي بن موسى بن طاوس، دار الذخائر للمطبوعات، قم ـ إيران، ١٤١١ هجري قمري، المجلدات: ١.

١٦٣. *الميزان في تفسير القرآن*، العلامة السيد محمد حسين الطباطبائي (المتوفى سـنة ١٤٠٢ هجري قمري)، الناشر مؤسسة النشر الإسلامي، قم ـ إيران، المجلدات: ٢٠.

١٦٤. *نزهة الناظر*، يحيي بن سعيد الحلّي، الناشر الشريف الرضي، قم ـ إيران، ١٣٩٤ هجري قمري، المجلدات: ١.

١٦٥. *نظم درر السبطين*، جمال الدين محمد بن يوسف بن الحسن بن محمد الزرندي الحنفي، (المتوفى سنة ٧٥٠ هجري قمري)، المطبعة من مخطوطات مكتبة الامام

أمير المؤمنين(ع) العامة، الطبعة الأُولى ١٣٧٧ هجري قمري، ١٩٥٨ ميلادي، المجلدات: ١.

١٦٦. *النكت الاعتقادية*، الشيخ المفيد، من منشورات المؤتمر العالمي للشيخ المفيد، قم ـ إيران، ١٤١٣ هجري قمري، المجلدات: ١.

١٦٧. *النوادر*، احمد بن محمد بن عيسى الأشعري، تحقيق ونشر مدرسة الامام المهدي (عج)، قم ـ إيران، ١٤٠٨ هجري قمري، المجلدات: ١.

١٦٨. *النوادر*، السيد فضل الله الراوندي، مؤسسة دار الكتاب، قم ـ إيران، المجلدات: ١.

١٦٩. *النهاية في غريب الحديث والأثر*، مجد الدين أبو السعادات المبارك بن محمد الجزري ابن الأثير، مؤسسة اسماعيليان، قم ـ إيران.

١٧٠. *نهج البلاغة*، الامام علي بن ابي طالب ـ عليه السلام ـ، دار الهجرة، قم ـ إيران.

١٧١. *نهج الحق وكشف الصدق*، العلامة الحلّي حسن بن يوسف، مؤسسة دار الهجرة، قم ـ إيران، ١٤٠٧ هجري قمري، المجلدات: ١.

١٧٢. *وسائل الشيعة*، الشيخ حرّ العاملي، مؤسسة آل البيت ـ عليهم السلام ـ قم ـ إيران، ١٤٠٩ هجري قمري، المجلدات: ٢٩.

١٧٣. *الوسيلة*، ابن حمزه الطوسي، مكتبة آية الله المرعشي، قم ـ إيران، ١٤٠٨ هجري قمري، المجلدات: ١.

١٧٤. وقعة صفّين، نصر بن مزاحم بن سيار المنقري، مكتبة آية الله المرعشي، قم ـ إيران، ١٤٠٣ هجري قمري، المجلدات: ١.

١٧٥. *اليقين*، السيد علي بن موسى بن طاوس، مؤسسة دار الكتاب، قم ـ إيران، ١٤١٣ هجري قمري، المجلدات: ١.

١٧٦. *ينابيع المودة لذوي القربى*، الشيخ سليمان بن ابراهيم القندوزي الحنفي، (المتوفى السنة ١٢٩٤ هجري قمري)، تحقيق السيد علي جمال أشرف الحسيني، الطبعة الأُولى ١٤١٦ هجري قمري، الناشر دار الأسوة، المجلدات: ٣.